

التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين
ابن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ
رحمه الله تعالى

الجزء الاول

تحقيق وتعليق
الدكتور
عبد الرحمن عميرة
عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الازهر.

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان

التفسير الكبير



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأرشد المسلمين إلى كتاب ربهم فصنع منهم سادة وقادة ، مدنوا الدنيا ، وهذبوا العالم ، وقرروا الحق للبشرية كلها .

إن القلم لا يستطيع أن يصور الفرحة التي غمرت حياتنا بعد أن أعاننا الله تعالى ووفقنا إلى إخراج كتاب « التفسير الكبير » بأجزائه العشرة لأول مرة في تاريخ الأمة الاسلامية لشيخ الاسلام ـ في عصره ـ ابن تيمية ، محققة أصوله ومخرّجة أحاديثه ، ومنضبطة نصوصه .

ولا شك أن قلوب الملايين من أبناء الأمة الاسلامية بعامة ، وقلوب المهتمين بعلوم القرآن وتفاسيره بخاصة ستغمرهم مثل هذه الفرحة ، ويثلج صدورهم إبراز الكتاب بالصورة الجميلة التي أخرج بها .

ولكن يبقى بعد إخراج الكتاب سؤال يتردد في قلوب المشككين الذين لا يعملون ويؤذي نفوسهم أن يعمل الناس ـ أهذا كل ما كتبه ابن تيمية في تفسير الكتاب العزيز . . . ؟

ويتضخم هذا السؤال ليفرز في النهاية رواية تمعن في الاغراق والتزيد لتقرر أن التفسير الذي كتبه ابن تيمية يصل إلى الثلاثين مجلداً أخذ منه قسراً ـ وهو في سجنه ـ وأحرق بأكمله . . ؟؟

ويطيب لنا أن نمحص هذه الرواية حتى نصل إلى الحقيقة في هذه القضية التي تقرر مصادرة الفكر وإحراقه .

لقد دخل ابن تيمية السجن ثلاث مرات .

الأولى : كانت في رمضان سنة ٧٠٥ هـ عندما أدعى عليه زين الدين بن مخلوف ـ قاضي المالكية في ذلك الوقت ـ أنه يقول : إن الله فوق العرش حقيقة وإنه يتكلم بحرف وصوت . ؟؟

وفي هذه المرة دافع عنه الأمير سلار حاكم القاهرة ـ وجمع القضاة الثلاثة ، الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، وبعض الفقهاء ، وتكلم معهم في إخراج الشيخ من السجن وإطلاق سراحه .

ورأى الحاكم أن بقاء الشيخ في السجن لا يتفق مع الدين ، ولا العدل ولا الخلق . وكيف يحدث له ذلك ، وهو الذي قاد الجموع ، وحرك الجيوش ، وتقدم للموت ، وكان روح المقاومة العنيفة التي انتهت بالانتصار على التتار .

وتم فعلاً إخراجه في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ بعد أن مكث في السجن نحو ثمانية عشر شهراً .

فهل كتب ابن تيمية في هذه الثمانية عشر شهراً كتابه « التفسير الكبير » المكون من ثلاثين جزءاً كما يدعي الأدعياء . . ؟

إن أمامنا احتمالين :

الأول : أن العقل يستبعد أن يكتب في هذه الفترة القليلة من عمر الزمن مثل هذا التفسير ، وكيف يتم له ذلك . . ؟ وهو القائل : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلم آدم ، وابراهيم علمني . »

الثاني : أنه كتب هذا التفسير فهل يعقل أن الحاكم يحرقه . . ؟ والحاكم هذا هو الذي سعى للتوفيق بينه وبين الفقهاء ثم عمل على إخراجه من السجن وبعد

خروجه أراد ابن تيمية السفر إلى دمشق ، ولكن الحاكم يستبقيه في القاهرة معززاً مكرماً لينتفع الناس بعلمه .

الثانية : بقي الشيخ ابن تيمية في القاهرة ، وأخذ يزاول نشاطه في خدمة الإسلام والمسلمين ، يبصرهم بأمور دنياهم ويرشدهم إلى فهم دينهم .

ولقد كان للصوفية في ذلك الوقت سلطان قوي ، وكلمة نافذة ، وقد أخذوا أنفسهم بمذهب وحدة الوجود ، وهو المذهب الذي يوجد بين الواجد والموجود ، والخالق والمخلوق .

رأى ابن تيمية ذلك فنزل باللائمة عليهم ، وكشف ضلالهم ، وفضح خداعهم وزيفهم . فلما رأى الصوفية ذلك جمعوا جموعهم وساروا إلى القلعة يشكون ابن تيمية ومن ورائهم اتباعهم .

ولقد ضاقت الدولة ذرعاً بذلك وأحست أن الفوضى أخذت تدبُّ في أنحاء البلاد نتيجة للشغب الذي يقوم به الصوفية فأرادت أن توقف هذه الأمور فأحضر الحاكم ابن تيمية وخيره بين أمور ثلاثة :

أ ـ إما أن يسير إلى دمشق وهي موطنه ومكان أهله .
ب ـ وإما أن يذهب إلى الاسكندرية ويقبل الشروط التي يمليها عليه .
ج ـ وإما الحبس .

والعجب أن ابن تيمية اختار الحبس لأنه رأى بثاقب فكره أن تقييد الجسم في الحركة خير له من أن يقيد فكره ولسانه .

وهذه هي المرة الثانية التي دخل فيها السجن .
يقول ابن كثير تلميذ ابن تيمية :

« لم يكن الحبس حبساً بمعناه الحقيقي بل كان إقامة مفيدة ، فقد كان طلاب العلم يغدون ويرحون إليه ، وترسل إليه الفتوى من الأمراء والأعيان ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى خرج من محبسه ، بقرار من مجلس الفقهاء والقضاة عقد بالمدرسة

الصالحية ، وأكب الناس على الاجتماع به ليلاً ونهاراً » .

فالحبس في المرة الثانية : كان صيانة له من غوغاء الصوفية الذين كانوا يتربصون به الدوائر ، ولهذا قال قاضي القضاة ـ ابن جماعة ـ إن الحبس فيه مصلحة له .

أنقول بأنه كتب تفسيره في هذه الفترة الثانية التي قضاها في السجن . . ؟
إن أمامنا احتمالين أيضاً :
الأول : أن يكون كتب تفسيراً في هذه الفترة فإن كان الأمر كذلك فلا شك أن تلاميذه ومريديه الذين كانوا يذهبون إليه في سجنه كانوا ينسخون ما كان يكتبه أولاً بأول ثم يشاع منهم ويقوم بنسخه العلماء والمفكرون .

الثاني : أنه لم يكتب شيئاً لأنها فترة وجيزة وشغل فيها بتحبير الفتاوى والرد على أسئلة طلاب العلم والمعرفة .

الثالثة : دخل ابن تيمية السجن في قلعة دمشق عام ٧٢٦ هو بأمر من السلطان لأنه نهاه عن الفتوى فلم يستجب له .

وفي هذه المرة أخليت له قاعة في القلعة وأجري إليها الماء وأقام معه أخوه « زين الدين » يخدمه بإذن السلطان ، وأجري عليه ما يقوم بكفايته .

وقال ابن تيمية عند ذلك : أنا كنت منتظراً ذلك ، وهذه فيه خير كثير ومصلحة كبيرة لنا . » .

ونرى أن الخير الكثير الذي يقصده ابن تيمية يتمثل في أمرين :

أولاهما : العبادة ، فقد وجد في هدأة السجن فرصته لمناجاة ربه في شيخوخته تلك الفترة التي يحس فيها الانسان بدنو أجله .

وثانيهما : الاتجاه إلى تمحيص آرائه وتدوينها وهو في هذا الهدوء الشامل الباعث على التأمل وبين يديه الكتب يراجع فيها وينقب .

يقول ابن كثير : وقد كتب في ذلك كثيراً من تفسير القرآن الكريم ، وكان ما بكتبه يخرج إلى الناس وينسخه العلماء وطلاب العلم ، وخصوصاً رده على بعض لقضاة المالكية في مصر واسمه ـ عبدالله بن الأخنائي وسماها « الاخنائية » وقد طبعت في مصر .

إن فكره يذاع ورأيه ينشر إن ما حبس من ابن تيمية هو جسده فقط أما أفكاره وآراؤه فهي بين الناس حية قائمة يتداولها الخاص والعام . إن ما قصدوه بالحبس لم يتحقق ، إن ما كانوا يخشونه منه ـ هو فكره الذي يوجه ويرشد ويصنع العمالقة ويقيم الثورات إذا لزم الأمر .

وقرروا أمراً ، ومكروا مكراً ، وهو أن يمنع الشيخ من الكتابة ، أن يحبسوا فكره ، أن يسجنوا علمه .

وفي اليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ٨٢٨ أخرج ما كان لدى الشيخ رضي الله عنه من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام ، وحملت كتبه ومراجعه إلى المكتبة الكبرى بالعادلية فنظر فيها القضاة والفقهاء ثم بقيت محفوظة بهذه المكتبة .

إن كتبه لم تحرق ، ومراجعه لم تعدم بل بقيت في هذه المكتبة نبعاً ثرياً لطلاب العلم ، والمعرفة . ومائدة شهية لهؤلاء الراغبين في فهم دينهم ، والتفقه في شرع ربهم .

والمطالع للجزء الرابع عشر من تاريخ البداية والنهاية لابن كثير تلميذ ابن تيمية ، والذي سجل فيه الكثير من أخبار شيخه لا يرى إلاّ المطاردة والمصادرة لفكره، ولم يذكر حرقاً ولا إعداماً لهذه المؤلفات .

بل إن ابن كثير يجمع الكثير من أراء ابن تيمية وفكره والذي كتبها بعد مصادرة أوراقه وأقلامه على بعض القصاصات المتناثرة بأقلام الفحم المتبقي من الوقود .

ومن هذه القصاصات : « نحن ولله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله بل جهادنا في هذا مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية، والجهمية ، والاتحادية وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . » .

لقد حفظ التاريخ بعض هذه القصاصات التي كتبت بفحم في أغوار السجن فكيف لم يحفظ كتاباً ضخماً في التفسير. . ؟

وكيف لم يسجل ابن كثير قضية الحرق هذه ، وهو الذي لم يترك شاردة ولا واردة في حياة شيخه الا سجلها . . ؟

إن العقل والمنطق ، ووقائع الأحداث ، والوثائق التي توصلنا إليها تنفي نفياً باتاً ما يدّعيه الأدعياء وما يشيعه المتزيدون .

وإذا كان ذلك فما أصل هذه القضية وما حكاية الثلاثين مجلداً التي يقول بها هؤلاء الناس . . ؟ وهل كتب ابن تيمية تفسيراً كاملاً لآيات القرآن الكريم . . ؟

إننا لكي نجلي هذا الأمر ونوضحه علينا أن نستقرأ النصوص والأحداث التي توصلنا إليها مع الاعتماد على أقوال ابن تيمية شخصياً في هذا الأمر : لقد طلب منه أحد تلاميذه ـ وهو في السجن ـ أن يكتب تفسيراً للقرآن الكريم كله مرتباً وكاملاً فكتب ابن تيمية إليه قائلاً :

« إن القرآن منه ما هو بين بنفسه ، وفيه ما قد بيّنه المفسرون في غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة العلماء ، فربما يطالع الانسان فيها عدة كتب ، ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية تبين معاني نظائرها . » .

إن ابن تيمية في هذا النص ليس مقتنعاً بتفسير القرآن الكريم آية آية . فقد سبقه في ذلك كثير من المفسرين وبعضهم أصاب كبد الحقيقة والبعض الآخر لم يفتح الله عليه .

فهو يتناول مثل هذه الآيات التي يقول فيها « ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يا معلم آدم وأبراهيم علمني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمرغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى الفهم

وأقول : يا معلم ابراهيم فهمني . » .

إن هذا النص يدل دلالة قاطعة على ابن تيمية كتب تفسيره وهو خارج السجن فهو يذهب إلى المساجد البعيدة ، والأماكن المهجورة ويطلب من الله أن يعلمه وأن يفهمه .

إن ما كتبه في سجنه من التفاسير هو تفسير سورة الاخلاص والمعوذتين فقط ولقد حفظ هذا التفسير وطبع أكثر من مرة في مصر ودمشق ولم تسقط منه كلمة واحدة عمّا كتبه الشيخ في سجنه .

وإذا كان ذلك كذلك فما قضية الثلاثين مجلداً من التفسير . . ؟

« إن الشيخ ابن تيمية كان معنياً بجمع نقول السلف في التفسير ولعل ما جمعه هو المجلدات الثلاثون » ولقد وجدت كاملة ، ولذا كتب ابن تيمية عليها « كتبته للتذكرة » .

وإذا كانت المقدمات السليمة تؤدي إلى النتائج الصحيحة ـ فإن ما نقدمه الآن إلى الأمة الاسلامية هو التفسير الكامل الذي كتبه ابن تيمية كاملاً غير منقوص . وعلى الله قصد السبيل .

الحالة السياسية

إن أصدق ما ينطبق على الحالة السياسية في عصر ابن تيمية ويعبر عنها أصدق تعبير حديث الرسول ـ ﷺ ـ الذي رواه الإمام أبو داود في سننه بسنده عن ثوبان ـ رضي الله عنه .

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها .

فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله . . ؟

قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدر عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » .

قال قائل : يا رسول الله وما الوهن . . . ؟

قال : حب الدنيا وكراهية الموت . »[1]

هذا ـ والحق يقال ـ حال المسلمين في القرن السابع والثامن بعد الهجرة حيث صارت حياتهم ضعفاً وتفككاً وهواناً .

هواناً لف ليلهم وأعتم نهارهم ، . وضعفاً شمل أفرادهم وحكامهم ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً . الأمر الذي جعل كل حاكم على ولاية ينظر إلى من يجاوره من الحكام الآخرين على أنهم أعداء يجب أن يتربص بهم ليقضي عليهم قبل أن يقضوا عليه .

ليس هذا فحسب بل لجأ بعضهم إلى أعدائهم ، أعداء العقيدة ، وأعداء الدين ليستنصر بهم على أخوة الدين والعقيدة . . ؟

---

(١) أبو داود في كتاب الملاحم ٥ والامام أحمد بن حنبل في مسنده ٥ : ٢٧٨ (حلبي) .

ولما رأى أعداؤهم ما وصل إليه حالهم من التفكك والتباغض ، من الضعف والهوان ، أجمعوا العدة ، وجيشوا الجيوش للقضاء عليهم .

يقول المؤرخ المدقق ابن الأثير :

« لقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم . منها هؤلاء التتر فمنهم من أقبل من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها . ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر ، وامتلاكهم ثغرها ـ أي دمياط ـ وأشرفت ديار مصر وغيرها على أنه يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ومنها أن السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة » .

إن هذا الكلام الذي ساقه ابن الأثير يدل دلالة واضحة على أن المسلمين في تلك الآونة من تاريخهم تعرضوا لثلاث من الهجمات الشرسة :

الأولى : الهجمات الصليبية والتي استمرت في رأي بعض المؤرخين قرابة الثلاثة قرون .

والثانية : هجمات التتار الذين خرجوا من أواسط آسيا الصغرى .

والثالثة : هجمة من داخله بالعداوة المستحكمة بين حكامه وأمرائه .

ويطيب لنا أن نبدأ حديثنا بالتعرف على الهجمة الداخلية والتي تعتبر ـ في رأينا أشد الهجمات ضراوة للأمة الإسلامية لأن ما جاء بعدها يعتبر نتيجة طبيعية لها وأثر من آثارها .

لقد ذكر بعض المؤرخين أن من أسباب الحروب الصليبية أن الفاطمين في مصر لما رأوا ملك السلجوقيين يتسع حتى استولوا على الشام ، ولم يكن لهم قبل بدفعهم كاتبوا ملوك الافرنج يدعونهم للخروج لامتلاك الشام ويكونوا بينهم وبين المسلمين .

إن مجرد ذكر هذا الكلام في كتب التاريخ يدل دلالة واضحة على أن المسلمين في هذا العصر كادوا ينسلخون من دينهم جملة ،وأوشكت الصلة أن تنقطع بينهم وبين خالقهم أو انقطعت بالكامل ـ وإلا لو كانت متينة ومتصلة في قلوبهم لملأتها بالإيمان ،

وحـالت بينهم وبين الخـوف وتوقـع الهزيمـة تصديقـاً لقولـه تعـالى : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] .

ولكن مـا سجله التـاريـخ يقـرر أن أقـدامهم لم تثبت ، وقلوبهم لم تـطمئن ، واستجاروا من الرمضاء بالنار .

وما حدث في مصر حدث نظيره في الشام يقول المؤرخ ابن الأثير :

« لقد كان بوادي التيم من أعمال بعلبـك أصحاب مـذاهب مختلفة ومنهم بعض المجوس وغيرهم ، وقد آلت الرياسة فيهم إلى رجل اسمه « المزدقاني » علا شأنـه وكثر أتباعه فراسل الفرنج ليسلم إليهم مـدينة دمشق ويسلمـوا إليه مـدينة صـور ، واستقر الأمر بينهم على ذلك ، وتقرر بينهم الميعاد وقرر « المزدقاني » مع الاسماعيلية أن يحتاطوا لذلك اليوم (بأن) يقفـوا بأبـواب الجوامـع فلا يمكنـوا أحداً من الخـروج منه ليجيء الفرنج ويملكوا البلاد ، فبلغ ذلك التدبير صاحب دمشق فاستدعى « المزدقاني » إليه ، ولما حضر خَلا بِهِ وقتله ، وعلق رأسه على باب القلعة ، ونادى مناديه في المـدينة بقتـل كافة الباطنية » .

ولما علم الأعداء (الفرنجة) بمـا حدث لصـديقهم ووليهم المسلم انقضوا عـلى المدينة ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فألحقوهم بأوليائهم الباطنية ، وأذاقـوهم أليم الموت بعد أن ذاقوا أليم الحرب .

فعل المنشقون على دينهم واخوانهم ذلك وحسبوا أن عزهم ونصرهم عند هؤلاء وتناسوا قول الله تعالى :

﴿ **يـا أيهـا الـذين آمنـوا لا تتخـذوا اليهـود والنصـارى أوليـاء بعضهم أوليـاء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الـظـالمين فـترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أنه يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾[2] .

---

(١) سورة محمد آية : ٧ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥١ ـ ٥٢ .

وما حدث في مصر وفي الشام حدث نظيره في بغداد عاصمة الخلافة في ذلك الوقت . لقد كان ابن العلقمي وزير المعتصم آخر خليفة عباسي أقام ببغداد ، وكان شيعياً غالياً ارتضى لنفسه أن يمالىء عبدة الشمس من التتار على عبدة الواحد القهار فخان دينه ، وخان بلاده ، وذلك بعمله على إضعاف جند بغداد إلى عشرة آلاف بعد أن كانوا مائة ألف أو يزيدون عند توليه الوزارة .

وعندما وصل الجيش إلى هذا العدد القليل أطمع التتار ، وكشف لهم الحال ، وأبان لهم ضعف الجيش ، وقلل من قيمة القوة الضاربة التي تقف في طريقهم ، ولم يكتف بذلك بل إنهم عندما أقبلوا كالوحوش الكاسرة الضارية ، حسن للخليفة مصالحتهم على أن يترك لهم نصف خراج العراق ، ويكون للخليفة النصف الآخر ، فرضي بما أشار عليه به وزيره .

وذهب الخليفة إلى « هولاكو » في قلعته ، ولكنه رد مذموماً مدحوراً لأن الوزير الذي يملأ الحقد كل ذرة من قلبه أشار على « هولاكو » ألا يقبل مصالحة الخليفة خشية نقضه الصلح عند جماع حمله واعداد قوته بل وأغراه بقتله ؟؟ وقتل خليفة المسلمين بإشارة الروافض ، واندفعت جيوش التتار داخل بغداد يقتلون ويخربون ، ولم ينج من هذه المذبحة إلا اليهود والنصارى ومن لجأ إلى العلقمي الخائن . فهؤلاء كان لهم عند « هولاكو » الأمان .

إن هذه الخيانات المتلاحقة في تاريخ المسلمين تقرب إلى أذهاننا صورة هذا العصر ، وتبين لنا كيف كان المسلمون في هذا الزمن والبلاء بلاء يتناحرون في أرائهم ومعتقداتهم فأشبه حالهم حال أهل « القسطنطينية » عندما كانوا يتجادلون في نحلهم وفرقهم ومحمد الفاتح القائد المظفر يدق أبوابها ويشتت شمل أتباعها .

وهؤلاء يقتتلون ويكيد بعضهم لبعض وجيوش التتار قد أزالوا كل ما وراءهم من بلاد وعباد .

ثم تعطينا هذه الحوادث صورة أخرى للتعصب المذهبي الذي يعمي القلب

والبصيرة فيتقدم وزير أعطى أمانة الخلافة والملك إلى أعداء الله والدين فيستعديهم على بلده وأهل دينه .

ومن هنا نفهم سر الحملة الضارية التي كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يشنها على هؤلاء الروافض الذين جعلوا كتاب ربهم وراءهم ظهرياً .

إن هذه الخيانات المتتابعة في تاريخ هذه الأمة قديماً وحديثاً لهي العامل المباشر في ضعف قوتهم ، وذهاب دولتهم ، وجعلهم في النهاية أتباع في ذيل القافلة . تحتل أرضهم فلا يحمى لهم أنف ، وتداس مقدساتهم فلا يندى لهم جبين . حتى الذين كنا نقول لهم بلسان الإسلام ـ فيما سبق ـ أسلموا تسلموا ، يقولون لنا بلسان الاضطهاد تنصَّروا تنصروا . ؟؟

الحروب الصليبية . .

سؤال يطرح نفسه ، لماذا كانت الحروب الصليبية . . ؟ وما الدوافع والأسباب التي أدت الى قيامها . . ؟

أكانت من أجل نصرة الصليب ، والدفاع عن عقيدته . . ؟ وخصوصاً أن تلك الحروب نسبت إلى « بطرس الراهب » نعم « بطرس الراهب » الذي طاف الآفاق داعياً إلى فتح البلاد المقدسة التي تفيض لبناً وعسلاً على حد قول هذا الموتور . . ؟

أكانت من أجل استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين . . ؟ والذي يمثل ـ في نظرهم ـ أنه مهد المسيحية الأول ، وفيه ولد « ناسوت » المسيح ، وقبر ثم قام على حسب اعتقادهم ، فمن استولى عليه فقد استولى على عرش المسيحية في كل البقاع . . ؟

أم كانت لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين المسلمين ، المسلمون الذين انقضوا على الشام فأخذوه، وانقضوا على مصر فاستولوا عليها ، وصارت هذه الأقاليم إسلامية ترتفع مآذن مساجدها في الآفاق ويدوي في أرجائها صوت الله أكبر ، ويقام فيها حكم الإسلام العادل ، ويضيء ظلامها نوره المشرق ؟ .

ومن هذا التاريخ أقضت الجيوش الإسلامية ـ في صدر الإسلام ، وفي العصرين الأموي والعباسي مضاجع حكام الرومان وانتقصوا الأرض من أطرافها عليهم وذلك باستيلائهم على الأندلس ، ومحاصرة عاصمتهم « القسطنطينية » وتوغل

جيوشهم الجرارة داخل أوروبا حتى وصلت إلى « كروسيكا » مـواطن « نابليـون » على مشارف فرنسا .

إننـا نميل إلى هـذا الرأي الأخـير في اندلاع الحـروب الصليبية ، وخصـوصاً أن أوروبا لم يغمض لها جفن لاستمرار البلاد في حوزة المسلمين ، فكانت دائماً عـلى أهبة الاستعداد والترصد ، وسلكت إلى ذلك طـرقاً عـدة ، منها إشـاعة الفـرقة بـين حكام المسلمين ، وإرسال الجواسيس لكشف عوارتهم ، والتعـرف على مـواضع الضعف في تحصيناتهم ، وإعداد القوة الضاربة لاسترداد هذه البلاد .

تقول بعض الروايات التاريخية إن أحد الجواسيس من الفرنجة توغل داخل بلاد الأنـدلس عقب وقوعهـا في حوزة المسلـمين فـرأى طفـلاً تحت شجـرة يبكي ويـذرف الدموع الغزار . . ؟؟

فتقدم إليه الجاسوس وسأله ما الذي يبكيك يا بني . . ؟

فأجابه الطفل اليافـع لأنني لم أستطع إصـابة الهـدف الذي حـدد [illegible] وهو صيـد العصفور الذي يقف فوق الشجرة . . ؟؟

فقال الجاسوس : هون عليك فهذا أمر هين ، وعاو[illegible] الكرة من جـديد . ولكن الطفل المسلم ابن الأبطال المغاويـر قال لهـذا الرجـل المتطفـل : إن الذي يبكيني أمـر أعمق من صيد العصفور .

قال الجاسوس : ما هو . . ؟

قال الطفل الكبير : إذا كنت لا أستـطيع أن أصيـد العصفور اليـوم ـ كما فعـل أترابي ـ بسهم واحد فكيف أستطيع أن أصيب عدوي غداً . . ؟

وعندما أبلغ الجاسوس هذه الواقعة إلى ملكهم قال :

« الرأي عندي ألا تعترضوهم ـ أي العرب ـ في خرجتهم هذه ، فإنهم كـالسيل يحمل من يصادره ، وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العـدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع .

«ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم ويتخـذوا المساكن ، ويتنـافسوا في الـرياسـة

ويستعين بعضهم على بعض فحينئذٍ تتمكنون منهم بـأيسر أمر ».

ولقد تحقق ما تنبأ به هـذا الملك ـ كما قلنـا في بدايـة هذا البحث ـ لقـد استعان حكام الولايات بالأندلس بأعدائهم الفرنجة لكسر شوكة إخوانهم الأمراء بالأندلس .

واستعان ابن العلقمي الوزير الرافضي بالمغول لتحطيم الدولة المسلمة في بغـداد واستعان الوزير الفاطمي في مصر بالصليبين للقضاء على المناوئين له في الحكم .

ثم ماذا . . ؟ لقد شغلت الحروب الصليبية المسلمين نحو ثلاثة قرون أبلى فيهـا السلاجقة ثم الأيـوبيون من بعـدهم ـ بلاء حسنـاً وكان آخـر ضربة وجهتهـا الجيوش المصرية إلى هؤلاء المغيرين في موقعة حطين ـ فانتصروا عليهم انتصاراً مظفراً ، وأسروا ملوكهم وقادتهم ووضعوهم في سجون أعدت لذلك .

ولقـد عاش ابن تيميـة في العصر الذي جـاء بعد ذلـك ، وسمعت أذناه ووعى قبله الأهوال الكبيرة ، والحروب المدمرة التي مني بها المسلمون في ذلك العصر .

التتار في بلاد المسلمين . . ؟؟

إذا كانت الحروب الصليبية قد تركت جروحاً غائرة ، وندوبـاً موجعـة في جسم الأمـة الإسـلاميـة . فـإن هـذه الجـروح مـا كـادت تنـدمـل ، وتخضرّ الأشجـار التي صوحت ، وتفور المياه التي جفت حتى كانت جيـوش جرارة خـرجت من أواسط آسيا الصغرى تحمل معها الدمـار والخراب والفنـاء ، واندلحت في جسم الأمـة الإسلاميـة تحـرق الأخضر واليابس ، وتبتلع بـلاد المسلمين الـواحدة تلو الأخـرى ، حتى وصلت إلى بغداد عاصمة الخلافة فأطبقت عليها من كل جانب حتى سقطت بـين مخالبهـا جثة هامدة .

ولا يستـطيع الانسـان أن يتصور الأهـوال والمصائب التي صبهـا هؤلاء المغيرين على أهالي بغداد العزل من كل سلاح .

يقول ابن الاثير في كتابه الكامل :

« لقد بقيت عدة سنوات معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، وهأنذا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين . . ؟

ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها ، وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً . » .

فنقول هذا الفعل متضمن ذكر الحادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم « عليه السلام » إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا » .

هؤلاء « التتار » لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ـ فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالرياح .

إن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ، ومنها إلى بلاد ما وراء النهر فملكوها ، ثم عبرت طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً ، وقتلاً ، ونهباً ، ثم يتجاوزونها إلى الري ، وهمذان ، إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان ، ويخربونها ، ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة . هذا ما لم يسمع بمثله .

فعلوا هذا في أسرع زمان ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير. إن الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا ، لم يملكها في هذه السرعة ، إنما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، إنما رضي من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً ، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة . » .

أين ذهبت قوة المسلمين . . ؟ أين الأبطال الذين فتحوا فارس وانتصروا على الروم . . ؟

أين هؤلاء الرجال الذين قال الله فيهم :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . ﴾[1] .

أين هؤلاء الرجال الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ﴾[2] .

أين ذهبوا . . ؟ كيف تركوا بلادهم وأولادهم وحرماتهم . . ؟

كيف هانت عليهم مقدساتهم وتراث أجدادهم ـ حتى أقام منها المغير جسراً عبر عليها جنوده إلى داخل بغداد . . ؟

لا عجب ولا عجاب إن هؤلاء ملكتهم الدنيا فأصبحوا عبيداً لها وقيدتهم شهواتهم فانساقوا خلفها عندها حق عليهم قول الله تعالى :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[3] .

ثم ماذا . . ؟ لقد تحركت جيوش التتار من بغداد إلى دمشق فدخولها واستولوا على كل ما فيها . ولكن بقاءهم في دمشق لم يدم طويلاً فقد جاءت الجيوش الاسلامية من مصر الاسلامية بقيادة قائدها المظفر سيف الدين قطز ، وهزمهم في موقعة « عين جالوت » كما تقول أوثق المصادر التاريخية . وتحقق قول الرسول ـ ﷺ ـ الذي رواه الامام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة :

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء آية ١٦ .

« لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة . » .

« وفي رواية عن جابر بن عبد الله :

« لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة . » .

لقد تكسرت تلك الصخرة القوية التي جاءت من الصين ، ولا يعلم إلا الله أين كانت تقف لو لم يوقفها المصريون في عين جالوت . . ؟؟؟ .

ومن المؤكد أنها كانت قاصدة أوربا التي كانت ترتعد فرائص أهلها عند ذكر هجومهم . ولذلك يقول المؤرخون :

« إن مصر عندما حطمت تلك الصخرة ، لم تنقذ الاسلام وحده ، بل أنقذت المسيحية أيضاً ، بل أنقذت الحضارة بعامة من أن يقضي عليها أولئك الطغاة وتداس تحت أقدام خيلهم .

لقد تمت هذه الحوادث قبل ميلاد ابن تيمية بنحو ثلاث سنوات ، ولما شب عن الطوق شاهد آثارها ودمارها ، واستمع بأذنيه إلى الآلام المبرحة التي تركتها تلك الهجمة الشرسة في نفوس معاصريها .

وعرف ابن تيمية فضل مصر الاسلامية ، في إنقاذ أمة القرآن من هذا البلاء الذي حلّ بها .

ولقد كان اللون السياسي للعالم الاسلامي في عصر ابن تيمية ـ وخصوصاً في مصر والشام ـ هو اللون الذي اصطبغ به حكم المماليك . .

وحكم المماليك كان حكماً مطلقاً، الحاكم فيه مستبد لا يصل إلى الحكم إلا بقوته ، ومع ذلك فقد كان الواحد منهم يحرص على أن يكون حكمه تحت سلطان الدين يستمد من قوة الدين قوة ، ويعلن حكمه بين الناس على ذلك . .

من هنا كنت ترى أن الوظائف الشرعية قائمة ، والحسبة لها رجالها ، والقضاء له سلطانه ، بل حرص بعض السلاطين أن يكون حكمه برضاء العلماء ، وقد كان الظاهر بيبرس الذي وضع قواعد الحكم لدولة المماليك يعني بسماع أقوال العلماء

يستجيب لاستشاراتهم ، وينفذ آراءهم .

وقد عاصره عالمان جليلان كان كلاهما يستمتع بنفوذه عند العامة ، أما أحدهما لقد كان « الظاهر » له مطيعاً ، وأما الثاني فقد صار له مغاضباً .

فالأول : العز بن عبد السلام (ت . ٦٦٠ هـ) وقد قال السيوطي في علاقته بالظاهر « كان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره . حتى أنه قال : لما مات الشيخ : ما استقر ملكي إلا الآن . »[1] .

والثاني : الشيخ محيي الدين النووي (ت . ٦٧٦ هـ) ـ وكان بدمشق ـ وكان كثير الوعظ للظاهر يكتب إليه بما يراه إن كان بمصر ، ويصدع بكلمة الحق أمامه إن كان الظاهر بدمشق .

والعامة لم يكن لهم من الأمر شيء فليس ثمة من يمثلهم في شورى ، وليس لهم ثر ايجابي في نظام الدولة ، ومع ذلك لم يكونوا مهملين في النصف الأول من حكم المماليك ، ولولا اضطراب الأحوال بين المماليك أنفسهم ـ والحروب التي خاضوها ضد جيوش التتار وغيرهم لساروا بالأمة في طريق الحكم الشورى . الذي يكون للأمة فيه رأي يسمع ، وكلمة تقال .

هذه صورة موجزة عن الحالة السياسية في عصر ابن تيمية ، والعصر السابق له ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على الأهوال ، والنكبات التي مرت بها الأمة الاسلامية طوال ثلاثة قرون متلاحقة وإن توجت في نهاية الأمر بالنصر المؤزر والفتح المبين على أحزاب الشرك وجيوش الكفر والإلحاد .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٢ : ٦٦ .

الحالة الاجتماعية في عصر ابن تيمية . .

كان المجتمع في عصر ابن تيمية مجتمع الاضطراب ، والاختلاط ، والفوضى ، التي لا تقف عند حد ، وكيف لا يكون كذلك وقد تشابكت فيه الأمور ، وتداخلت فيه حربان ضاريتان . . ؟؟ .

الأولى : الحروب الصليبية ، وفيها اختلط الناس اختلاط عادات وتقاليد اختلاط حضارة وثقافات ، اختلاط ديانة ومعتقدات ، ولا شك والحرب قائمة ، والرياح مشرعة ، والسيوف تطيح بالرقاب . أخذ الغرب من عادات المسلمين ومعتقداتهم الشيء الكثير ، وتشربته بعض نفوسهم ، فاصبح لكثير منهم ـ منهجاً وسلوكاً ولبعضهم نظام حياة .

وكذلك ما جاء به الغرب من تنظيمات للحرب والسلم ، من قوانين للتجارة والمعاملات ، من أسس قيام الحياة الاجتماعية عندهم . اشرأبت إليه بعض النفوس في الشرق وجاءت به إلى مجتمعاتها الخاصة ، وحياتها اليومية .

ثم كانت الحرب الثانية : التي شنها على العالم الاسلامي هؤلاء الرجال الذين خرجوا من أواسط آسيا الصغرى تحمل الدمار والهلاك لكل من تلقاه أو يعترض طريقها ـ كما قلنا سابقاً .

وعندما هزمهم سيف الدين قطز في موقعة « عين جالوت » المشهورة أخذ منهم كثيراً من الأسرى، وعندما أطلق سراحهم لم يغادروا البلاد بل استقروا في مصر

والشـام ، واختلطوا بـالمجتمعـات الاسـلاميـة ، ومعهم عـاداتهم وتقـاليـدهم ونـظام حياتهم ـ والتي لم يتخلوا عنها .

نعم نظام حياتهم الذي يسير على مقتضى قواعد « السياسـا » وهو كتـاب الحكم الذي وضعه لهم « جنكيزخان » .

وهذا الكتاب أكثر مبادئه مخالف لما جاءت بـه الكتب السماويـة ، وأحكامـه فيها قسـوة وشدة ، ويهـدر الدم فيهـا لجرائم لا تستحق الاهدار كما يقـول : علاء الـدين الجويني .

وقد نقل العلامة ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » نتفاً منه جاء فيها :

« إن من زنى قتل ، محصناً أو غير محصن ، وكذلـك من لاطَ قتل ، ومن تعمـد الكذب قتل ، ومن سحر قتل، ومن دخل بين اثنـين يختصمان فـأعان أحـدهما قتـل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيـه قتل ، ومن اطعم أسيـراً قتل ، ومن وجد هارباً ولم يرده قتل ، ومن أطعم أحداً شيئاً فليأكـل منه أولاً ، ولـو كان المـطعوم أميـراً أو أسيـراً ، ومن أكـل ولم يـطعم من عنــده قتـل ، ومن ذبــح حيـوانــاً ذبـح مثله . الخ . » .

ولا شـك أن تلك الخلطة الاجباريـة تكون منهـا خلط نفسي واجتماعي أفـرز في النهاية ثلاث طوائف :

الأولى : طائفة الحكام (والوافدية) .

لقد خص المماليـك الذين تـربعوا عـلى عرش مصر والشـام الأسـرى من التتار الذين وقعوا في أيديهم ، بمعاملة خاصة وأكرموهم ،وفكوا وثاقهم ومنحوهم الحريـة ، واطلقوا عليهم لقب « الوافدية » .

ولعل السبب في ذلك انهم جميعاً من جنس واحد ، فـإن لم يكن هؤلاء الأسرى إخوتهم فهم أبناء عمومتهم .

وكـانت لغة الحكـام والوافـدية ـ اللغـة التركيـة ـ يلون بها ألسنتهم ولا يعـرفون العربية ولا ينطقونها إلا في العبادات ، أو عندما يخالطون العلماء .

وهـذه الطائفـة هي التي تملك الاقطاعـات والثروات التي تخـرجها الأرض ، أو تعود إليهم ثمراتها إن كان يقوم بزراعتها وتفليحها العمال والمزارعون .

ليس هذا فحسب ، ولكن هذه الـطائفة كـانت شرهة في جمـع المال وفي سبيـل ذلك كانت تفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين والعمال ، وتأخـذها منهم بـالطرق المشروعة مرة ، وغير المشروعة مرات .

الثانية : طائفة العلماء .

أمـا هذه الـطائفة ، فكـان لها سلطان الـدين ، والقـوة الـروحيـة ، فـإذا كـان للأمراء حماية الدولة ، فالعلماء لهم عزاء النفوس ، وطب القلوب .

وكانوا ينصحون الحكام بـرفع أيـديهم عن العامـة ، وتخفيف الضرائب عنهم ، فإذا لم يستجيبوا لهم حـرضوا العـامة وآثـاروهم عليهم ، واسمعوهم فـارع الكلم كما حـدث مع الشيخ شمس الدين الديروطي ، والسلطان الغوري ، عندمـا دخل عليـه مجلس الحكم وألقى عليه بتحية الاسلام . ولكن الغوري لم يرد عليه التحية . . ؟ .

فقال الشيخ : إن لم ترد السلام فسُقت وعُزلت .

فقال السلطان : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم فقـال السلطان : لماذا تهـاجمنا عـلى ترك الجهـاد ومقاتلة الأعـداء ،وليس لنا مراكب نجاهد عليها . . . ؟

فقال الشيخ : بل عندك المال الذي تجهزها به ـ وطال بينهما الكلام .

فقال الشيخ للسلطان : قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حـين كنت نصرانياً ثم أسروك وبـاعوك . . بـاعوك من يـد إلى يـد ثم منّ الله عليـك بالحرية والإسلام ، ورقّاك إلى أن صرت سلطاناً على الخلق . . ؟

وعن قريب يأتيك المرض الذي لا ينجو منه أحد ، ولا ينجح فيه طـب ، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبر مظلم ثم يدسّون أنفك في التراب ، ثم تبعث عرياناً عطشاناً جوعاناً ، ثم توقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ثم ينادي

المنادي من كان لـه حق على الغوري فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عـدتهـا إلا الله .

يقول رواي الخبر : فتغير وجه السلطان من كلام الشيخ وأوشـك أن يختل عقله وهنا يعرض على الشيخ ـ كي يرضى عنه ـ عشرة آلاف دينار . . ؟؟ .

فقال الشيخ : أنا رجل ذو مال ، ولا احتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجاً لأجـل الجهاد ، من أجـل الدفـاع عن بلاد الاسـلام والمسلمين أقـرضتك وصبرت عليك .

يقـول رواي الحديث : فـما كان أحـد أعز من الشيـخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس .

ومـا حـدث مـع السلطان الغـوري ، والشيـخ الـديـروطي ، حـدث مثله مـع السلطان الظاهر بيبرس ، والشيخ محيي الدين النووي كـما سجله السيوطي في كتـابه « حسن المحاضرة » .

فقد طلب الظاهر من الشيخ النووي أن يوقع على فتوى تتيح لـه جمع الضرائب العامة .

وكان الشيخ يعتذر بأن أهل الشام في هذه السنة في ضيق وضعف حـاله بسبب قلة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، ولكن « الظاهر » أراد أن يجبر الشيخ على ذلك فقال له الشيخ :

« أنـا أعرف أنـك كنت في الرق لـلأمير بنـدقدار ، وليس لـك مال ثم منَّ الله عليـك ، وجعلك ملكاً وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملك لـه« حياصـة » من ذهب وعندك مائة جارية لكل جـاريـة حُقٌ من الحـلى فإن انفقت ذلـك كله ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلى افتيتك بأخذ المال من الرعية . » ؟؟ .

الثالثة : طائفة العمال والفلاحين .

ولقد كانت هذه الطبقة مكدودة، مضيق عليها وخصوصاً الزارع منهم، ولا أحد

ينكر أن رقعة العالم الاسلامي خصبة ومنتجة ، وفلاحية يميلون إلى العمل ، وإلى السعي في الأرض ، والضرب في فجاجها ، ولكن ما فعله الصليبيون ، والتتار من شن الغارات الواحدة تلو الأخرى[1] قد أضعف موارد البلاد ، وأنهك اقتصادياتها فمزارعها وحدائقها وبساتينها نهباً مباحاً للجيوش المغيرة وكلأ سهلاً أمام شراسة الهجمات من قوم لا يؤمنون بعقيدة ولا يهتدون بوحي . الأمر الذي جعلهم يتسلطون على الأهالي الآمنين تسلط الذئاب المفترسة للقطيع الوديع والذي جعل الكثير من أفراد الشعب تفضل الموت جوعاً وعطشاً في منازلهم على الموت في مزارعهم أو حوانيتهم بيد المغيرين المتسلطين .

ويصور لنا العماد ابن كثير ما حدث في القرن الثامن الهجري قائلاً :

« قل المطر في بلاد الجزيرة والموصل ، فحصل الجدب والقحط ، وارتفعت الأسعار ، وعدمت الأقوات ، بحيث أكلوا كل ما وجدوا من الجمادات والحيوانات ، ولما قلت الأموال التي يشترون بها ما يسدون به رمقهم باعوا كل شيء يملكونه حتى أولادهم وأهليهم ، وبيع الولد في ذلك الحين بخمسين درهماً ، بل وبأقل من ذلك .

وما حدث في الجزيرة ، والموصل ، حدث مثله في مصر والشام ، ومكة والمدينة ، واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب ، والحمير والخيل والبغال ، ولم يبق شيء من الدواب عند أحد من الناس ، وبيع الكلب في ذلك الوقت بخمسة دراهم[2] .

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

هذه صورة الحياة الاجتماعية في عصر ابن تيمية ، تؤلم القلوب وتدمع العيون ،

---

(١) استطاع السلطان الأشرف بن قلاوون أن يسترد من الصليبيين في نهاية القرن السابع الهجري . عكا ، وصور ، وصيدا ، وبيروت ، وقلعة الروم . انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣ : ٣١٩ ، والنجوم الزاهرة ٣/٨ .

(٢) راجع تاريخ مصر لابن إياس ١ : ١٣٣ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣ : ٣٤٣ .

وتوقظ الانسانية من غفلتها ، وتدفعها إلى تصور البلاء الـذي يصيب الله به عبـاده إذا مـا ابتعدوا عن نهجـه القويم أو تهـاونوا في تكـاليفه العـظيمـة ، أو سلكـوا مسـالـك الشيـطان ، أو أغرتهم قـوتهم فـظنـوا انهم هم القـادرون والمسيـطرون ، وصـدق الله العظيم في قوله :

﴿ وإذا أردنـا أن نهلك قريـة أمرنـا مترفيهـا ففسقـوا فيهـا فحق عليهـا القـول فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

الحياة الفكرية في عصر ابن تيمية

إن الراصد للحركة الفكرية في نهايـة القرن السـادس الهجري وبـدايـة القـرن السابع يرى أن المدارس التعليمية ، والموسـوعات العلميـة، والخزائن الكبيـرة المملوءة بالكتب والمؤلفات ، كان لها دور كبير في إثراء الحركة الفكـرية وتـوسيع نـطاق المعرفـة والثقافة في ذلك العصر .

ونحاول بمشيئة الله أن نتكلم على كل عامل من هذه العوامل الثلاثة حتى تكون الرؤية أمام القارىء واضحة وبينة .

أولاً : المدارس التعليمية .

أمـا عن المدارس فقـد عرفتهـا الأمة الاسـلامية قبـل هذا التـاريخ بفـترة طويلة وكانت تؤدي دورها في تقديم علوم الدين والدنيا لطلابها .

وكان ذووا اليسار يقومون بالإنفاق عليها وسد حاجات الأسـاتذة وطـلاب العلم فيهـا ، ثم تولاهـا الملوك والأمراء وقـاموا بـالتوسـع فيها وتعميمهـا في كثير من المـدن الاسلامية .

فنظام الملك السلجوقي[2] قام بافتتـاح العديـد من المدارس ببغـداد ، والبصرة

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٦ .

(٢) الحسن بن علي ت ٤٨٥ .

والموصل ، ونيسابور ، ومرو ، وهراة ، وحشد لها عمالقة العلماء والمفكرين أمثال الغزالي .

ثم جاء من بعده محمود نور الدين زنكي[1] ، فأنشأ مدرسة الحديث في دمشق ، وأوقف عليها الأملاك الكثيرة والعقارات الواسعة وكذلك « العادلية » أتمها بعده العادل في دمشق ، وأقام بحلب مدرسة للعلوم الفقهية ، وأخرى في حمص .

وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي[2] الحكم سار على نهج الملوك والأمراء السابقين له من الاهتمام بالحركة التعليمية والنهضة الفكرية .

فتوسع في انشاء المدارس بمصر والشام ووضع لها النظم الثابتة والقواعد المقررة .

وكثيراً ما كان يرى صلاح الدين وخلصاؤه ورجال دولته ومعاونيه يغشون هذه المدارس للاستماع لدروس الحديث والتفسير والفقه حتى أنه يقال : « كان على جانب حسن من معرفة الحديث والفقه والادب لا سيما أنساب العرب ووقائعهم ، وحفظ ديوان الحماسة .

وعندما جاء المماليك كانت وسيلتهم لكسب رضا الجماهير التوسع في إنشاء المساجد والمدارس ، وكانوا يجرون على طلبتها الرواتب اليومية ويهيئون لهم السكنى داخل المدارس في أروقة تعد لذلك كما هو في الجامع الأزهر بمصر ، ودار الحديث بدمشق ، والمدارس النظامية في بغداد .

وكانت توزع على هؤلاء الطلاب الملابس والتحف في الأعياد والمناسبات تشجيعاً لهم على طلب العلم والاستمرار فيه . .

ولا شك أن ابن تيمية النافذ البصيرة قد تغذى في هذه المدارس غذاء فكرياً كاملاً .

---

(١) محمود بن زنكي ت ٥٦٩ .

(٢) يوسف بن أيوب ت ٥٨٩ هـ .

فقد تهيأ لـه فيها أن يـدرس الحديث عـلى أكبر شيـوخه ـ في ذلـك العصر ـ وأن يتلقى علوم العقـل على ذوي المهـارة فيها ، فـدرس المنطق دراسـة فاحص نـاقد ، لا دراسة محصل يقبل الكلام على علاته ، ولا يدرك هناته .

ودرس علوم اللغة كلها عـلى شيوخهـا ، حتى ساغ لـه أن ينتقد إمـام النحاة في القديم « سيبويه » إمام كبير النحاة في عصره ـ وهو أبو حيان .

ثم استبحر في علوم الفقه راداً له إلى أصولـه من الكتاب والسنـة وآراء السلف الصالح والاقيسة المستقيمة .

ونحب أن نقـول : أنه مـا كـان يتسنى لابن تيميـة ولا لغـيره من العلماء الـذين تخـرجوا في هـذا العصر ـ الاطلاع الـواسع والاستبحـار والتعمق والتخـرج عـلى أكـبر الشيوخ بيسر وسهولة إلا بوجـود المدارس التي سهلت للعلماء والبـاحثين السبيـل لنشر علومهم ، وللطلاب السبيل لنيله وتحصيله .

ثانياً : الموسوعات العلمية :

أما عن الموسوعات فإنه لم يأتي هذا العصر إلا وكانت جل المعارف الاسلاميـة ، وعلوم اليونان والفرس قد هيأت بالكامل ووضعت في موسوعات وبوبت ونسقت .

فتفسير القرآن الكريم قد تم تدوينه في موسوعات مثل « جامع البيـان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

ويظهر أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليـه اليوم ثم اختصره مؤلفـه إلى هذا القدر .

وهذا التفسير يعتبر موسوعة جامعة لأفكار الصحابة والتابعين . ومن الموسوعات أيضاً في علم التفسير « جامع الأحكام في تفسير القرآن »للقرطبي . وأيضـاً « زاد المسير في التفسير » لابن الجوزي .

والحديث النبوي قد تم تدوينه بالكامل وأصبح الباحث في علوم الحـديث يجد بين يديه صحيح الامام البخاري ، وصحيح الامام مسلم ، ومسنـد الامام أحمـد بن حنبـل ، وسنن الترمـذي ، وسنن ابن ماجـه ، وسنن أبي داود ، وغير ذلـك كثـير من

كتاب الصحاح والمسانيد . كموطأ الامام مالك ومسند الربيع بن حبيب .

وفي علوم الفقه كان كتاب المحلى لابن حزم الأندلسي ، وهو فقه الأثر ، لأن صاحبه دوّن فيه فقه الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم - وفيه طائفة كبيرة من هدى النبي - ﷺ .

وأيضاً فقهاء المذاهب جميعاً دونوا فقههم في موسوعات كبيرة الحجم كما صنع الامام الشافعي في موسوعته الأم التي قام بنشرها في بغداد ثم أعاد تنقيحها في مصر .

وكذلك صنع أصحاب الامام مالك في موسوعتهم الكبيرة « المدونة » رواية الامام سحنون بن سعيد التنوخي عن الامام عبد الرحمن بن القاسم العتقي عن الامام مالك بن أنس - رضي الله عنه .

وفي الفقه الحنفي يرى الباحث موسوعات كبيرة كـ « المبسوطة » للامام المجتهد أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل السرخسي أملاها وهو في السجن في أورجند « بفرغانة » وكذلك ما كتبه الامام الطحاوي وغيره .

وفي الفقه الحنبلي وجد كتاب « المغني لابن قدامة » والمصنف لابن عقيل الحنبلي وغير ذلك كثير .

وكذلك الموسوعات في اللغة مثل « الصحاح » لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري . ولسان العرب لجمال الدين أبي الفضل المعروف بابن منظور ، والقاموس المحيط لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي وغير ذلك كثير .

وفي الادب نجد كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني وكتاب البيان والتبين للجاحظ ، والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد ، وكتاب العقد الفريد لمؤلفه أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي .

وكذلك ما كتبه العلماء والمؤلفون في بقية المعارف الانسانية كالتاريخ وفي مقدمتها كتاب الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، والكامل في التاريخ لابن الاثير ، والمنطق والفلسفة وكتب الديانات كموسوعة ابن حزم والتي يعتبرها علماء الغرب أكبر موسوعة

وأصدقها وضعت في مقارنات الأديان في عصره .

ثالثاً : المكتبات أو خزائن الكتب .

كان للمكتبة في صدر الاسلام مهمة جليلة ، وغاية دينية كبيرة تتلخص في تعليم الناس شرائع ربهم وتدربهم على فقه دينهم .

ثم اتسعت الفتوحات ، ووجد المسلمون في البلاد المفتوحة الكثير من الكتب والمؤلفات ، فحافظوا عليها ونظروا فيها ، وترجم الكثير من تلك الكتب إلى العربية .

وأخذت حركة التأليف والترجمة في العصر العباس دوراً كبيراً حيث اهتم الخلفاء والملوك بأفكار العلماء ونتاج عقولهم وكان لهذا التوسع في العلم والمعرفة مقابل في انشاء الكثير من المكتبات وخزائن الكتب ، وعين لأمانتها العلماء النجباء ، ورصدت لها الأموال الطائلة وبذل في المحافظة عليها الجهد الكبير .

يقول القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » عند كلامه على خزائن الكتب : « فقد كان للخلفاء والملوك في القديم مزيد اهتمام ، وكمال اعتناء حتى أقاموا منها العدد الوفير »

ومن أجل اهتمام الملوك والخلفاء بالمكتبات انتشرت في جميع البلدان الاسلامية ، مثل مكتبة الجامع الكبير في القيروان ، ومكتبة جامع الزيتونة بتونس ، الذي انشأه التابعي الجليل عبد الله بن الحجاب سنة ١١٤ هـ .

ومكتبة الأزهر الشريف التي تحوي آلاف المجلدات العلمية والمخطوطات الإسلامية النادرة .

ودار الكتب الظاهرية بدمشق والتي نسبت إلى الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٧٦ هـ .

ولا شك أن هذه الموسوعات المدونة والمكتبات التي ضاقت بما فيها من كتب ومؤلفات قد ساهمت مساهمة فعالة في تثقيف العقول ، ومد العلماء وطلاب المعرفة بالزاد الوفير في كل علم وفن .

ولقد عكف ابن تيمية على هذه الكتب والمؤلفات واستفاد استفادة كبيرة من أراء أصحابها وفكرهم ـ حتى أصبح له رأيه الناقد ، وفكره المتقد المجتهد في الفقه والعقائد .

وكيف لا يكون كذلك ـ وأسرته الأولى التي تربى في أحضانها ذات علم وفضل ، والكتاب عندها أغلى ما يقتنى .

وقد شاهد ابن تيمية أسرته وهو في طفولته عندما داهم التتار بلدته ترك الكثير والكثير من مدخراتها وأثاث منزلها ـ ولكنها لم تفرط مطلقاً في مكتبتها الخاصة ـ وفرت بها بعد وضعها على عربة خاصة ، لأن الدواب لا تقوى على حملها ـ فعلت الأسرة ذلك لأن المكتبة أغلى متاع وثروة وغذاء . ولم يحل بينها في ذلك أن العدو يلاحقهم ويأخذ عليهم الأرض من أقطارها ، ولكنها استعانت بالله ونجت من القوم الظالمين .

وبعد :

فإن الحياة الفكرية في ذلك العصر لم تصل إلى درجة الأبداع والابتكار بالرغم من وجود هذه الثروة الكبيرة من المعارف والثقافات ، ولقد انصرف الكثير من العلماء إلى الجدال العقيم والمهاترات اللفظية ، وتدبير المكايد ، وصنع الخصومات ، والعكوف على المتون والحواشي .

ومع ذلك فإن هذا العصر خرّج مجموعة من العلماء الأجلّاء الذين تفخر بهم الأمة الإسلامية أمثال الامام النووي ، الذي قال للملك الظاهر عندما تمادى في جمع الضرائب من الشعب (أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مال ، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكاً) .

ومنهم العز بن عبد السلام . وقد قال السيوطي في علاقته بالملك الظاهر (كان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج من أمره ، حتى أنه قال لما مات الشيخ : ما استقر ملكي إلاَّ الآن . .) .

وكثير غير هؤلاء أمثال ابن دقيق العيد ، وابن حجر العسقلاني وابن جماعة ، ودرة العقد الامام ابن تيمية .

وإذا كان ذلك كذلك فمن هو ابن تيمية صاحب التفسير الكبير . . . ؟

الامام ابن تيمية
ولادته ـ نسبه ـ أسرته

هو الإمام أحمد تقي الدين أبو العباس حجة الإسلام في عصره .

والده : شهاب الـدين أبي المحاسن عبـدالحليم ، شيخ دار الحـديث بدمشق ، يصفه المؤرخون بأنه صاحب العقل الرشيد ، والمنطق السديد ، والمؤلفات المحلقة .

وأمه : اختلف المؤرخون في جنسيتها كثيراً فهي عربية عند بعضهم وكردية عند البعض الآخر ، ولكنهم يتفقون عـلى دورها الكبـير في تربيتـه وتنظيم تفكيـره . ويقال إنها عاشت حتى رأته عالم عصره وفارس ميدانه .

وجده : مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن أبي محمـد ، صاحب المصنفـات الكثيرة والمؤلفات العظيمة .

من هذه الأسرة الكريمة التي كـانت تقطن مـدينة « حـران » ولد تقي الـدين بن تيمية عام ٦٦١ هـ .

ولد على ثرى « حران » مدينة الفلسفة والفلاسفة ، والتي كانت تتصـارع الآراء فيها فلا تهدأ ، وتتباين على مسرحها الأفكار ولا تلتقي .

ولقد هيأت له إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبعد عن هذا المسرح القلق فلم يعش طويلاً في تلك المدينة ، فما كان يبلغ السابعة من عمره حتى داهمت « حران » جيوش التتار ، واضطرت أسرته أن تفر مع الفارين بحثاً عن الأمان والاطمئنان في عالم قل فيه الأمان والاطمئنان .

وفي هذه الهجرة الاجبارية ، عرف الطفل الصغير ، قسوة الحياة ، ومرارة الغربة ، وشراسة الأعداء ، فامتلأ قلبه الغض بكراهية المعتدين وبغض المغيرين .

وفي دمشق عاصمة الأمويين في صدر الإسلام ، وكعبة طلاب العلم وموطن الشيوخ والعلماء ، والسوق الرائجة للمعارف الإسلامية والإنسانية في القرن السابع الهجري ـ استقر المقام به مع أسرته .

وما كادت عاصمة الأمويين تسمع بصول الشيخ ـ شهاب الدين ـ والد تقي الدين إليها حتى بادرت لاستقباله وإكرامه ، لأن علمه الواسع وفقهه الكبير قد سبقاه إلى هناك . وقرر علماؤها ، ورجال الفضل فيها تولية الشيخ ـ شهاب الدين مشيخة دار الحديث . وبها صار مسكنه ونقل إليها مكتبته ومؤلفاته .

النشأة والتعليم

في هذا الجو الذي يعبق بأريج المعرفة ، وتدار فيه حلقات العلم ومجادلة الأفكار ، ويجتمع فيها الطلاب من كل حدب وصوب كانت نشأة تقي الدين بن تيمية، بين رعاية والده العالم الجليل الذي يجلس العلماء الكبار طلاباً بين يديه ليزدادوا علماً ويتعرفوا خلال دروسه التي كان يلقيها في دار الحديث إلى دقائق التفسير ، وشوارد اللغة ، واجتهاد الفقهاء نشأ ابن تيمية ، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، واستظهر أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ ولقد اسعفته في ذلك ذاكرة واعية وعقل نير .

فإذا ما انتهى من تلك المرحلة شهدته دار الحديث جالساً مصغياً إلى أقوال العلماء وهم يتناولون بالدرس والشرح المسانيد والسنن ، وكتب الصحاح فسمع منهم مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وصحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم ، وجامع الإمام الترمذي ، وسنن أبي داود السجستاني ، والإمام النسائي ، وسنن ابن ماجه ، والدارقطني .

سمع ذلك كله مرات ومرات . سمعه من والده عالم العلماء ، وصاحب العقل الرشيد ، والمنطق السديد ، وسمعه من الشيخ النووي عملاق العلماء ، ومرعب السلاطين ، وسمعه من الشيخ دقيق العيد ، ومن الشيخ المزي والزملكاني وغيرهم الكثير ، والكثير .

ولقد كان بجوار دراسته للحديث وعلومه يدرس علوماً أخرى كانت سائدة في عصره ، ولا يستغني عنها العالم المتبحر في علوم الشريعة .

فدرس علوم الرياضة ، ودرس علوم الجبر ، وتبحر في علم المثلثات والفلك . ودرس علوم العربية ، وعني بها عناية خاصة ، واستظهر منثورها ومنظومها . ودرس البيان والبديع ،وعلم الاشتقاق والصرف وبرع في علم النحو براعة واضحة .

يقول بعض المؤرخين ، ولقد وصل الأمر به أن خالف سيبويه في بعض ما جاء في كتابه معتمداً على ما صح لديه من المراجع الأخرى .

لقد كان طالباً ومعلماً ، وفاحصاً وناقداً ودارساً لكل المعارف الإنسانية في عصره ، ولم يحاول أن يقتصر على بعض العلوم دون بعض أو يتناول بعض المعارف ويترك بعضها .

ثم عكف على كتب التفاسير ، التي وجدت في عصره ، يقرأها بعقله المنفتح ، وفكره المتقد ، وذهنه اللماح ، ليتعرف على ما فيها من حق وباطل ، ومن جوهر

أصيل ، أو معدن خسيس ، ولا يقبل منها إلا ما يستقيم أمام عقله . ويصفه المؤرخون بأن كان شغوفاً بذلك دؤوباً على التعرف لكثير من التفاسير .

ولهذا يقول صاحب الكواكب الدرية : ومن ذلك ما جمعه من التفاسير وما حصله من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم ، وذلك أكثر من ثلاثين مجلداً وقد بيض أصحابه بعض ذلك وكثير منه لم يكتبوه ، ولو كتب كله لبلغ خمسين مجلداً ، وكان رحمه الله يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير ثم أسأل الله تعالى الفهم . وأقول يا معلم ابراهيم علمني ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها ، وأمرغ وجهي في التراب وأقول يا معلم ابراهيم فهمني .

والعلم دائماً يحتاج إلى فاحص يدل على لآلئه ـ إلى شيخ غواص عرف فجاج العلوم وأغوارها إلى « جواهرجي » مدقق يرشد طلابه إلى الجوهر الثمين ويحول بينهم وبين البهرج الزائف . ويرجعهم إلى جادة الصواب إن عصف الهوى بعقولهم ، أو اضطربت الموازين بين أيديهم .

وكانت مدارس الحديث تقوم بتدريس الفقه بمذاهبه المختلفة الحنبلي ، والمالكي ، والحنفي ، والشافعي ، وغير ذلك من المذاهب .

وقد خص آل أيوب مدة حكمهم المذهب الشافعي بزيادة عناية ، وكان صلاح الدين الأيوبي يدين بمذهب الشافعي فشجع ذلك العامة على اعتناقه والتفقه بأصوله وفروعه .

وكما كان آل أيوب يدينون بالمذهب الشافعي في الفقه كانوا يتبعون مذهب الأشعري في العقيدة ، وقد دانت الأمة لهم في ذلك . وإنما كان يخالفهم جماعة الحنابلة ذلك أنهم كانوا يستخرجون العقائد من نصوص الكتاب والسنة ولا يحيدون عن ذلك . وكان الأشاعرة يسلكون في العقائد طرق الإستدلال العقلي والبرهان المنطقي .

ذلـك أن أبا الحسن الأشعـري شيخ الأشـاعرة نشـأ معتزليـاً فأتقن طـرائقهم في الاستدلال ثم خالفهم في النتائج . وهـذا ما دفـع آل أيوب إلى الإعجـاب بهم واتباع مذاهبهم .

قـال المقريـزي في خططه : « حفظ صـلاح الدين في صبـاه عقيدة ألفهـا قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمـد النيسابـوري ، وصار يحفّـظها صغـار أولاده فلذلك عقدوا الخناصر ، وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيامهم كافة النـاس على التزامه ، فتمادت الحال على ذلـك في جميع أيـام الملوك من بني أيوب ، ثم في أيـام مواليهم الأتراك وكـذا فعل ابن تـومرت في المغـرب بعد أن أخـذ عن الغزالي مـذهب الأشعري . وكان هذا هو السبب في انتشـار مذهب الأشعـري في الأمصار حتى لم يبق مذهب يخالفه إلا أن يكون المتبعون مذهب ابن حنبل » .

وإذا كان ذلك كـذلك فمن هم الحنـابلة . . . ؟ الحنابلة الـذي يخالفـون جمهور المسلمين في ذلك الوقت وتكون لهم مدارسهم الفقهية والإعتقادية الخاصة بهم . مثـل الجوزية ، والسكرية ، والعمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة . . ؟

إنهم أتباع الإمام أحمد بن حنبل الذي يقول عنه الشافعي : خـرجت من بغداد وما خلفت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ، ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل . . .

ويقـول عنهم المستشرق (لاوست) مـا من مـرة هـوجم الإسـلام سيـاسيـاً أو عسكرياً إلا اتجه نحو المذهب الحنبلي الذي ينادي في قوة وحماس بالرجوع إلى السنة .

وكان ابن تيمية حنبلي المذهب ونشأ في أسرة تدين كلهـا بهذا المـذهب ولوالـده وجده كتابات في المذهب الحنبلي تجلي قواعده ، وتوضح فروعه ، ولقد درس ابن تيمية في كنف أبيه آراء الحنابلة ومعتقدهم في الفقه والعقيدة وغيرهما من العلوم .

ولقد شاهد ابن تيمية دولـة الأشاعـرة تشمخ عليهم وتتـطاول على آرائهم ليس

هذا فحسب بل ويرمونهم بالتجسيم مرة وبالتشبيه مرات .

ولقد هداه تفكيره ألا يصدر حكماً مسبقاً على الأشاعرة أو يتهمهم بما لم يعلمه في مذهبهم .

فعكف على دراسة آرائهم في العقيدة وعرف طريقتهم في الجدل والاستدلال وهدته دراسته لمذهب الأشاعرة على التعرف الدقيق لاراء مدرسة الاعتزال حتى عرف ما عندهم معرفة أتاحت له أن يحكم على آرائهم بأنها حق أو باطل ، ولما كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره ـ كما يقول الأصوليون ـ من هنا استطاع ابن تيمية أن ينازل الخصوم بسلاحهم ويفند آراءهم ، وحتى يتثبَّت مما أقدم عليه عكف على دراسة المنطق اليوناني ، والفلسفة ، وأصول الديانات القديمة ، وكتب اليهودية والنصرانية دراسة المحقق المدقق الفاحص الناقد .

يقول أحد معاصريه : « قد ألان الله له العلوم كما ألان لداود عليه السلام الحديد ، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي أن أحداً لا يعرفه مثله ، وكان الفقهاء من سائر المذاهب إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه ، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف » .

وبعد فإن ابن تيمية خاض هذا البحر المتلاطم بالعلوم والمعارف ، الزاخر باطنه بالجواهر واللالىء ليعود إلى دنيا الناس عملاقاً في دينه فقيهاً بما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ من عند ربه ، فاهماً لكل آراء المدارس الكلامية والفلسفية ، والمنطقية ، والأصولية ، والفقهية ، التي وجدت في عصره ، ثم ماذا ؟ . . .

ثم عاد ليحق الحق ويبطل الباطل ، ويزيل هذا الركام المتعفن في فكر المسلمين وميزانه في ذلك عقل ناضج وفكر ثاقب ، ودراية وافية بكل ما انتجه العقل البشري من معارف وعلوم ومن قبل هذا ومن بعده كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ ﷺ ـ وإذا كان ذلك كذلك فعلينا أن نقطع شوطاً آخر في المبحث .

ابن تيمية والسلفية . .

يرى بعض المفكرين أن ابن تيمية سلفي في تفكيره ، ويكاد لا يعدو منهج السلف في كثير من آرائه وأفكاره التي عرضها في تفسيره .

وحجة القائلين بهذا الرأي أن ابن تيمية نفسه يقرر ذلك ويكرره في تفسيره حيث يعتقد أن الرسول - ﷺ - بيّن القرآن الكريم كله ، ولم يترك منه شيئاً يحتاج إلى بيان لأن الله سبحانه وتعالى أمره بذلك بقوله :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[1] .

وقال تعالى : **﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾**[2] .

ويرى ابن تيمية أن الصحابة - رضوان الله عليهم - تلقوا كتاب الله من الرسول - ﷺ - وتعلموا منه معانيه . قال عبد الرحمن السلمي « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبدالله بن مسعود وغيرهما - رضوان الله عليهم - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - ﷺ - عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل » .

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يترقبون نزول الوحي - بكلمات الله على الرسول - ﷺ - فإذا نزلت الآيات بادروا إلى تلقيها وحفظها ثم علموا ما فيها من تأويل وتفسير ، ليكون هذا الفهم دستوراً لحياتهم ، ومنهجاً ينظم سلوكهم وتصرفاتهم .

وعن مسلم ، عن مسروق عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : « والذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته » .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٦٤ .

ثم انتقل تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه من الصحابة إلى التابعين وأولئك ورّثوا العلم والفهم لمن جاء بعدهم .

يقول مجاهد ـ رضي الله عنه ـ « عرضت المصحف على ابن عباس اوقفه عند كل آية وأسأله عنها » .

ولهذا قال الثوري : « إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به » .

وكان يعتمد على تفسير الإمام الشافعي ، والبخاري ، وغيرهما من أهل العلم كالإمام أحمد بن حنبل ، وأتباعه ممن صنفوا في التفسير ومن هنا نرى أنه كان لا يأخذ إلا بالتفسير المأثور ، فإن وجد الأثر لم يلتفت إلى سواه ، ويرفض الأخذ بالرأي المجرد كليته .

ويقول في ذلك : أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام .

ويدلل على صحة رأيه بكثير من الأحاديث الثابتة عن رسول الله ـ ﷺ ـ والآثار المروية عن الصحابة ـ والتي تدل على توقفهم إذا لم يجدوا حديثاً أو أثراً .

وكذلك الأخبار الكثيرة والتي توضح تحفظ التابعين في ذلك الشأن ، يقول الرسول ـ ﷺ :

« من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

ويقول أيضاً :

« من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

وأما الأخبار عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم فكثيرة مشهورة من ذلك ما يروى عن الصحابي الجليل أبي بكر الصديق ـ رضوان الله عليه « أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم » .

وروي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا عند عمر بن الخطاب ـ وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ قول الله تعالى :

﴿ **وفاكهة وأباً** ﴾ .

فسأل ما الأب . . ؟

ثم قال : عادلاً عن السؤال : إن هذا لهو التكلف فما عليك ألا تدريه . وأما التابعون فكانوا يتحرجون عن القول في تفسير القرآن إلا إذا كان عندهم رواية بهذا

التفسير عن النبي - ﷺ - أو عن الصحابة .

ولقد قال عن التابعين بعض تلاميذهم :

« لقد أدركت فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، ولقد كان ابن سيرين يتحرج عن التفسير ، ويقول :

« سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن . » ؟ فقال :

« ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن فاتق الله وعليك السداد » .

ولقد قال ابراهيم النخعي : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه ولقد قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله تعالى ولقد قال مسروق : اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله تعالى .

وهكذا نرى أن أقوال الرسول - ﷺ - وأقوال الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم جميعاً - تدل في نظر ابن تيمية على وجوب الاعتماد في التفسير على أقوال النبي - ﷺ - الشارح للقرآن المبين لأحكامه .

ومع ترجيحنا لهذا الرأي وقناعتنا به ، فإننا نرى بعض المفكرين يقررون بأنه إذا كان ابن تيمية قد اعتمد في التفسير على أقوال السلف فإنه لم يقف عند حد اتباعهم ، وما صدر عنهم من آراء ، بل كان يتخطى ذلك في بعض الأوقات ، ويستعمل رأيه وعقله في الاستنباط والبيان .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة :

« ولكن هل يضيق صدر ابن تيميَة عن هذا الاتجاه ، أي أنه لا يحاول فهم أسرار القرآن ، والاتجاه إلى الغوص والكشف عن معانيه وأسراره . . ؟ إننا نرى ابن تيمية في استنباط علل الأحكام وتعرف غاياتها ومراميها والمناط الذي تسير وراءه يغوص وراء المعاني المصلحية يتعرفها ويسير في ظلال الكتاب والسنة مهتدياً بهديهما ، ويغوص غوصاً عميقاً يدل على بعد غوره ، ولا يقف عند حدود ظواهر الألفاظ بل يتجه إلى تعرف المرامي والغايات المصلحية ، وأن الآيات الكونية والنفسية متسعة الأفق ، وقد كشف من ظواهر الكون ما يتبين معه أحكام القرآن ودقة معانيه .

فهل كان ابن تيمية يتجافى عن كل هذا ويرى فيه بدعاً لا يصح السير وراءه . . ؟

إننا نعيذ ابن تيمية من أن يتجه ذلك الاتجاه السلبي . ؟؟

لأنه يرى أن القرآن الكريم نزل ليكون صالحاً لكل زمان ومكان وكل جيل يأتي من الأجيال يرى في كتاب خاتمة الرسالات السماوية طباً لأمراضه ، ودواء لأوجاعه ، وحلاً لمشاكله ، ودستوراً ينظم حياة الأمة في الصغير والكبير ، وهذا هو الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم . ومهمة المفسرين لكتاب الله تعالى أن يلاحظوا ذلك فيستنبطوا منه ومن أحكامه ما ينظم حياتهم ويقضي على مشاكلهم . وهذا ما فعله العالم الكبير في تفسيره العظيم .

القواعد الأساسية لفهم القرآن وتفسيره عند ابن تيمية . .

يرى العالم الجليل ابن تيمية أن أمثل الطرق لتفسير القرآن الكريم تتلخص في عدة طرق :

الأول : تفسير القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر وبين في موضع آخر ، وما اختصر في سورة فقد بسط ووضح في سورة أخرى .

الثاني : التفسير بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن الكريم وموضحة له قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ كل ما حكم به رسول الله ـ ﷺ ـ فهو مما فهمه من القرآن .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ « ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » . يعني السنة .

وقال لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ حين بعثه إلى اليمن بما تحكم ؟ . .

قال : بكتاب الله تعالى .

قال : فإن لم تجد ؟ . .

قال : بسنة رسول الله ـ ﷺ ـ .

قال : فإن لم تجد ؟ . .

قال : اجتهد رأيي .

قال : فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ في صدره وقال :

« الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » .

الثالث : أقوال الصحابة : إذا لم يجد التفسير في القرآن الكريم ، ولا في سنة رسول الله ـ ﷺ ـ يرجع في ذلك إلى أقوال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم ـ كالأئمة الأربعة ـ الخلفاء الراشدين ، والأئمة المجتهدين المهديين مثل عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري :

« حدثنا أبو كريب ، قال : أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش ، عن أبي الضحى ـ مسلم بن صبيح ـ عن مسروق قال : قال عبدالله ـ يعني ابن مسعود :

« والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته » ومنهم الحبر البحر عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ـ ﷺ ـ حيث قال داعياً له : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقال ابن جرير : « حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع ، أنبأنا سفيان عن

الأعمش عن مسلم . عن مسروق قال : قال عبدالله بن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس » .

وقال الأعمش عن أبي وائل : استخلف علي - رضي الله عنه - عبدالله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

فإذا لم يوجد التفسير في القرآن الكريم ولا في السنة ، ولم يوجد عند الصحابة فقد يرجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين .

هذه هي القواعد الأساسية التي يراها ابن تيمية لمن يريد أن يفسر كتاب الله تعالى . فهل التزم ابن تيمية بهذه القواعد عند تفسيره لكتاب الله أم أنه اختط منهجاً آخر غير الذي دعا إليه وطالب باتباعه ؟ للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطاً آخر في البحث لنبين فيه منهج ابن تيمية في التفسير ، وعلى الله قصد السبيل .

منهج ابن تيمية في التفسير

لقد وضع ابن تيمية قواعد لتفسير القرآن الكريم وطالب الراغبين في التفسير والتأويل أن يضعوا نصب أعينهم هذه القواعد . فهل التزم ابن تيمية نفسه بهذه القواعد ؟ وهل طبقها على ما قام به من تفسيره للقرآن الكريم ؟ . .

إن القارىء لهذا التفسير الذي وضعه ابن تيمية يرى فيه أن صاحبه ألزم نفسه هذه القواعد إلا في القليل النادر عندما يكون الأمر أمر مجادلة أو محاورة والزام الخصم الحجة والبرهان .

فإذا أخذ في تفسير سورة من سور القرآن الكريم تناول الخطوط الرئيسية لها ،

والموضوعات التي تضمنتها ، وبذلك يضع أمام القارىء كشافاً بموضوعات السورة وقضاياها .

يقول عند تفسيره لسورة البقرة :

« إن الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين ، فوصف حال أهل الهدى ، ثم الكافرين ، ثم المنافقين ، فهذه جمل خبرية ، ثم ذكر الجمل الطلبية فدعا الناس إلى عبادته وحده ، ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء واخراج الثمار رزقاً للعباد ، ثم قرر الرسالة وذكر الوعد والوعيد ، ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى وما بثه في العالم من الخلق والأمر ، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم » .

ثم يستمر في عرض موضوعات السورة وكأنه يريد بذلك أن يبين هذه المعالم ويثبتها في الذهن حتى إذا تناولها بالتفسير والتحليل كان لدى القارىء فكرة واضحة عن موضوعاتها ويستمر في ذلك حتى يصل إلى نهاية سورة البقرة فيقول :

« ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات ، وما يتعلق بالأموال والصدقات ، والربا والديون ، وغير ذلك . ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار ، والأغلال ، والعفو ، والمغفرة ، والرحمة ، وطلب النصر ، على القوم الكافرين ، الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين .

فإذا أراد بعد ذلك أن يتناول الآيات بالتفسير والتحليل نراه يذكر آراء العلماء فيها ثم يذكر رأي السلف ، ويعقب على ذلك بقوله : والصواب ما عليه السلف من اللغة الموافقة لما في القرآن الكريم .

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** ﴾ . المثل في الأصل هو الشبيه وهو نوعان :

أحدهما : الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع بأصل معين موجوداً أو مقدر وهي في القرآن بضع وأربعون مثلاً كقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد نار** ﴾ ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة** ﴾ وقوله : ﴿ **كمثل صفوان**

عليه تراب ﴾ وقوله ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ﴾ .

النوع الثاني : الأمثال الكلية ، وهذه التي أشكل تسميتها أمثالاً كما أشكل تسميتها قياساً .

إذا تبين ذلك فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً ومنها ما لا يسمى بذلك . . .

ثم يحشد الآيات التي جاءت لضرب الأمثال ويتناولها بالعرض والتحليل ويجادل المناطقة في أقيستهم، والفقهاء في قواعدهم ، ورجال التوحيد في قضاياهم ، ويخرج في النهاية بالرأي الأمثل الذي يتوافق وطبيعة الآية ، وما يمكن تطبيقه في العصر الذي يعيش فيه .

ثانياً : إذا بدأ في تفسير آية ولم تسعفه آيات القرآن الكريم في تفسيرها لجأ إلى حديث الرسول ـ ﷺ ـ.

يقول ابن تيمية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ .

قد ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما أنزل الله ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ . اشتد ذلك على أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ ثم بركوا على الركب وقالوا :

« أي رسول الله كُلفنا من العمل ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها» .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا ؟ . .
قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .
فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه

ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله .

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ .

قال : نعم .

﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ .

قال : نعم .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ .

قال : نعم .

﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

قال : نعم[1] .

ثم يعود ابن تيمية إلى أقوال الصحابة والتابعين فيقول :

« ولهذا قال كثير من السلف والخلف ، إنها منسوخة بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

كما نقل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس في رواية عنه ، والحسن ، والشعبي ، وابن سيرين ، وسعيد بن جبير وقتادة ، وعطاء الخراساني ، والسدي ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل ، والكلبي وابن زيد .

ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم

---

(١) ورد هذا الحديث من طرق عدة ، فرواه مسلم عن يزيد بن ربيع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ، ورواه الامام أحمد بنفس الاسناد في مسنده كما رواه الامام أحمد أيضاً عن وكيع عن سفيان عن آدم بن سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفيه ذكر « قد فعلت » بدلاً من « نعم » عقب كل دعاء وذكره ابن جرير في تفسير الآية المذكورة ، راجع البخاري ٥ : ٤٠ كتاب التفسير باب قوله تعالى : ﴿ وان تبدوا ما في انفسكم ﴾ مسلم (كتاب التفسير) ابن كثير ١ : ٣٣٨ ـ ٣٤٠ .

فيأخذ من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، كما نقل ذلك عن ابن عمر والحسن ، واختاره أبو سليمان الدمشقي والقاضي أبو يعلى . وقالوا هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ .

فإذا استعرض ابن تيمية أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وأقوال الصحابة والتابعين . أخذ يوضح رأيه في القضية الذي استخلصه من فهمه لهذه الأقوال مجتمعة فإذا وصل إلى قناعة تامة فيما وصل إليه أخذ يدافع عن هذا الرأي بالحجة والمنطق ، بالدليل والبرهان ، بطبيعة الحياة وما جبلت عليه النفوس . الذي نزل القرآن الكريم لمخاطبتها ووضع العلاج لأمراضها ورسم الطريق لسيرها حتى تحقق منهج الخلافة في الأرض .

يقول الدكتور الجليند :

« إنني أوجه نظر الباحثين إلى أهمية تلك الآراء التي قدمها لنا ابن تيمية حول النفس وطبيعتها وأمراضها وعلاجها ، إن هذه الآراء تشكل في مجموعها ما يمكن أن يسمى بعلم النفس القرآني الذي تكشف لنا هذه الآراء عن أصوله وقواعده ، وتلفت نظرنا إلى منهج دراسته وطريقة تناوله وعرضه على الدارسين » .

وإذا كان ابن تيمية قد ألزم نفسه بالقواعد التي وضعها لتفسير القرآن الكريم وهي التي لا تخرج عن :

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن .

٢ ـ تفسير القرآن بأقوال الرسول ـ ﷺ ـ .

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .

فما رأي ابن تيمية في التفسير بالرأي ؟ . .

موقف ابن تيمية من التفسير بالرأي

إن ابن تيمية يرى أن تفسير القرآن بالرأي حرام ، ويقدم بين يدي هذا الرأي مجموعة من أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وأقوال الصحابة والتابعين .

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ .

« من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

« وقال الترمذي : قال حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا حيان بن هلال قال حدثنا سهل أخو حزام القطعي ، قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ . .

« من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »

قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم .

يقول ابن تيمية :

« وهكذا روى بعض أهل العلم عن أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم . . . فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم به، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو في النار وان وافق حكمه الصواب في نفس الأمر . ».

ثم يحشد ابن تيمية مجموعة كبيرة من النصوص المروية عن السلف الصالح في منع أن يفسر القرآن بغير علم . وهذا الرأي لا يختلف فيه اثنان أن يفسر القرآن بالجهل فهذا حرام ويؤدي بصاحبه إلى النار .

أما أن يفسر القرآن بالعلم فيكون حراماً « حتى وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر . » .

هنا نختلف مع العالم الجليل ابن تيمية .

أولاً : أن أقوال الصحابة والتابعين في التفسير استنبطت من طبيعة العصر الذي كانوا يعيشون فيه ، ولقد كانت هذه الاراء تتوافق توافقاً كاملاً مع حياتهم وسلوكهم .

ولكن المسلمين الآن وقبل هذا العصر ـ كانت لهم ظروف وقضايا تحتاج إلى الرجوع لكتاب الله ليستلهم منه الحلول لكل المشاكل التي تعترض طريق المسلمين .

وبالتالي تكون لهم منهج حياة في التربيـة ، في الاقتصاد ، في السيـاسة في الاجتـماع في كل شأن من شؤون الحياة فهل يقف المسلمون عند تفسير الصحابة والتابعين ولا نفسر القرآن ؟ ونهتف مع ابن تيمية .

« فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ »

ثانياً : إن الله سبحانه وتعالى طالب عباده بالنـظر والتدبـر ، والضرب في فجاج الأرض ، والتـأمل في خلق السمـوات . فإذا كـان القرآن الكـريم آيات الله المتلوة ، فالكون بما فيه من بحار وجبال وسهول ووديان هو آيات الله المجلوة ، والمسلم مطالب في حياته بالغوص والتنفيب والبحث والترتيب حتى يصل إلى مـا يحقق به دور الخـلافة في الأرض وهـو في ذلك قـد يصيب ما يفتش عنـه ويصل إلى الصـواب في ذلك وقـد يقف به العجز البشري عن تحقيق ما يرمي إليه ، وهو في كل ذلك مجتهد . إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر فهو مثاب في كلتا الحالتين .

ثـالثاً : هـل توقف ابن تيميـة ولم يستعمل عقله وفكـره ؟ هـل عكف عـلى مـا استنبطه الصحابة والتابعين ، ورجال السلف من تفـاسير للقـرآن الكريم ، ولم يحـاول أن يقـدم جـديـداً لينـظم حيـاة المسلمـين الـذين يعيشـون في عصر يختلف عن عصر الصَحابة والتابعين ؟ الحقيقة أن ابن تيمية عكف على تفسير القرآن الكريم واستعمـل كل ما يمكن أن يوصله إلى هدفه حتى أنه كان في بعض الأوقات إذا كلَّ عقله أو توقف ذهنه ، ولم يصل إلى رأي يرتضيه في تفسيره . ؟؟ لجأ إلى الله وتمـرغ في التراب وطلب من ربه أن يلهمه سبيل الرشاد ويقول :

« يا معلم ابراهيم علمني . »

لقـد ناقش ابن تيميـة الفِرَقْ التي كـانت تعيش في عصره ، وجـادلهـا بـالمنـطق والحجة ، ورفع على آراء أصحابها معول الهـدم . وناقش أصحـاب الحلول والاتحاد . وهـاجم آراء المسيحية في الألـوهية ، والصلب ، وهـاجم أصحـاب اليهـوديـة وصب عليهم من قلمه سوط عذاب . ولا نستطيع في هذه العجـالة أن نحصى كل من وقف

لهم ابن تيمية وهاجمهم برأيه وفكره وهو يقدم أدلته وحججه من آيات الكتاب العزيز .

وإذا كان ذلك كذلك فكيف نوفق بين ما يقوله ابن تيمية وبين ما يفعله ؟

إننا نرى أن النظر في كتاب الله تعالى والتدبر في معانيه واستنباط الأحكام التي تبنى على العلم والدراية بكتاب الله تعالى هو واجب المسلمين بعامه وعلى علمائهم بخاصة . والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[1] .

ونعتقد ـ والله أعلم ـ أن هذا ما كان يرمي إليه ابن تيمية حيث قال :

« فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به .

فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى ﴿ **لتبيننه للناس ولا تكتمونه** . ﴾[2] .

ولما جاء في الحديث المروي من طرق : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار . » والله أعلم .

وإذا كان ذلك كذلك فإن طبيعة البحث تقتضينا أن نلقي بعض الأضواء على مصنفات ومؤلفات العالم الكبير ابن تيمية .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .

مؤلفات الامام ابن تيمية

عاش ابن تيمية حياة عريضة ممتدة ، وإن كانت قليلة في عمر الزمن ولكنها كانت عميقة ومؤثرة في دنيا الناس .

ولقد استغل هذه الحياة استغلالاً كاملاً لصالح العلم والمعرفة باحثاً عنها في بطون الكتب ومستمعاً لها من أفواه العلماء ، ولقد حباه الله سبحانه وتعالى ذاكرة واعية قوية ، وألمعية حاضرة متقدة استوعبت هذه الصنوف المختلفة من المعارف والعلوم ، ثم أخرجتها إلى البشرية رحيقاً مصفى ، وغذاء ثرياً ، أضاف للمكتبة الاسلامية والعربية الكثير والكثير من المراجع والمصنفات التي يعتز بها أبناء الاسلام من طلاب المعرفة في كل عصر ومصر .

وسنحاول بمشيئة الله تعالى أن نلقي الأضواء على بعض هذه المصنفات دالِّين عليها في أماكنها أو معرِّفين بها قدر الجهد والطاقة ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

أ ـ كتب العقائد :

١ ـ كتاب الايمان ، طبع عدة طبعات مختلفة في البلاد العربية منها طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ـ تصحيح الدكتور محمد خليل هراس .

وقد استعرض في هذا الكتاب الفرق بين الايمان والاسلام ، وزيادة الايمان ونقصانه ، ودخول العمل في الايمان ، وعدم دخوله ، وناقش الفرق الموجودة في عصره ـ ورد على بعضهم وفند أقوالهم ، واستخلص ما رآه انه الحق من هذه الأقوال .

٢ ـ كتاب اقتضاء الصراط المستقيم ، وقد طبع عدة طبعات مختلفة منها طبعة مطابع المجد السعودية عام ١٣٩٠ هـ وأخذه أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض اطروحة حصل بها على درجة الدكتوراه في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٣ ـ كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ـ القاهرة ١٩٧٨ طبعة أخرى بتحقيق الشيخ محمود فايد صبيح سنة ١٩٥٨ وكانت الطبعة الأولى بالمطبعة العامرية الشرقية بمصر عام ١٣٢٣ هـ وهو مما صنفه بقلعة دمشق .

٤ ـ العقل والنقل لابن تيمية حـ ٤ مخطوط رقم ١٨٢ عقائد تيمور بدار الكتب .

٤ ـ شرح الأصفهانية : تقديم فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م .

٥ ـ الرسالة الحموية : ضمن مجموعة بعنوان نفائس ، مطبعة السنة المحمدية ، بدون تاريخ .

٦ ـ الرسالة التدمرية : طبعت أكثر من طبعة ، وأخذها أحد طلاب الدراسات العليا بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض اطروحة حصل بها درجة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة .

٧ ـ الرد على الفلاسفة : أربع مجلدات .

٨ ـ كتاب اثبات المعاد ، والرد على ابن سينا .

٩ ـ كتاب « ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً » .

١٠ ـ كتاب « المعجزات والكرامات » .

١١ ـ كتاب « اثبات الصفات » مجلد .

١٢ ـ كتاب « العرش » .

١٣ ـ كتاب « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » .

١٤ ـ كتاب « الرد على الامامية » في مجلدين كبيرين .

١٥ ـ « الرد على القدرية » .

١٦ ـ « الرد على الاتحادية والحلولية » .

١٧ ـ كتاب في « خلق الأفعال » .

١٨ ـ كتاب في « الرد على تأسيس التقديس » للرازي في سبع مجلدات .

١٩ ـ « كتاب الأسماء والصفات » ضمن فتاوى ابن تيمية طبعة الرياض عام

١٣٨١ هـ المجلد الخامس ، والمجلد السادس .

٢٠ ـ « تـوحيد الألـوهية » ضمن فتـاوى ابن تيمية طبعـة الريـاض عام ١٣٨١ هـ .

٢١ ـ « توحيد الربوبية » ضمن فتاوى ابن تيمية طبعة الرياض عـام ١٣٨١ هـ المجلد الثاني .

٢٢ ـ الرد على المنـطقيين طبعـة بمباي ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ م ، وطبعـة أخرى تـولى طبعها « إدارة ترجمـان السنة » لاهـور باكستـان ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م قال في مقـدمته : فإني كنت أعلم أن المنطق اليـوناني لا يحتـاج إليه الـذكي ولا ينتفع بـه البليد ، ولكن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير منها ثم تبين لي الخ . .

٢٣ ـ الصفدية : تحقيق الـدكتور محمـد رشاد سـالم الجزء الأول مـطابع حنيفـة الرياض ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

تبـدأ بسؤال وجه إلى الامـام ابن تيمية عن رجـل مسلم يقـول : ان معجـزات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ـ قوى نفسية . افتونا مأجورين . فـأجاب : الحمـد لله رب العالمين : هذا الكلام ـ وهو قول القائل : إن معجـزات الأنبياء صـلى الله عليهم وسلم ـ قوى نفسية ـ باطل ، بل هو كفر يستتاب قائله ويبين له الحق ، فأن أصر عـلى اعتقاده بعد قيام الحجة الشرعية عليه كفر ، وإذا أصر بعد الاستتابة ـ قتل الخ .

٢٤ ـ قـاعدة جليلة في التـوسل والـوسيلة ـ القاهـرة ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ م تصحيح الدكتور محمد الزيني .

٢٥ ـ كتاب « القدر » ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .

٢٦ ـ كتاب « التوحيد » تحقيق الدكتـور محمد السيـد الجليند القـاهرة ١٩٧٩ م مع مقدمة عن قضية التوحيد بين الدين والفلسفة .

٢٧ ـ « مجمل اعتقاد السلف » ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .

٢٨ ـ منهاج السنة النبوية : في نقض كلام الشيعة والقدرية (طبعة بولاق بدون تاريخ)

طبعة أخرى مصورة « ببيروت » تحقيق الـدكتور محمـد رشاد سالم وطبعة أخرى

الناشر : مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض .

٢٩ ـ نقض المنطق : مكتبة السنة المحمدية ـ تصحيح الشيخ محمد حامد الفقي القاهرة ١٣٧٠ هـ .

٣٠ ـ كتاب الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح ـ أربع مجلدات وسبب تأليف هذا الكتاب ان كتاباً ورد من قبرص . فيه بيان أن دين النصارى في عصره هو ما جاء في كتبهم وفيه الاحتجاج له بما يحتج به دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية فتصدى ابن تيمية للرد وقال في ذلك .

« اقتضى هذا أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع به أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . (راجع مقدمة الكتاب ص ١٩) .

ب ـ الفقه :

لقد ترك ابن تيمية آثاراً فقهية جليلة حتى قال الحافظ الذهبي : فاق الناس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين . ومن أهم هذه الكتب :

١ ـ « شرح العمدة في الفقه » أربع مجلدات .

٢ ـ كتاب الدرة المضيئة في فتاوى ابن تيمية .

٣ ـ كتاب « المناسك الكبرى والصغرى » .

٤ ـ كتاب « اصلاح الراعي والرعية » أو « السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » طبعة دار الكاتب العربي .

قال في مقدمته « وهذه رسالة مبنية على آية الأمراء في كتاب الله وهي قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الآمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظمكم به إن الله كان سميعاً بصيراً . ﴾[١] .

٥ ـ الفتاوى المصرية خمسة مجلدات ـ طبعة الكردي ١٣٢٩ هـ .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٥٨ .

٦ ـ الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية « المطبعة السلفية بدون تاريخ » .

٧ ـ كتاب قواعد في الوقف والوصايا .

٨ ـ كتاب قاعدة في الاجتهاد والتقليد .

٩ ـ كتاب قاعدة تفضيل مذهب أهل المدينة وهي في رسالة تسمى « المالكية » .

١٠ ـ كتاب قاعدة شمول النصوص .

١١ ـ كتاب قاعدة القياس.

١٢ ـ كتاب قاعدة في لعب الشطرنج .

١٣ ـ كتاب قاعدة في السفر .

١٤ ـ كتاب قواعد في أحكام الكنائس .

١٥ ـ كتاب قاعدة رجوع المغرور على من غره .

١٦ ـ كتاب قاعدة في الضمان .

١٧ ـ كتاب قاعدة سؤر ما يؤكل لحمه وبوله .

١٨ ـ كتاب قاعدة الجهاد والترغيب فيه .

١٩ ـ رسالة في القياس .

٢٠ ـ رسالة في الحسبة .

٢١ ـ كتاب في نكاح المحلل .

٢٢ ـ كتاب في القعود .

٢٣ ـ تعليق على كتاب المحرر في الفقه لجده الشيخ مجد الدين ، في عدة مجلدات .

ج ـ التصوف :

١ ـ الاستقامة : قاعدة في وجوب الاستقامة ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٧٣ ـ تصوف ـ تحت عنوان خطأ « وهو الكلمات السنيات » .

٢ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٨٦ هـ .

٣ ـ رسالة العبودية . ط أنصار السنة سنة ١٩٤٧ بتحقيق محمد حامد الفقي .

٣ ـ التصوف ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .
٤ ـ تصوف وأخلاق دينية مخطوط رقم ٢٤٣٦ بدار الكتب المصرية .
٥ ـ السلوك ضمن الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ .
٦ ـ الصوفية والفقراء رسالة صغيرة ـ تحقيق الدكتور محمد جميل غازي مطبعة المدني القاهرة ـ بدون تاريخ . ثم طبعة أخرى لمطبعة المدني ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .
٧ ـ قاعدة في المحبة : مخطوط مصور بالجامعة المصرية ـ تصوف رقم ١٢٩ .

د ـ الجدل ، وفنون أخرى :

١ ـ تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل .

قال في مقدمته : بعد الاشارة إلى طريقة المتقدمين في المجادلة بالتي هي أحسن : ثم صار المتأخرون بعد ذلك يتناظرون في أنواع التأويل والقياس بما يؤثر في ظن بعض الناس ، وان كان عند التحقيق يؤول إلى الافلاس لكنهم لم يكونوا يقبلون من المناظرة إلا ما يفيد ، ولو ظناً ضعيفاً للناظر . واصطلحوا على شريعة من الجدل للتعاون على اظهار صواب القول والعمل ، ضبطوا بها قوانين الاستدلال لتسلم عن الانتشار والانحلال ، فطريقتهم، وإن كانت بالنسبة إلى طرائق الأولين غير وافية بمقصود ، لكنها غير خارجة عنه بالكلية ، ولا مشتملة على ما يؤثر في القضية ، وربما كسوها من جودة العبارة ، وتقريب الاشارة، وحسن الصياغة ، وصنوف البلاغة ، ما يجليها عند الناظرين ، وينفقها عند المتناظرين مع ما اشتملت عليه من الأدلة السمعية والمعاني الشرعية وبنائها على الأصول الفقهية ، والقواعد الشرعية ، والتحاكم فيها إلى حاكم الشرع الذي لا يعزل ، وشاهد العقل المربي المعدل .

ثم إن بعض طلبة العلوم من أبناء فارس والروم صاروا مولعين بنوع من جدل المموهين ، استحدثه طائفة من الشرقيين ، وألحقوه بأصول الفقه في الدين ، راوغوا فيه مراوغة الثعلب ، وجادوا فيه عن المسلك اللاحب ، وزخرفوه بعبارات موجودة في كلام العلماء قد نطقوا بها ، غير انهم وضعوها في غير مواضعها المستحقة لها ، وألفوا الأدلة تأليفاً غير مستقيم ، عدلوا عن التركيب الناتج إلى العقيم ، غير انهم بإطالة

العبارة ، وابعاد الاشارة ، واستعمال الألفاظ المشتركة والمجازية في المقدمات ، ووضع الظنيات موضع القطعيات الخ .

٢ ـ تعارض العقل والنقل : تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم
الجزء الأول طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ م .
وتسعة أجزاء أخرى طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٩٨١ ١٩٨٢ م .

٣ ـ مجموعة الرسائل الكبرى الطبعة الأولى مصر ١٣٢٣ هـ .

٤ ـ جامع الرسائل ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ مطبعة المدني ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م .

هـ ـ الحديث وعلومه :

قال الذهبي عن ابن تيمية : سمع الحديث ، واكثر بنفسه من طلبه ، وكتب وخرَّج وناظر في الرجال والطبقات ، وحصَّل ما لم يحصله غيره .
ثم قال : وبرع في الحديث وحفظه فقلَّ من يحفظ ما يحفظ من الحديث معزواً إلى أصوله وصحابته مع شدة استحضار له وقت اقامة الدليل .
ثم قال : ونصر السنة بأوضح حجج ، وأبهر براهين ، وأوذي في ذات الله من المخالفين ، وأخيف في نصر النسة المحضة ، حتى أعلى الله مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له .

١ ـ علم الحديث مكتوب على غلافه « الخزانة الآصفية بحيدر آباد الدكن » .
توجد منه نسخة خطية محفوظة بالآستانة رقم ٣٢٧١ ضمن مجموعة بخط فارس جميل .

يوجد في الجزء الثامن عشر من الفتاوى طبعة الرياض ١٣٨١ هـ قام بتحقيقه واعداده فضيلة الشيخ موسى محمد علي قامت بطبعه دار الكتب الإسلامية لصاحبها توفيق عفيفي عامر ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٢ ـ شرح حديث النزول : نشره المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦٢ م.

و ـ التفسير :

قال الذهبي : شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويراً الهياً وكرماً ونصحاً للأمة ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . ثم قال :

وبرع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه ، بطبع سيال وخاطر وقاد ، إلى مواضع الإشكال ميال ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها .

وقال أيضاً : شرع في تفسير القرآن الكريم ، فكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر ، وبقي يفسر سورة نوح عدة سنين أيام الجمع بالمسجد .

وقال في الترجمة المطولة التي أفردها الذهبي لابن تيمية في كتابه (التاريخ الكبير) .

« أما التفسير فمسلم إليه ، وله من استحضار الآيات من القرآن ـ وقت اقامة الدليل بها على المسألة ـ قوة عجيبة ، وإذا رآه المقرىء تحير فيه ، ولفرط امامته في التفسير ، وعظم اطلاعه ، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ، ويوهي أقوالاً عديدة ، وينصر قولاً واحداً موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث . ويكتب في اليوم والليلة من التفسير نحواً من أربعة كراريس أو أزيد .

١ ـ تفسير سورة الاخلاص : ط المنيرية سنة ١٣٥٢ هـ بتصحيح محمد منير الدمشقي .

ونسخه في مجلد طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ بأولها فهرس .

٢ ـ تفسير سورة النور لابن تيمية .

٣ ـ دقائق التفسير في أربع مجلدات قام بتحقيقه الدكتور محمد السيد الجليند ط دار الانصار ـ القاهرة .

٤ ـ التفسير في الفتاوى ط الرياض ١٣٨١ هـ بداية من الجزء الثالث عشر وقد احتوى على مجموعة مقدمات في التفسير . والرابع عشر والذي يشمل من سورة الفاتحة إلى سورة الأعراف ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، والسابع عشر ، والذي يشمل تفسر سورة الأخلاص والمعوذين .

٥ ـ التفسير الكبير ـ وهو الكتاب الذي بين أيدينا .

التفسير الكبير ومنهجنا في التحقيق

وقع في يدي منذ عشر سنوات أو تزيد كتاب : « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » . للإمام العالم جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي .

وهو كتاب فريد في بابه أعجبني وأخذ يلبي هذا الحشد الكبير من آثار وأخبار جمعها هذا الرجل العملاق من أقوال الرسول - ﷺ - وأفعاله ، وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم ، ثم صحتها هذا السفر الفريد .

ولكن هذا العمل الجليل سطت عليه أيدي النساخ والعابثين بالتحوير والتبديل ، فطمست بعض معانيه ، وغيرت بعض كلماته ، فعقدت العزم على أن أقوم بتنقية هذا الكتاب مما شابه ، ورجوت المولى جل وعلا أن يعينني ويأخذ بيدي أمام هذه المهمة الشاقة التي تحتاج إلى عزيمة ووقت .

وكانت بداية خطة العمل أن أضع يدي على جل ما كتبه الإمام السيوطي في التفسير وعلوم القرآن ، وأخذت أبحث عن هذه الكتب في مظانها وخصوصاً لدى أحفاد وأقارب السيوطي في مقرهم بمدينة أسيوط من صعيد مصر .

ولقد جمعت من هذه المصنفات وخصوصاً المخطوط منها ما يمكن أن يعينني في هذه المهمة .

وكان ضمن هذه المصنفات مخطوطة تكاد تكون مجهولة المعالم معنونة بـ « التفسير الكبير » لابن تيمية الحراني ، ناسخها محمد بن العباس بن الحسين ، الشافعي مذهباً ، ويرجع تاريخ نسخها إلى عام ٣١٠ هـ وهذه النسخة موقوفة على ناسخها في

حياته ، ولأولاد وأحفاده بعد مماته . لوحة رقم (١) (٢) .

والذي قدم لي هذه النسخة رجل نصيبه من المعرفة محدود ، وحرفته الزراعة ، وهي حرفة أبيه وجده ولكن هذه الأوراق ضمن ما وجده من مخلفات جده الأعلى الذي كان مجاوراً بالأزهر الشريف ، وهي تملأ « سحارة كاملة » وأهل منزله ضاقوا بها وبمحتوياتها فأراد أن يتخلص منها فقدمها إليَّ عندما علم برغبتي في جمع الأوراق القديمة و « العرائض » المكتوبة على حد تعبيره .

إن هذه الأوراق غير مرتبة ، وتحمل أرقاماً باهتة ، ولم تدخل مكتبة لتأخذ رقماً للتصنيف أو الفهرسة .

أيكون هذا الجد الطالب بالأزهر جمعها من أوراق مختلفة ومن كتب متباينة ؟ . .

أو وضع يده على نسخة كاملة من تفسير الإمام الكبير فعكف على نسخها وكتابتها .

أكانت هذه الأوراق مما كان يملى عليه في دروس الأزهر هو وزملاؤه ؟ . .

أسئلة كثيرة محيرة جعلتني أضرب في المجهول باحثاً ومنقباً وسائلاً ومفتشاً في المكتبات العامة والخاصة .

والحق يقال : لقد شغلتني هذه الأوراق عما نويت العزم عليه وعكفت عليها أقارن بينها وبين ما جمع وطبع من تفاسير لهذا العالم الكبير .

ورأيتني على غير ارادة أترك المهمة الأولى ، وأجري لاهثاً خلف توثيق هذه النسخة بالمقارنة بينها وبين التفاسير التي ظهرت أو لا زالت مخطوطة وتنسب لابن تيمية حجة الإسلام في عصره . واستطعت أن أضع يدي على الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم
تفسير فاتحة الكتاب

فصل وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي (ص) أنه قال:
يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي
ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي وإذا
قال: الرحمن الرحيم قال الله: أثنى علي عبدي وإذا قال مالك يوم الدين. قال الله
مجدني عبدي. وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذه الآية بيني
وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت
عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل.
وثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي (ص) سمع
نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط
إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض ولم ينزل قط إلا
اليوم فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب
وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته وفي بعض الأحاديث: إن
فاتحة الكتاب أعطيتها من كنز تحت العرش.

فصل في إياك نعبد وإياك نستعين قال الله تعالى في أم القرآن والسبع
المثاني والقرآن العظيم إياك نعبد وإياك نستعين وهذه السورة هي أم القرآن
وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي الشافية وهي
الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها وهي الكافية تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها
والصلاة أفضل الأعمال وهي مؤلفة من كلم طيب وعمل صالح فأفضل الكلم الطيب
وأوجبه أم القرآن وأفضل العمل الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين
الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى: اقرأ باسم
ربك الذي خلق وختمها بقوله واسجد واقترب فوضعت الصلاة على ذلك أولها
القراءة وآخرها السجود ولهذا قال سبحانه في صلاة الخوف فإذا سجدوا فليكونوا
من ورائكم والمراد بالسجود الركعة التي يفعلونها وحدهم بعد مفارقتهم للإمام
وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح واستعاذة هي تحريم للصلاة وتقدمة لما
بعده أول ما يبدأ به كالتقدمة وما يفعل بعد السجود من قعود وتشهد فيه
التحية لله والسلام على عباد الله الصالحين والدعاء والسلام على الحاضرين
فهو تحليل للصلاة ومعقب لها كما قال النبي (ص) مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها
التكبير وتحليلها التسليم ولهذا لما تنازع الناس أيما أفضل: كثرة الركوع والسجود
أو طول القيام. أو هما سواء على ثلاثة أقوال عن أحمد وغيره كان الصحيح أنهما
سواء القيام فيه أفضل الأذكار والسجود أفضل الأعمال فاعتدلا ولهذا كانت
صلاة رسول الله (ص) معتدلة يجعل الأركان قريبا من السواء وإذا أطال
القيام طولا كثيرا كما كان يفعل في قيام الليل وصلاة الكسوف أطال معه الركوع
والسجود وإذا اقتصد فيه اقتصد في الركوع والسجود.

لوحة رقم (١)

الصنميين فقصد الصلاة فيها منهي عنه. وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله
مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف وسجود التلاوة وركعتي الطواف وإعادة الصلاة
مع إمام الحي ونحو ذلك ففيه نزاع مشهور بين العلماء والأظهر جواز ذلك
واستحبابه فإنه خير لا شر فيه وهو يفوت إذا ترك وإنما نهي عن قصد الصلاة
وتحريها في ذلك الوقت لما فيه من مشابهة الكفار بقصد السجود ذلك الوقت
فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت وإن لم يقصد الوقت بخلاف ذي السبب
فإنه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت. وكذلك نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن
الصلاة في المقبرة عموما. فقال الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام رواه أهل السنن
وقد روي مسندا ومرسلا، وقد صحح الحفاظ أنه مسند فإن الحمام مأوى
الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد وإن كان
المصلي قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة بل اتفقت لكن فيه تشبه بمن
يقصد ذلك فنهي عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب وإن
لم يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان
كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان فلما كان الشرك الذي أضل أكثر بني آدم
أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فإن المشركين في
اعتقادهم آلهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شيء من الأشياء فسألوا
النبي صلى الله عليه وسلم عن إلهه الذي يعبده من أي شيء هو أمن كذا أم من كذا
وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فقال تعالى قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم
يكن له كفوا أحد وفي حديث أبي بن كعب لأنه ليس أحد يولد إلا يموت ولا
أحد يموت إلا يورث فيدل كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير
وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الإلهية منهم من لا يموت
وهو وإن كان ورث من غيره ما هو فيه فإذا مات ورثه غيره والله سبحانه حي
لا يموت ولا يورث سبحانه وتعالى.
الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم هذا آخر تفسير
العلامة المجتهد الحجة المفسر الفقيه المحدث علم الأعلام شيخ الإسلام
إمام الأئمة مفتي الأمة فارس المعاني علامة الزمان تقي الدين أبي العباس أحمد
ابن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني أعلى الله مناره وشيد من الدين أركانه

كتبه العبد الفقير المحتاج إلى مولاه ذي الطول والأركان محمد
ابن العباس بن الحسين الشافعي مذهبا الطهطاوي بلدا
الفرسي إقامة أعانه الله وستر خطاه وكان الفراغ
من ذلك صبيحة يوم الاثنين الخامس عشر من
رجب الفرد عام ١٣١٠ هـ ويحتسب العبد
الفقير المحتاج إلى ربه عمله هذا إلى
الله تعالى وهو وقف لله في حياته
ولعامة المسلمين بعد مماته
نفع الله به وأسكن
مصنفه وكاتبه
فسيح جناته

لوحة رقم (٢)

المخطوطات :

ب : في دار الكتب المصرية كتاب يسمى « مجموعة الكواكب الدراري » يوجد منه ست مجلدات .

تحت رقم ٦٤٥ تفسير ، عمومية ٤٧٢١٤ جمع وتأليف الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن عروة الحنبلي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .

وهي مجموعة كبيرة من الآثار السلفية يوجد بها آثار لأحمد بن حنبل ، وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، وغيرها من علماء السلف ، جمعها وأضاف إليها ابن عروة الحنبلي .

ويقال له ابن زكنون ، وهو فقيه حنبلي ، عالم بالحديث وأسانيده ورجاله .

أشهر تصانيفه : الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل على أبواب صحيح الإمام البخاري وهو كتاب كبير جداً ، والسيرة النبوية ـ خ منتزعة من الكواكب ، ولد عام ٧٥٨ هـ وتوفي في دمشق عام ٨٣٧ هـ . راجع الضوء اللامع ٥ : ٢١٤ ومخطوطات الظاهرية ٢٠ ودار الكتب ١ : ٥٩ .

نقول والذي يوجد في دار الكتب المصرية من هذه المجموعة ست مجلدات أما بقية أجزائها فتوجد بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

ويقع الجزء السادس في ١٨٥ ورقة من القطع الكبير ، وعدد أسطر الصفحة يتراوح ما بين ٢٨ ـ ٣٠ سطراً ويشتمل السطر على ١٣ ـ ١٥ كلمة .

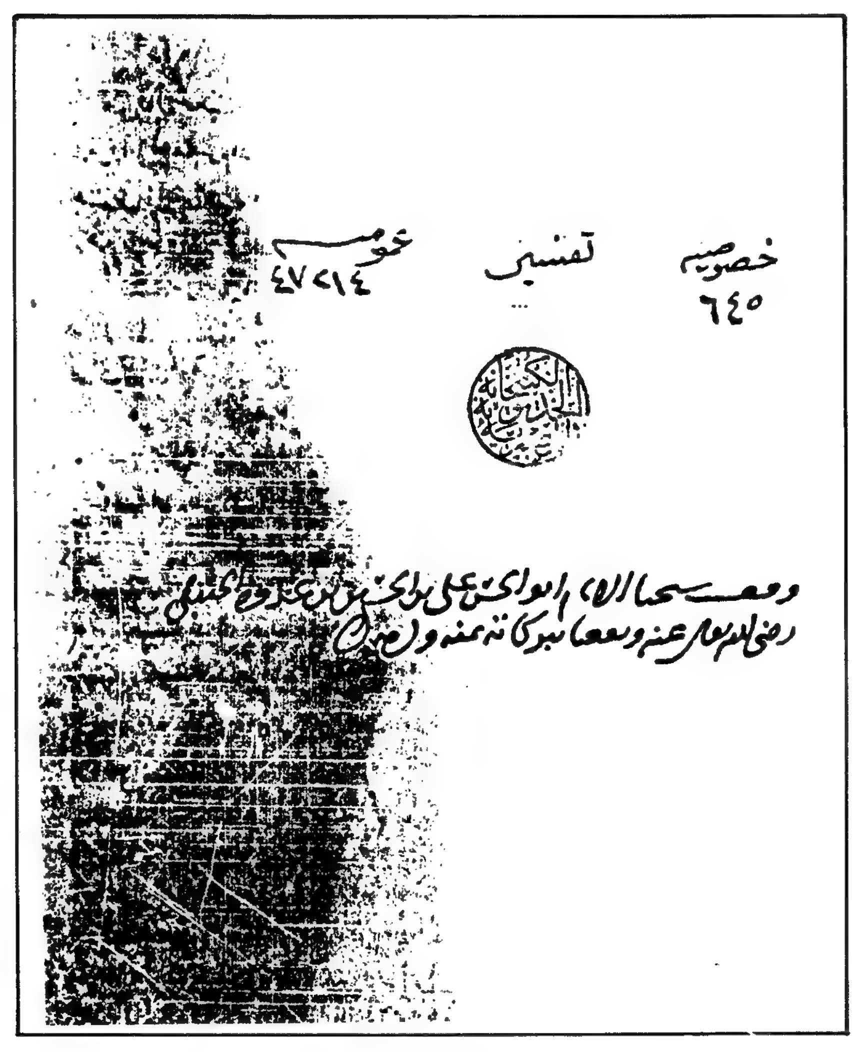
وهذه النسخة كتبت بخط نسخ غير واضح في كثير من المواضع وقد اشتملت هذه المجموعة على تفسير بعض السور القصيرة من تفسير الإمام ابن تيمية مثل :

١ ـ تفسير سورة الأعلى .
٢ ـ تفسير سورة الشمس .
٣ ـ تفسير سورة الليل .
٤ ـ تفسير سورة العلق .
٥ ـ تفسير سورة البينة .

٦ ـ تفسير سورة الكافرون .

وغير ذلك من قصار السور .

راجع لوحة رقم ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .



لوحة رقم (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي ونعم الوكيل

تفسير سورة سبح وهي مكية

والدليل على ذلك ما رواه البخاري والامام احمد وغيرها قال احمد حدثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن ابي
اسحق قال سمعت البرا قال كان اول من قدم المدينة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن
عمير وابن ام مكتوم وكانوا يقرئون الناس قال ثم قدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في
عشرين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رايت اهل المدينة فرحوا بشي
فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قال حتى جعل الاما يقلن قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما قدم حتى قرات سبح اسم
ربك الاعلى في سور من المفصل ورواه البخاري عن محمد بن بشار عن غندر عن شعبة به ورواه احمد عن عفان عن شعبة به
ورواه البخاري عن عبدان عن ابيه عن شعبة نحوه وقال الامام احمد حدثنا وكيع ثنا اسرائيل عن ثوير
ابن ابي فاختة عن ابيه عن علي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الاعلى انفرد به احمد
وثبت في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ هلا صليت بسبح اسم ربك الاعلى والشمس
وضحاها والليل اذا يغشى وقال الامام احمد حدثنا سفيان عن ابراهيم ابن محمد ابن المنتشر عن ابيه عن حبيب
ابن سالم عن ابيه عن النعمان ابن بشير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرا في العيدين بسبح اسم ربك الاعلى وهل
اتاك حديث الغاشية وان وافق يوم الجمعة قراهما جميعا هكذا وقع في مسند الامام احمد اسناد هذا الحديث
وقد رواه مسلم في صحيحه وابو داود والترمذي والنسائي من حديث ابي عوانة وجرير وشعبة ثلاثتهم
عن محمد بن المنتشر عن ابيه عن حبيب ابن سالم عن النعمان ابن بشير به قال الترمذي وكذا رواه الثوري ومسعر
عن ابراهيم قال ورواه سفيان ابن عيينة عن ابراهيم عن ابيه عن حبيب بن سالم عن ابيه عن النعمان ولا يعرف لحبيب رواية
عن ابيه وقد رواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن سفيان ابن عيينة عن ابراهيم ابن المنتشر عن ابيه عن حبيب بن سالم
عن النعمان به كما رواه الجماعة والله اعلم ولفظ مسلم واهل السنن كان يقرا في العيدين ويوم الجمعة بسبح
اسم ربك الاعلى وهل اتاك حديث الغاشية وربما اجتمعا في يوم واحد فقراهما وقد روى الامام احمد
في مسنده من حديث ابي ابن كعب وعبد الله ابن عباس وعبد الرحمن ابن ابزى وعائشة ام المومنين
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرا في الوتر بسبح اسم ربك الاعلى وقل يا ايها الكافرون وقل هو الله احد
زادت عائشة والمعوذتين وهكذا روي هذا الحديث من طريق جابر وابي امامة صدي ابن عجلان
وعبد الله ابن مسعود وعمران ابن حصين وعلي ابن ابي طالب وقد ذكرنا هذه الاحاديث بطرقها والفاظها
في كتاب الوتر والجمعة والعيدين في اوايل كتابنا هذا ولولا خشية الاطالة لاوردنا هنا ما تيسر لنا من اسانيد
ذلك ومتونه ولكن في الارشاد بهذا الاختصار كفاية لمن طلب منه ذلك والله اعلم

بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى
الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي اخرج المرعى فجعله غثا احوى
قيل لفظة اسم زايدة وقيل في الكلام حذف مضاف اي سبح مسمى اسم ربك ذكره ابو علي في كتاب الشعر وقيل

لوحة رقم (٤)

هو على ظاهره اي نزه اسمه عن الابتذال والكذب اذا اقسمت به واحوى قيل هو نعت لغثا وقيل هو حال
من المرعى اي اخرج المرعى اخضر ثم صيره غثا فقدم بعض الصلة ٥ قال الامام احمد حدثنا ابو عبد الرحمن
نا موسى يعني ابن ايوب الغافقي حدثني عمي اياس بن عامر سمعت عقبة ابن عامر الجهني لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم
قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت سبح اسم ربك الاعلى قال اجعلوها في سجودكم ورواه
ابو داود وابن ماجه من حديث ابن المبارك عن موسى بن ايوب به وقال الامام احمد حدثنا وكيع نا اسرايل
عن ابي اسحق عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرا سبح اسم
ربك الاعلى قال سبحان ربي الاعلى وهكذا رواه ابو داود عن زهير بن حرب عن وكيع به وقال اختلف فيه وكيع
ورواه ابو وكيع وشعبة عن ابي اسحق عن سعيد عن ابن عباس موقوفا وقال الثوري عن السدي عن عبد خير قال
سمعت عليا قرا سبح اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربي الاعلى وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد نا حكام عن
عنبسة عن ابي اسحاق الهمداني ان ابن عباس كان اذا قرا سبح اسم ربك الاعلى يقول سبحان ربي الاعلى واذا
قرا لا اقسم بيوم القيمة فاتى على اخرها اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى يقول سبحانك وبلى وقال قتادة
سبح اسم ربك الاعلى ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قراها قال سبحان ربي الاعلى وقوله
الذي خلق فسوى اي خلق الخليقة وسوى كل مخلوق في احسن الهيات وقوله والذي قدر فهدى
قال مجاهد هدى الانسان للشقوة والسعادة وهدى الانعام لمراتعها وهذه الاية كقوله تعالى
اخبارا عن موسى انه قال لفرعون ربنا الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى اي قدر قدرا وهدى الخلايق اليه
كما ثبت في المسند وصحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله قدر مقادير
الخلايق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء وقوله والذي
اخرج المرعى اي من جميع صنوف النباتات والزروع فجعله غثا احوى اي جعله غثا بعد ان كان اخضر وهو
الذي اشتدت خضرته والغثا ما يبس من النبت فحمله الما فالقاه في الجوانب قال ابن عباس وقوله فجعله
غثا احوى اي هشيما متغيرا وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه قال ابن جرير وكان بعض اهل العلم بكلام
العرب يرى ان ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم وان معنى الكلام والذي اخرج المرعى احوى اي اخضر الى
السواد فجعله غثا بعد ذلك ثم قال ابن جرير وهذا وان كان محتملا الا انه غير صواب لمخالفته اقوال اهل
التاويل ٥ انتهى والحوة لون يخالطه الكمتة مثل صدا الحديد وقال الاصمعي الحوة حمرة تضرب الى السواد
يقال قد احوى الفرس يحوى واحووى احويواء قال وبعض العرب يقول احواوى يحواوى احويواء قال
وبعض العرب يقول حوي يحوى حوة حكاه في كتاب الفرس ومنه الحديث خير الخيل الحو يعني الكمت
التي يعلوها سواد وقد حوي الفرس حوة واحووى وفرس احوى والحوة سمرة الشفة يقال رجل
احوى وامراة حواء وقد حويت ٥

قوله تعالى سنقرئك فلا تنسى الا ما شا الله انه يعلم الجهر
وما يخفى ونيسرك لليسرى فذكر ان نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الاشقى الذي يصلى النار [illegible]

لوحة رقم (٥)

الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى قيل ان لا في قوله فلا تنسى نافية اي فلا تنسى وقيل هي نهي ولم يجزم لتوافق
رؤوس الاي وقيل الا لمن ما شيئا عن ابن ع الفتح فقوله سنقرئك اي يا محمد فلا تنسى وهذا اخبار من الله
عز وجل ووعد منه له بانه سيقرئه قراءة لا ينساها الا ما شا الله وهذا اختيار ابن جرير وقال قتادة
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيا الا ما شا الله وقيل المراد بقوله فلا تنسى طلب وجعلوا معنى
الاستثنا على هذا ما يقع من النسخ اي لا تنسى ما نقريك الا ما شا الله رفعه فلا عليك ان تتركه وقوله
انه يعلم الجهر وما يخفى اي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من اقوالهم وافعالهم لا يخفى عليه من ذلك شي وقوله
ونيسرك لليسرى اي نسهل عليك افعال الخير واقواله ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا لا
اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر وقوله فذكر ان نفعت الذكرى اي ذكر حيث تنفع التذكرة ومن
هاهنا يوخذ الادب في نشر العلم فلا يضعه عند غير اهله كما قال امير المومنين علي ما انت بمحدث
قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة لبعضهم وقال حدثوا الناس بما يعرفون اتحبون ان يكذب الله
ورسوله وقوله سيذكر من يخشى اي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم انه ملاقيه ويتجنبها
الاشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى اي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه بل
هي مضرة عليه لان بسببها يشعر ما يعاقب به من اليم العذاب وانواع النكال قال الامام احمد حدثنا
ابن ابي عدي عن سليمان يعني التيمي عن ابي نضرة عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما اهل
النار الذين هم اهلها لا يموتون ولا يحيون واما اناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم في النار فيدخل عليهم
الشفعا فياخذ الرجل الضبارة فينبتهم او قال ينبتون في نهر الحيا او قال الحياة او قال الحيوان او قال نهر
الجنة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل قال وقال النبي صلى الله عليه وسلم اما ترون الشجرة تكون خضرا
ثم تكون صفرا ثم تكون خضرا قال فقال بعضهم كان النبي صلى الله عليه وسلم كان بالبادية وقال احمد ايضا
حدثنا اسمعيل ثنا سعيد بن يزيد عن ابي نضرة عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم اما اهل النار الذين هم اهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن اناس او كما قال تصيبهم النار
بذنوبهم او قال بخطاياهم فيميتهم اماتة حتى اذا صاروا فحما اذن في الشفاعة فجي بهم ضباير ضباير فبثوا
على انهار الجنة فيقال يا اهل الجنة افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل قال فقال رجل
من القوم حينيذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في البادية ورواه مسلم من حديث بشر بن المفضل وشعبة
كلاهما عن ابي مسلمة سعيد بن يزيد به مثله ورواه ايضا عن يزيد بن سعيد بن اياس الجريري عن ابي
نضرة عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان اهل النار الذين لا يريد الله اخراجهم لا يموتون فيها ولا
يحيون وان اهل النار الذين يريد الله اخراجهم يميتهم فيها اماتة حتى يصيروا فحما ثم يخرجون ضباير فيلقون
على انهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل وقد قال الله تعالى اخبارا عن اهل النار ونادوا
يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون وقال تعالى لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها
الى غير ذلك من الايات في هذا المعنى

لوحة رقم (٦)

قوله تعالى قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى

يقول تعالى قد افلح من تزكى اى طهر نفسه من الاخلاق الرذيله وتابع ما انزل الله على الرسول
صلوات الله وسلامه عليه وذكر اسم ربه فصلى اى اقام الصلوات فى اوقاتها ابتغا رضوان الله
وطاعه لامر الله وامتثالا لشرع الله وقد قال الحافظ ابو بكر البزار حدثنا عباد ابن احمد العرزمى
نا عمى محمد بن عبد الرحمن عن ابيه عن عطا ابن السايب عن عبد الرحمن ابن سابط عن جابر ابن عبد الله
عن النبى صلى الله عليه وسلم قد افلح من تزكى قال من شهد ان لا اله الا الله وخلع الانداد وشهد انى
رسول الله وذكر اسم ربه فصلى قال هى الصلوات الخمس والمحافظه عليها والاهتمام بها ثم قال
لا يروى عن جابر الا من هذا الوجه وكذا قال ابن عباس ان المراد بذلك الصلوات الخمس واختاره
ابن جرير وقال ابن جرير حدثنى عمرو ابن عبد الحميد الاملى نا مروان ابن معويه عن ابى خلده
قال دخلت على ابى العاليه فقال لى اذا غدوت غدا الى العيد فمر بى قال فمررت به فقال هل
طعمت شيا قلت نعم قال افضت على نفسك من الما قلت نعم قال فاخبرنى ما فعلت زكاتك قلت
قد وجهتها قال انما اردتك لهذا ثم قرا قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقال ان
اهل المدينه لا يرون صدقه افضل منها ومن سقايه الما قلت وكذلك روينا عن امير
المومنين عمر بن عبد العزيز انه كان يامر الناس باخراج صدقه الفطر ويتلو هذه الايه قد
افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقال ابو الاحوص اذا اتى احدكم سايل وهو يريد
الصلاه فليقدم بين يدى صلاته زكاته فان الله يقول قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه
فصلى وقال قتاده فى هذه الايه قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى زكى ماله وارضى خالقه

قوله تعالى بل يوثرون الحياه الدنيا والاخره خير

واعلم ان هذا الذى المصنف الاولى صحفا رهم وموسى ن يقرا يوثرون بالياعلى الغيبه
وبالتا على الخطاب اى قيل لهم ذلك فقوله تعالى بل يوثرون الحياه الدنيا اى يقدمونها على امر
الاخره ويبدونها على ما فيه نفعهم وصلاحهم فى معاشهم ومعادهم والاخره خير وابقى اى ثواب الله فى
الدار الاخره خير من الدنيا وابقى فان الدنيا دنيه فانيه والاخره شريفه باقيه فلعاقل يوثر
ما يفنى على ما يبقى ويهتم بما يزول عنه قريبا ويترك الاهتمام بدار البقا والخلد قال الامام
احمد حدثنا حسين ابن محمد ثنا دويد عن ابى اسحق عن عروه عن عايشه قالت قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وقال
ابن جرير حدثنا ابن حميد ثنا يحيى ابن واضح ابو حمزه عن عطا عن عرفجه الثقفى
قال استقرات ابن مسعود سبح اسم ربك الاعلى فلما بلغ بل يوثرون الحياه الدنيا ترك
القراه واقبل على اصحابه وقال اثرنا الدنيا على الاخره فسكت القوم فقال اثرنا الدنيا
لانا راينا زينتها ونساها وطعامها وشرابها وزويت عنا الاخره فاخترنا

لوحة رقم (٧)

اهلكت صاحبها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فان مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الارض
وذكر حديثا معناه ان كل واحد منهم جا بعود حطب حتى اوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا ولا يزال يسهل
عليه امر الصغاير حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخايف منها احسن حالا منه فان اعجزه العبد من هذه
المرتبة نقله الى المرتبة الخامسة وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عقابها فوات
الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها فان اعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم
مقدار انفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله الى المرتبة السادسة وهي ان يشغله
بالعمل المفضول ويحضه عليه ويحسنه له اذا تضمن ترك ما هو افضل واعلا منه وقل من ينتبه لهذا من الناس
فانه اذا راى فيه داعيا قويا ومحركا الى نوع من الطاعة لا يشك انه طاعة وقربة فانه لا يكاد يقول ان
هذا الداعي من الشيطان فان الشيطان لا يامر بخير ويرى ان هذا خير فيقول هذا الداعي من الله وهو
معذور ولم يصل علمه الى ان الشيطان يامر بسبعين بابا من ابواب الخير اما ليتوصل بها الى باب واحد
من الشر واما ليفوت بها خيرا اعظم من تلك السبعين بابا واجل وافضل وهذا لا يتوصل الى معرفته الا
بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وشدة عنايته بمراتب الاعمال
عند الله واحبها اليه وارضاها له وانفعها للعبد واعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده خاصتهم وعامتهم
ولا يعرف هذا الا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الامة وخلفائه في الارض واكثر الخلق
محجوبون عن هذا فلا يخطر بقلوبهم والله يمن بفضله على من يشا من عباده فاذا اعجزه العبد من هذه
المراتب الست واعيا عليه سلط عليه حزبه من الانس والجن بانواع الاذى بالتكفير له والتضليل والتبديع
والتحذير منه وقصد اخماله واطفايه ليشوش عليه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع
به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الانس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لامة
الحرب ولا يضعها عنه الى الموت ومتى وضعها اسر او اصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله فتامل
هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانا لك تزن به الناس وتزن به الاعمال فانه يطلعك
على حقايق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان فصل وتامل السر في قوله
تعالى يوسوس في صدور الناس ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل
الواردات اليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الاوامر
والارادات الى الصدر ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى وليبتلي الله ما في صدوركم
وليمحص ما في قلوبكم فالشيطان يدخل الى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد القاءه الى القلب فهو موسوس
في الصدر ووسوسته واصلة الى القلب ولهذا قال تعالى فوسوس اليه الشيطان ولم يقل فيه لان
المعنى انه القى اليه ذلك واوصله اليه فدخل في قلبه فصل قوله تعالى من الجنة والناس اختلف
المفسرون في هذا الجار والمجرور بما ذا يتعلق فقال الفراء وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم
والمعنى يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والانس اي الموسوس في صدورهم قسمان انس

لوحة رقم (٨)

جـ :

هذا المخطوطة توجد بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠٤ (مجاميع) تيمور .

وهي عبارة عن رسالة ضمن مجموعة رسائل خطية لاحمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية .

وتبدأ من رقم ٢٩ ـ ٨٤ من المجموعة .

كتب في الصفحة الأولى منها (٢٩) عنوان الرسالة بخط نسخ كبير وفي وسط الصفحة « قاعدة جامعة في توحيد الله عز وجل ، واخلاص العمل ، والوجه له » .

وهذه المخطوطة كتبت بخط نسخ واضح إلا في بعض الكلمات القليلة ويوجد في هوامش بعض الصفحات تعليقات بخط الناسخ كما في صفحات ٦١ ، ٦٣ .

مسطرة الصفحة ١٧ سطراً في كل سطر من ٧ ـ ٩ كلمات تقريباً ومساحة الصفحة ١٢ × ١٨ سم وتشغل الكتابة منها مساحة ٩ × ١٥ سم وهذه المخطوطة : أرشد إليها الدكتور محمد السيد الجليند عند جمعه لكتابه دقائق التفسير فجزاه الله عنا وعن المنتفعين بهذا الكتاب خير الجزاء .

راجع لوحة رقم ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،

والاستعانة به وبين من العبد عبوديته ويستعين بسواه

فصل قال الله عز وجل

في اول السورة الحمد لله رب العالمين مبتدأ هذا دين
يتضمن الاسمين الله والرب والله هو الاله المعبود فهذا
الاسم احق بالعبادة ولهذا يقال الله اكبر الحمد
لله سبحان الله لا اله الا الله والرب هو المربي الخالق
الرازق الناصر الهادي وهذا الاسم احق بالاستعانة
والمسألة والمدرك يقال رب اغفر لي ولوالدي ربنا
ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن
من الخاسرين رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي
ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا ربنا لا
تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا فعامة المسألة
والاستغاثة المشروعة باسم الرب فالاسم الاول
يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له
والاسم الثاني يتضمن العبد ومبتداه وهو انه يربه ويتولاه
مع ان الثاني يدخل في الاول دخول الربوبية في
الالهية والربوبية تستلزم الالوهية ايضا والاسم

الرحمن

(٩)

لوحة رقم (٩)

تضمن

الرحمن كمال التعلق ووصف انحاله في فيه تم سعادته

في دنياه واخراه ولهذا قال وهم يكفرون بالرحمن

قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب

فذكر هنا الاسما الثلثه الرحمن وربي والاله وقال عليه

توكلت واليه متاب كما ذكر الاسماء الثلثه في ام القرآن

لكن بدا هنا باسم الله وهذا بدا في السوره باياك

نعبد فقدم الاسم وما يتعلق به من العباده لان تلك

السوره فاتحة الكتاب وام القرآن فقدم فيها المقصود

الذي هو العله الغاية فانها علة [illegible] للعلة الفاعلية

وقد بسطت هذا المعنى في مواضع في اول التفسير

وفي قاعدة المحبه والاراده وفي غير ذلك ٥

فصل ولما كان علم النفوس

بحاجتهم وفقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم الى

الاله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة

قبل الآجلة كان اقرارهم بالله من جهة ربوبيته

اسبق من اقرارهم به من جهة الوهيته وكان

الدعاء له والاستعانة والتوكل عليه فيهم اكثر من

لوحة رقم (١٠)

تحصيل مطلوبه كاستغاثة المحب بذوي المحبوب
على وصله فإذا استعين به على تحصيل مطلوبه
استعانه والا فلا فالاقسام اربعة وقد يكون محبوبا لمعنى
مستعانا وقد يكون شيئا ما غير محبوب وقد يجتمع فيه
الامران فاذا علم ان العبد لابد له في كل وقت وحال
من شيء يطلبه هو الهه ومنتهى يطلب منه هو مستعانه
وذلك هو صمده الذي يصمد اليه في استعانته وعبادته
تبين ان قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين كلام
جامع محيط اولا واخرا لا يخرج عنه شيء فصارت الاقسام
اربعة اما ان يعبد غير الله ويستعينه وان كان مسلما
فالشرك في هذه الامة اخفى من دبيب النمل واما ان
يعبده ويستعين غيره مثل كثير من اهل الدين يقصدون
طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له
وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ورزقهم
وهدايتهم من جهته من الملوك والاغنياء والمشايخ
واما ان يستعينه وان عبد غيره مثل كثير من ذوي
الاحوال وذوي القدرة والسلطان الباطن او

لوحة رقم (١١)

واهل التشتت والتابي الذي يحصونه ويعظمون
عليه ويسلونه ويلجون اليه لكن مقصودهم غير الله
الله به ونسوله وغيره اتباع دينه وشريعته التي
بعث بها رسوله والقسم الرابع الذي لا يعبدون
الا اياه ولا يستعينون الا اياه وهذا القسم الرباعي
قد ذكرنا فيما قبل ايضا لكنه تارة يكون بحسب
العبادة والاستعانه وتارة يكون بحسب المعبود المستعان
هنا هو المعبود المستعان لبيان انه لا بد لكل
عبد من معبود يستعان وانما بعد حسب عبادة الله
والاستعانة فان الناس فيها على اربعه اقسام

فصل قال الله تعالى في ام القران
والسبع المثاني والقران العظيم اياك نعبد واياك
نستعين وهذه السوره هي ام القران وهي
فاتحة الكتاب وهي السبع من المثاني والقران العظيم
وهي الشافيه وهي الواجبه في الصلوات لا صلوة الا بها
وهي الكافيه تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها
منها والصلوة افضل الاعمال وهي مولفه من كلم طيب

المطبوع :

أ ـ تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ـ وهو العلامة شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس ـ أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي .

نسخة في مجلد طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ بأولها فهرس وتقع في حوالي ١٤٠ ص ٢٤ سم رقم [٥٤٥] ١١٢٧٩ مكتبة الأزهر الشريف .

ب ـ تفسير سورة النور لابن تيمية .

نسخة ضمن مجموعة في مجلد طبع حجر بالهند سنة ١٢٩٦ هـ (من ص ١ ـ ٣١) ـ ٣١ سم رقم [١٤١٤] مجاميع (حليم ٣٢٩٠٥) بمكتبة الأزهر الشريف .

بدأها بقوله :

هذه فوائد مستنبطة من سورة النور من كلام الحافظ العلامة المجتهد الحجة المفسر ، نادرة العصر ، علم الزهاد ، أوحد العباد ، الفقيه المحدث الأصولي ، علم الأعلام ، شيخ الاسلام ، امام الأئمة ، مفتي الأمة بحر العلوم ، المنطوق منها والمفهوم، سيد الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، قريع الدهر ، علامة الزمان ، ترجمان القرآن ، قامع المبتدعين ، آخر المجتهدين ، محيي السنة، ومن عظم به الله علينا المنة ، وقامت به على اعدائه الحجة ، واستبان ببركته الحجة .

تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني أعلى الله مناره ، وشيد من الدين أركانه .

راجع لوحة رقم ١٣ ، ١٤ .

جـ ـ مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه .

جمع وترتيب الفقير إلى الله عبد الرحمن بن محمدبن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي .

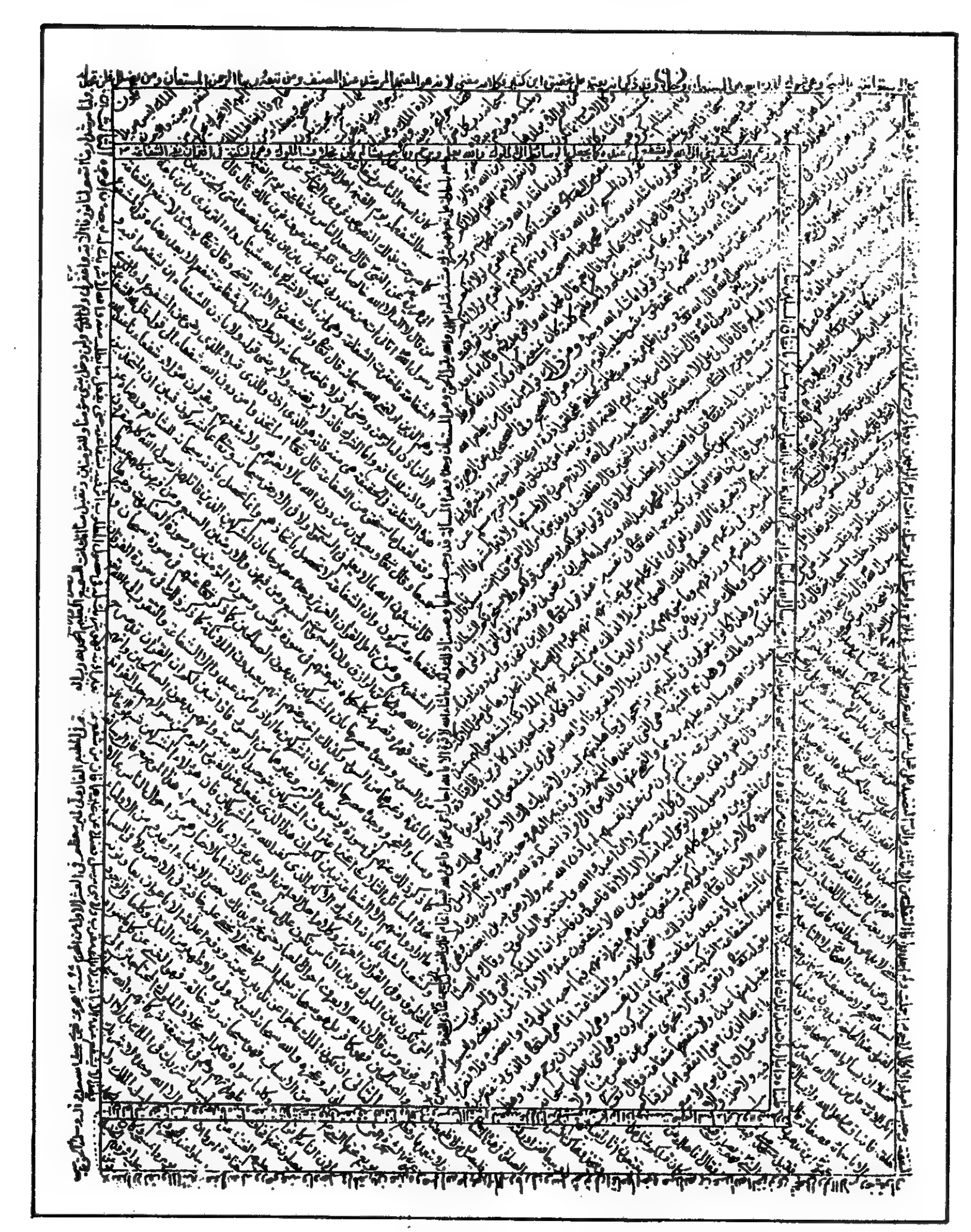
وساعده ابنه محمد ، وفقهما الله تعالى ـ الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ .

هذه فوائد مستنبطة من سورة النور من كلام الحافظ العلامة المجتهد الحجة المفسر
نادرة العصر علم الزهاد أوحد العباد الفقيه المحدث الأصولي علم الأعلام شيخ الإسلام إمام
الأئمة مفتي الأمة بحر العلوم المنطوق منها والمفهوم سيد الحفاظ فارس المعاني و
الألفاظ فريد العصر قريع الدهر علامة الزمان ترجمان القرآن قامع المبتدعين
آخر المجتهدين محيي السنة ومن عظمت به لله علينا المنة وقامت به على أعدائه
الحجة واستبانت ببركته المحجة تقي الدين أبي العباس أحمد بن
عبد الحليم بن عبد السلام الحراني أعلى الله مناره
وشيد من الدين
أركانه

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون فرضها بالبينات والتقدير والحدود التي من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه ومن قرب
من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود وبين فيها فرض العقوبة وأنه يجلد وفريضة الشهادة على الزنا وفريضة شهادة المتلاعنين كل منهما يشهد أربع شهادات
بالله ونهى فيها عن تعدي حدود الله في الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذي السلطان سواء كان في منزله أو ولايته والحرمة لا يدخل إلا بإذنه إذ الحقوق
نوعان نوع لله فلا يتعدى حدوده ونوع للعباد فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك فليس لأحد أن يفعل شيئا في حق غيره إلا بإذنه وإن لم يأذن المالك فإذن الله
هو الأصل وبإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه ولهذا ضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم وفي الأمور الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما
ووسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير وصلاح كل شيء وهو ينشأ عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء فإن حفظ الحدود بتقوى الله
يجعل لصاحبه نورا كما قال تعالى اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به الآية فضد النور الظلمة ولهذا أعقب ذكر النور وأعمال
المؤمنين بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال فقال والذين كفروا أعمالهم كسراب الآية إلى قوله أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج الآية وكذلك الظلم ظلمات
يوم القيامة وظلم العبد نفسه من الظلم فإن للسيئة ظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق كما روي ذلك
عن ابن عباس رضي الله عنهما إن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور وأعمال الكفار بالظلمة والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه
وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصي كما لا يصير مؤمنا إذا كان معه بعض فروع الإيمان ولغض البصر اختصاص
بالنور ثم ذكر حديث أبي هريرة الذي صححه الترمذي إن العبد إذا أذنب الحديث وفيه فذلك الران الذي ذكر الله وفي الصحيح إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر
الله في اليوم مائة مرة والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر ليزيل الغين فلا يكون نكتة سوداء كما أنها إذا زيلت لا تصير رينا وقال
حذيفة إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد قلبه بياضا فلو كشفتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض مشرقا وإن
النفاق يبدو في القلب لمظة سوداء فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد قلبه سوادا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدا وقال صلى الله عليه وسلم
إن النور إذا دخل في القلب انشرح وانفسح قيل فهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت
قبل نزوله وفي خطبة الإمام أحمد في الرد على الزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى

لوحة رقم (١٣)



لوحة رقم (١٤)

د : دقائق التفسير

جمع وتبويب وتحقيق الدكتور محمد الجليند والذي قام بجهد وعزيمة العلماء في هذا الكتاب حتى قدمه في الصورة المشرقة التي ظهر بها فجزاه الله خير الجزاء عن الاسلام والمسلمين ، والمنتفعين بكتابه إلى يوم الدين .

وبعد . . فلقد صاحبت ابن تيمية فترة ليست بالقليلة في عمر الزمن وتعزمت على أكثر ما دبجته براعته ، وما تفتق عنه عقله طوال فترة نضوجه العقلي في جل التخصصات المختلفة ، والتي تشمل التفسير ، والحديث ، والمنطق ، والفقه والعقيدة، وعايشت، ردوده على أولئك الذين كانوا يطلبون رأيه ومشورته أو هؤلاء الذين يختلفون معه ولهم أدلتهم وحججهم ، أو الآخرين الذين يشطحون بفكرهم بعيداً عما أنزله الله في كتابه ، أو دعى إليه الرسول ﷺ في سنته .

وكانت لنا أيضاً سياحات وقراءات في مصنفاته المخطوط منها والمطبوع وتتبعنا ما كتبه الخصوم من نقد وتجريح لآرائه ، وما قاله الأحباب والمعجبون به من مدح وتقريظ لعلمه ، ثم ما حكم به المعتدلون على فكر الرجل وعقله .

ثم كان لنا رأينا في نتاج الرجل وعلمه بعيداً عن الحب والمجاملة ، أو الخصام والمجادلة متأدبين بقول الله تعالى :

﴿ وان حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾ .

وهذا ما يراه القارىء متفرقاً في ثنايا هذا السفر الكبير ، لم تختلف بنا السبل حتى وان اختلفنا معه ، ولم يجمع بنا الهوى حتى واناتفقنا معه ـ والحمد لله على ذلك .

ثم ماذا . . ؟

إلى كل المعجبين بهذا الرجل علماً وعقلاً ، وإلى كل المختلفين معه حجة ودليلاً والشانئين له أيضاً المبغضين لحديثه يطيب لي أن أقدم هذا الكتاب ليكون معلمة على طريق الحق والنور .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

أ . د . عبد الرحمن عميرة

رئيس قسم العلوم الاسلامية بجامعة السلطان قابوس .



مقدمة التفسير

للمؤلف

الجزء الأول

وتشمل الآتي

أ - الرد على الفرق الضالة كالجهمية، والمجبرة والخوارج والنفاة .

ب - استعراض تفاسير هؤلاء وتقديم نماذج منها والـرد عليها وتفنيد باطلها .

ج - مناقشة الصوفية والباطنية والقرامطة في حقيقة العلم الباطن والعلم الظاهر .



فصل
في الفرقان [١] بين الحق والباطل

وأن الله بيِّن ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعا لكتابه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، والنبي الصادق بالمتنبيء الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين ، حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق .

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ففرق [٢] به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله .

---

(١) الفُرْق بالضم والفرقان ؛ القرآن ، وكل ما فرق به بين الحق والباطل ، والفرقان : النصر ، البرهان ، والصبح ، والتوراة وانفراق البحر ، ومنه قوله تعالى ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان ﴾ [سورة البقرة آية رقم ٥٣] ويوم الفرقان يوم بدر .

(٢) فرق بينهما فرْقاً وفرقاناً : فصل وقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ سورة الدخان آية ٤] أي يقصن وقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ [سورة الاسراء آية ١٠٦] أي فصلناه وأحكمناه ، وقوله تعالى ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ أي فلقناه ، وقوله تعالى ﴿ فالفارقات فرقا ﴾ سورة [المرسلات آية رقم ٤] أي الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل .

قال الله تعالى :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، واللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [1] .

وقال تعالى :

﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [3] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٣

وهدى : معناه أرشد أي فهدى الله أمة محمد الى الحق بأن بين لهم ما اختلف فيه من كان قبلهم . وقالت طائفة : معنى الآية أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض ، فهدى الله تعالى أمة محمد للتصديق بجميعها وقالت طائفة : إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتابين من قولهم : إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً . وقال ابن زيد ، وزيد بن أسلم من قبلتهم . فإن اليهود الى بيت المقدس ، والنصارى الى المشرق ، ومن يوم الجمعة فإن النبي ـ ﷺ قال : هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فلليهود غد وللنصارى بعد غدٍ ، وقال ابن زيد واختلفوا في عيسى فجعلته اليهود فرية ، وجعلته النصارى رباً فهدى الله المؤمنين بأن جعلوه عبداً لله .

(٢) سورة النحل آية رقم ٦٣ ـ ٦٤ .

(٣) سورة الفرقان آية رقم (١) وقيل الفرقان القرآن، وقيل : إنه اسم لكل منزل كما قال : ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان . وفي تسميته فرقاناً وجهان أحدهما لأنه فرق بين الحق والباطل ، والمؤمن والكافر. الثاني :لأن فيه بيان ما شرّع من حلال وحرام حكاه النقاش .

وقال تعالى :

﴿ الٓمٓ ، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، مِن قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (١) .

قال جماهير المفسرين : هو القرآن . روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع ابن أنس قال : هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . قال : وروي عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وروي بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ، ففرق به بين الحق والباطل (٢) ، وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحد حدوده ، وأمر بطاعته ، ونهى عن معصيته ، وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ قال : هو كتاب بحق .

و« الفرقان » مصدر فرق فرقاناً مثل الرجحان ، والكفران ، والخسران وكذلك « القرآن » هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً ومنه قوله :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٣) .

ويسمى الكلام المقروء نفسه « قرآنا » وهو كثير كما في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة ال عمران آية من ١ ـ ٤

(٢) راجع ما كتبه الامام الطبري في تفسيره ، ٢ : ٧٠ ـ ٧٢ وما كتبه القرطبي عند تفسير قوله تعالى ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ البقرة آية ٥٣ ـ ١ : ٣٩٩ ـ ٤٠٠

(٣) سورة القيامة الآيات ١٧ ـ ١٩

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٨

كما أن الكلام [1] هو اسم مصدر كلم تكليماً، وتكلم تكلماً، ويراد به الكلام نفسه ؛ وذلك لأن الإنسان اذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر، وتارة يجعل قسيماً له إذا أريد ما يتكلم به، وهو يتناول هذا وهذا، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن لفظ « الفرقان » إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل، وهذا منزل في الكتاب، فإن في الكتاب الفصل وانزال الفرق هو إنزال الفارق، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً. فهما في المعنى سواء، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل. فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن، كما جعل فيها الإيمان والعدل، وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان، والميزان قد فسر بالعدل، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل، وهو كالفرقان يفسر بالفرق، ويفسر بما يحصل به الفرق، وهما متلازمان، فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسه هو الفارق، ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى، سمي كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب، وسمي فرقاناً

---

(١) الكلام : القول أو ما كان مكتفياً بنفسه ، والكلمة : اللفظة ، والجمع : كلم ، والكلمة بالكسر لغة فيها ، والجمع كلم ككسر ، وكلمه تكليماً وكلاماً تحدث ، والكلمة : القصيدة . وكلمة الله عيسى عليه السلام .
والكلام يقع على الألفاظ المنظومة ، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة ، وعند النحاة يقع على الجزء منه ، اسماً كان أو فعلاً أو أداة ، وعند كثير من المتكلمين لا يقع على الجملة المركبة المفيدة وهو أخص من القول ، فإن القول عندهم يقع على المفردات والكلمة تقع على كل واحد من الأنواع الثلاثة ، وقد قيل بخلاف ذلك . [راجع بصائر ذوي التمييز ٤ : ٣٧٧]

باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمي هدى [1] باعتبار أنه يهدي الى الحق ، وشفاء [2] باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء « الرسول » كالمقفي ، والماحي ، والحاشر [3] ، وكذلك « أسماء الله الحسنى » [4] كالرحمن ، والرحيم ، والملك ، والحكيم ونحو ذلك .

---

(١) قال تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء رحمة للمؤمنين ﴾ سورة الاسراء آية رقم ٨٢.
اختلف العلماء في كونه شفاء على قولين : أحدهما ـ أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدارقطني عن أبي سعيد الخدري قال : بعثنا رسول الله ـ ﷺ في سرية ثلاثين راكباً قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا قال : فلدغ سيد الحي ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقي من العقرب . . ؟ في رواية ابن قته : إن الملك يموت .

قال : قلت : بغم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة قال : فقرأت عليه ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ سبع مرات فبرأ وفي رواية سليمان بن قته عن أبي سعيد ، فأفاق وبرأ فبعث إلينا بالنزل وبعث إلينا بالشاة فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبوا أن يأكلوا من الغنم حتى أتينا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته الخبر .

فقال : وما يدريك أنها رقية . . ؟ قلت يا رسول الله شيء ألقي في روعي قال : كلوا وأطعمونا من الغنم » خرجه في كتاب السنن .

(٣) روى صاحب الموطأ في ٦١ كتاب أسماء النبي ـ ﷺ (١) باب أسماء النبي .
حدثني مالك عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، أن النبي ـ ﷺ ـ قال : لي خمسة أسماء . أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » قال ابن عبد البر : كذا أرسله يحيى وأكثر الرواة .
ورواه البخاري في كتاب المناقب ١٧ والتفسير سورة ٦١ والترمذي في الأدب ٦٧ والإمام أحمد بن حنبل ٤ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ (حلبي)

(٤) في الحديث المتواتر قوله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل =

والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات وان كان المسمى واحداً كقوله :

﴿ سَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (١) ،

وقوله :

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ (٢)

ونحو ذلك .

وهنا ذكر أنه نزل الكتاب ، فإنه نزله متفرقاً ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر أنه أنزل الفرقان ، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب ، وأنزل الميزان ، والإيمان . و« الميزان » (٣) مما يحصل به الفرقان أيضا ، كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان ونظير هذا قوله :

= الجنة » . وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ . سورة الأعراف آية رقم ١٨٠ .

(١) سورة الأعلى الآيات من ١ ـ ٣

(٢) سورة الحديد آية رقم ٣

(٣) الميزان : القبان والقسطاس وقوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان ﴾[سوره الرحمن آية ٧ ، ٨] قيل أراد بالميزان العدل ، أي لا تجاوزوا العدل ، قال الحسن وقتادة ، والضحاك أراد به الذي يوزن به ليوصل به الى الانصاف والانتصاف ، ولا تخسروا الميزان ، أي لا تطففوا في الكيل والوزن .

وقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ فقد قيل هو المعادن كالذهب والفضة ، وقيل : بل إشارة الى كل ما أوجده الله فإنه خلقه باعتدال كما قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[سورة القمر آية ٤٩]

وقوله تعالى ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ إشارة الى العدل في محاسبة الناس كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ . [سورة الأنبياء آية رقم ٤٧] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْراً ﴾ [1] .

قيل: الفرقان هو التوراة ، وقيل : هو الحكم بنصره على فرعون ، كما في قوله :

﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ ﴾ [2]

وكذلك قوله :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [3]

قيل : « النور » هو محمد عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو الإسلام وقوله :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ [4]

قيل : « البرهان » هو محمد . وقيل : هو الحجة والدليل . وقيل القرآن والحجة والدليل تتناول الآيات التي بعث بها محمد ﷺ ؛ لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم ، وهنا قال : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ جاء بلفظ الإنزال ؛ فلهذا شاع بينهم أن القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء .

وهذا كقوله في القرآن في قوله :

﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ الْتقى

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٤٨

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٥

(٤) سورة النساء آية رقم ١٧٤

الجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1]

قال الوالبي عن ابن عباس « يوم الفرقان » يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل .

قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان ونحو ذلك ، وبذلك فسر أكثرهم :

﴿ إن تَتَّقُوا الله يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [2] كما في قوله :
﴿ وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً ﴾ [3]

أي : من كل ما ضاق على الناس . قال الوالبي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن تَتَّقُوا الله يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ أي مخرجاً.

قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان كذلك ، غير أن مجاهداً قال مخرجاً في الدنيا والآخرة وروي عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً . قال : وفي آخر ، قول ابن عباس والسدي نجاة .

وعن عروة بن الزبير [4] ﴿ يجعل لكم فرقانا ﴾ أي : فصلا بين الحق

= عن الثوري : هو محمد - ﷺ وسماه برهاناً لأن معه البرهان وهو المعجزة ، وقال مجاهد : البرهان ههنا الحجة ، والمعنى متقارب ، فإن المعجزات حجته - ﷺ - والنور المنزل هو القرآن ، عن الحسن ، وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة ، فهو نور مبين ، أي واضح بين .

(١) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٢٩

(٣) سورة الطلاق آية رقم ٢

(٤) هو : عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان عالماً بالدين ، صالحاً كريماً لم يدخل في شيء من الفتن ، وانتقل الى البصرة ثم الى مصر ، فتزوج وأقام بها سبع سنين ، وعاد الى المدينة فتوفي فيها عام ٩ هـ وهو أخو عبد الله بن

والباطل ، يظهر الله به حقكم ويطفىء به باطل من خالفكم ، وذكر البغوي عن مقاتل بن حيان قال : مخرجاً في الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان ، كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، والضحاك وابن قتيبة : أنهم قالوا هو المخرج . ثم قال : والمعنى يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال ، وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله :﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لهُ مَخْرَجاً ﴾ (١) والفرقان المذكور في قوله : ﴿ ومَا أنزلْنَا علَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ (٢) وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال : هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان ، والنصر والنجاة هما نوعا « الظهور » في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٣) .

يظهره بالبيان والجنة والبرهان ويظهر باليد والعز والسنان . وكذلك « السلطان » في قوله :

﴿ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ (٤)

فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله :

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشرِكُونَ ﴾ (٥)

= الزبير لأبيه وأمه ، وبئر عروة بالمدينة منسوبة إليه [راجع ابن خلكان ١ : ٣١٦ وصفة الصفوة ٢ : ٤٧ وفيه وفاته سنة ٩٤ هـ وحلية الأولياء ٢ : ١٧٦] .

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٤١

(٣) سورة التوبة آية رقم ٣٣

(٤) سورة الاسراء آية رقم ٨٠

(٥) سورة الروم آية رقم ٣٥

وقوله :

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ (1) .

وقوله :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ (2)

وقد فسر « السلطان » بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحجة والبيان فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ . يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (3) .

ففرق بين الحق والباطل ، بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث ، أحل هذا وحرم هذا .

---

(1) سورة غافر آية رقم ٥٦ .

(2) سورة النجم آية رقم ٢٣

(3) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ ـ ١٥٧

﴿ فسأكتبها للذين يتقونَ ﴾ فقالت اليهود والنصارى : نحن متقون فقال الله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ فخرجت الآية عن العموم والحمد لله .

وروى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة » .

ومن « الفرقان » أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات ، وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات .
قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [1] .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [2]

وقال تعالى :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ﴾ [3]

وقال تعالى :

﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى والأَصَمِّ ، وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ [4]

وقال تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [5]

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢١

(٢) سورة ص آية رقم ٢٨

(٣) سورة القلم آية رقم ٣٥ - ٣٦

(٤) سورة هود آية رقم ٢٤

(٥) سورة الزمر آية رقم ٩ .

وقال تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ من فِي القُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ ﴾ (٣)

فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول ، والمعصية لله والرسول ، كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه . وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز

---

(١) سورة فاطر الآيات ١٩ ـ ٢٤ ، والحرور شدة الشمس ، قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ـ والسموم يكون بالليل ، وقيل عكسه ، وقال رؤبة بن العجاج : الحرور يكون بالليل خاصة ، والسموم يكون بالنهار خاصة ، وقال الفراء : السموم لا يكون إلا بالنهار ، والحرور يكون فيها ، قال النحاس ، وهذا أصح وقال قطرب : الحرور : الحر ، والظل : البرد ، وقال الكلبي : أراد بالظل الجنة ، وبالحرور النار ، وقال عطاء : يعني ظل الليل وشمس النهار ، قيل : وإنما جمع الظلمات وأفرد النور ، لتعدد فتون الباطل واتحاد الحق والله أعلم .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٨

أن يسوي بين الخالق والمخلوق في شيء ، فيجعل المخلوق نداً للخالق . قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾ [1] .

وقال تعالى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [2] ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدُ ﴾ [3] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [4]

وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق ، بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه ، كما قالوا - وهم في النار يصطرخون فيها - [5] ﴿ تا لله إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [6] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُون ؟ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لَا تُحْصُوهَا . إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَالله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُون ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ ﴾ [7]

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٦٥

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٥

(٣) سورة الصمد آية رقم ٤

(٤) سورة الشورى آية رقم ١١

(٥) سورة فاطر آية رقم ٣٧ وهي محرفة وصحتها « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً » .

(٦) سورة الشعراء آية رقم ٩٧ - ٩٨ .

(٧) سورة النحل الآيات من ١٧ - ٢١

فهو سبحانه الخالق العليم ، الحق الحي الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئاً . كما قال :

﴿ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوْا ذُبَاباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوْا لَهُ ، وَإن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ ، مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) .

وهذا مثل ضربه الله ، فإن الذباب من أصغر الموجودات ، وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ، ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم فهم عن خلق غيره ، وعن مغالبته أعجز وأعجز .

« والمثل » هو الأصل والنظير المشبه به ، كما قال :

« المثل وما يراد به في القرآن »

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٢)

أي لما جعلوه نظيرا قاسوا عليه آلهتهم ، وقالوا : إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا ، فضربوه مثلا لآلهتهم ، وجعلوا يصدون أي يضجون

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٣
والذباب : اسم واحد للذكر والأنثى ، والجمع القليل أذبَّة والكثير ذبان على مثل غراب وأغربة وغربان ، وسمي به لكثرة حركته ـ الجوهري والذباب معروف الواحدة ذبابة ، ولا تقل ذبانة ، والمذبة ما يذب به الذباب ، وذباب أسنان الابل ؛ حدها ، وذباب السيف طرفه الذي يضرب به ، وذباب العين : إنسانها ، والذبابة البقية من الدين ، وذبب النهار : إذا لم يبق منه إلا بقية ، والتذبذب التحرك ، والذبذبة : نوس الشيء المعلق في الهواء والذبذب الذكر لتردده ، وفي الحديث : من وقى شر ذبذبة .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٧ .

ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهـر كما بينـه في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ (١)

وقال في فرعون :

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ ﴾ (٢)

أي مثلا يعتبر به ويقاس عليه غيره فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزائه : ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٣)

وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية ، التي يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلة كما قال :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٤)

فمن كـان من أهـل الإيمـان قيس بهم ، وعلم أن الله يسعـده في الـدنيـا والآخـرة ، ومن كان من أهـل الكفر قيس بهم ، وعلم أن الله يشقيـه في الدنيـا والآخرة ، كما قال في حق هؤلاء :

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٠١

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٦ وقد جاءت الآية محرفـة في المطبـوعة حيث ذكرت « وجعلنـاهم » بدلا من (فجعلناهم)

(٣) سورة النور آية رقم ٣٤

(٤) سورة يوسف آية رقم ١١١

(٥) سورة القمر آية رقم ٤٣

وقد قال :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ ﴾ (١)

وقال في حق المؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوْا مِنكُمْ وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (٢)

وقال :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لن نقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣٧

(٢) سورة النور آية رقم ٥٥

ويقال : نزلت هذه الآية في أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ، قال مالك وقيل : إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي ـ ﷺ شكا جهد مكافحة العدو وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم ،وأنهم لا يضعون أسلحتهم . فنزلت هذه الآية ،وقال أبو العالية . مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفاً هو وأصحابه ، يدعون الله سراً وجهراً ثم أمر بالهجرة الى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح فقال رجل : يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح . . ؟

فقال عليه السلام : لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس عليه حديدة » ونزلت هذه الآية .

وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . قال النحاس فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله ـ ﷺ ـ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد .

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧ ـ ٨٨

وقال في قصة أيوب :

﴿ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (١)

﴿ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) وقال ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٣)

وقال :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٤) وقال ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٥)

فلفظ « المثل » يراد به النظير الذي يقاس عليه ويعتبر به ، ويراد به مجموع القياس .

قال سبحانه : ـ

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٤

(٢) سورة ص آية رقم ٤٣

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٠

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٤

(٥) سورة هود آية رقم ١٢٠

(٦) سورة يس آية رقم ٧٨

قال المفسرون : إن أبي بن خلف أتى النبي ـ ﷺ بعظم حائل قد بلى فقال : يا محمد . أترى الله يحيي هذه بعد ما قد رم . . ؟ فقال : نعم ويبعثك ويدخلك النار ، فأنزل الله تعالى هذه الآية =

أي لا أحـد يحييها وهي رميم . فمثـل الخالق بـالمخلوق في هـذا النفي ، فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحيائها ، سواء نظمه في قياس تمثيـل أو قياس شمـول ، كما قـد بسط الكلام عـلى هذا في غـير هذا المـوضع . وبـين أن معنى القياسين قياس الشمول وقياس التمثيل [واحـد] - والمثل المضـروب المذكـور في القرآن - فإذا قلت : النبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله ﷺ : « كل مسكر حرام » (١) فهو كقوله ﷺ قياسـا على الخمـر ، لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسكار وهو موجود في النبيد فقولـه ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ (٢)

جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلا ونـظيراً يعتبـر به . فـإذا كان أدون خلق الله لا يقـدرون على خلقـه ولا منازعتـه فلا يقـدرون على خلق مـا سواه . فيعلم بها من عظمـة الخالق وأن كل ما يعبدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدرون على ما هـو أصغر مخلوقاته. وقـد قيل : إنهم جعلوا آلهتهم مثـلا لله

= وقال الإمام الواحدي : أخبرنا سعيد بن محمد بن جعفـر ، قال : أخبـرنا أبـو علي بن أبي بكـر الفقيه ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن الجنيـد ، قال : حـدثنا زيـاد بن أيوب ، قـال : حدثنـا هشيم ، قال : حدثنا حصين عن أبي مالك : وذكره .

(١) الحديث أخرجه الامام مـسلم فـي كتاب الأشربة ٧ بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام ٧٣ (٢٠٠٣) حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر ، قـال رسول الله - ﷺ وذكره وفيه زيادة [ومن شرب الخمـر في الدنيـا فمات وهـو يدمنهـا لم يتب لم يشربهـا في الآخرة] ورواه صاحب الموطأ في جزء من حديث من كتاب الضحـايا ٤ بـاب ادخار لحـوم الأضاحي ٨ - وحدثني عن مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري وفيه « ونهيتكم عن الانتباذ فانتبذوا ، وكل مسكر حرام الخ . . »

ورواه ابن ماجه في كتاب الأشربـة ٩ باب كـل مسكر حـرام ٣٣٨٧ بسنده عن عبـد الله بن عمر يحدث عن أبيه وذكره . ورواه أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠ (حلبي)

(٢) سـورة الحج آيـة رقم ٧٣ والآية متصلة بقـولـه تعـالى ﴿ ويعبـدون من دون الله مـا لم ينـزل بـه سلطاناً ﴾ ، وإنما قال « ضرب مثل » لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب الى افهامهم .

فاستمعوا لذكرها [1] ؛ وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل .

ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ، ويجعل له نداً ومثلا كقوله : ـ

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : الله ، فَقُلْ : أَفَلاَ تَتَّقُونَ ؟ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . قُلْ : هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ الله يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ قُلْ : هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ . أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ؟ أَمَّن لاَ يَهدي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [2]

---

(١) قاله الأخفش : ليس ثم مثل ، وإنما المعنى ضربوا لله مثلاً فاستمعوا قولهم يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره فكأنه قال جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا التشبيه .

(٢) سورة يونس الآياب من رقم ٣١ ـ ٣٦

ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما في هذه الآية وكذلك أيضاً مقابلة الحق بالباطل عرف لغة وشرعاً قال الله تعالى : **﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾** .

والضلال حقيقته الذهاب عن الحق أخذ من ضلال الطريق ، وهو العدول عن سمته .

قال ابن عرفه : الضلال عند العرب سلوك غير سبيل القصد يقال : ضل عن الطريق ، وأضل الشيء إذا أضاعه ، وخص في الشرع بالعبارة في العدول عن السداد في الاعتقاد دون الأعمال .

ومن غريب أمره أنه يعبر به عن عدم المعرفة بالحق سبحانه إذا قابله غفلة ، ولم يقترن بعدمه جهل أو شك وعليه حمل العلماء قوله تعالى : **﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾** أي غافلاً في أحد التأويلات يحققه قوله تعالى : **﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾** .

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ ، وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ،أَمْ يَقُـولُونَ افْتَـرَاهُ قُلْ فَـأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؛ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (١)

وهؤلاء مثلوا المخلوق بـالخـالق ، وهــذا من تكـذيبهم إيـاه ، ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله في كل شيء ، بل كانوا يؤمنون بـأن الله هو الخالق المالك لهم ، وهم مخلوقون مملوكون له ، ولكن كانوا يسوون بينه وبينها في المحبة والتعظيم ، والدعاء والعبادة ، والنذر لها ونحو ذلك مما يخص بـه الرب ، فمن عدل بالله غيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك ، بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده ، وخضوعـه له خـوفاً من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

(١) سورة يونس ٣٧ ـ ٣٩

قيل للحسين بن فضل : هل تجد في القرآن « من جهل شيئاً عاداه قال : نعم . في موضعين « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » وقوله ﴿ واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ .

فصل
الله يفرق بين الأمور المختلفة ويجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة ، فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله ، لا يفرق بين متماثلين ، ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين ؛ بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسو بينهما .

ولفظ « الاختلاف » (١) في القرآن يراد به التضاد والتعارض ؛ لا يراد به مجرد عدم التماثل - كما هو اصطلاح كثير من النظار ، ومنه قوله :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٢) وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ (٣) وقوله : ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَن كَفَرَ﴾ (٤) وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل

(١) الاختلاف والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، والخلاف أعم من الضد ، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين ، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة ، قال تعالى : ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾[سورة مريم ٣٧ والزخرف ٦٥]

وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب ﴾ سورة البقرة آية ١٧٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢

(٣) سورة الذاريات آية رقم ٨ - ٩

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣

ولا تتحول في غير موضع ؛ و« السنة »[1] هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه ، كما قال ابن عباس : هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان ؟ فإذا قال : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[3]

وقال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثل جزائهم ، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ؟ وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء قال تعالى : -

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[4]

وقال تعالى :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . وَإِذاً لَا يَلْبَثُون خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً . سُنَّةَ مَن قَد أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا ، وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[5] .

---

(١) الأصل فيها الطريقة والسيرة ، ومنه قوله ﷺ « من سن سنة حسنة » أي طرّق طريقة حسنة ، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر النبي - ﷺ به أو نهى عنه ، أو ندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكلام العزيز ولهذا يقال : أدلة الشرع الكتاب والسنة : أي القرآن والحديث وفلان متسنن : أي عامل بالسنة .
وسنة النبي - ﷺ : أي طريقته التي كان يتحراها وسنة الله قد يقال لطريقه وحكمته ، وطريق طاعته . قال تعالى ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ فاطر آية ٤٣

(٢) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٣) سورة الحشر آية رقم ٢ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٣٧ .

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٧٦ - ٧٧

وقال تعالى :

﴿ لَئِن لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ ،- وَالذِينَ فِي قُلُوبِهم مَرَضٌ ، والْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ : لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ، سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ [1] .

وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب ، وظهور الإسلام ، وذل المنافقين ، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك ، قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها ، فأخفوا النفاق وكتموه ، فلهذا لم يقتلهم النبي ﷺ .

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة . ويقول : إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية . بقوله :-

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ! سُنَّةَ الله ، في الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ [2] قال قتادة : ذكر لنا أن المنافقين

---

(1) سورة الأحزاب آية رقم ٦٠ - ٦٢ .

قال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به ، وقيل تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض- أي تحركت وتزلزلت- ترجف رجفاً والرجفان : الاضطراب الشديد ، والرجاف : الحر ، سمي به لاضطرابه قال الشاعر :

المطعمون اللحم كل عشية ... حتى تغيب الشمس في الرَّجاف

والإرجاف : واحد أراجيف الأخبار ، وقد أرجفوا في الشيء أي خاضوا فيه قال الشاعر :

فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالاسلام باغ وحاسد

وقال آخر :

أَبِالأراجيف يابن اللؤم توعدني ... وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذاية . فدلت الآية على تحريم الايذاء بالإرجاف -

(2) سورة الأحزاب آية رقم - ٦١ - ٦٢ .

كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق ، فأوعدهم الله بهذه الآية ، فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه . ﴿ سُنَّةَ الله في الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾

يقول : هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق . قال مقاتل بن حيان : قوله : ـ

﴿ سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ (1)

يعني كما قتل أهل بدر وأسروا فقد قوله : ﴿ سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ . قال السدي : كان النفاق على « ثلاثة أوجه »

« نفاق » مثل نفاق عبد الله بن أبي (2) ، وعبد الله بن نفيل ، ومالك بن داعس . فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار ، فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال : الزناة . إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه و« نفاق » يكابرون النساء مكابرة . وهؤلاء هم الذين يجلسون على الطريق . ثم قال : « ملعونين » ثم فصلت الآية « أينما ثقفوا » يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدي : هذا حكم في القرآن ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على أمرها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم . أن يؤخذوا فتضرب

---

(1) سورة الأحزاب آية رقم ٦٢

(2) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي أبو الحباب المشهور بابن سلول ، وسلول جدته لأبيه ، من خزاعة رأس المنافقين في الإسلام ، من أهل المدينة ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم ، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية مات عام ٩ هـ وتقدم النبي ـ ﷺ ـ فصلى عليه ـ ولم يكن ذلك من رأي عمر ـ رضي الله عنه فنزلت ﴿ ولا تصل على أحد منهم الآية ﴾ وكان عملاقاً يركب الفرس فتخط ابهامه في الأرض . راجع تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠ وامتاع الأسماع ١ : ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٢٠ ، ١٦٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ،والمحبر٢٢٣ ، وطبقات ابن سعد ، القسم الثاني من الجزء الثالث ٩٠ وجمهرة أنساب العرب ٣٣٥

أعناقهم . قال السدي : قوله : « سنة » كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم . قال : فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت : هذا على وجهين :

« أحدهما » أن يقتل دفعاً لصوله عنها ، مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله : « من قتل دون حرمته فهو شهيد » [1] وهذه لها أن تدفعه بالقتل . لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل . وفيه قضيتان عن عمر وعلي معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرها ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان : « أحدهما » أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال ؛ وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا . قال السدي : قد قاله غيره . وذكر أبو اللوبي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين .

و « الثاني » أن لا يكونوا ذوي شوكة ، بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالا ، حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها فهذا المحارب عيلة كما قال السدي . يقتل أيضا وإن كانوا جماعة في المصر ، فهم كالمحاربين في المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الديات ٢٠ باب ما جاء من قتل دون ماله فهو شهيد ١٤٤٣ - حدثنا عبد بن حميد أخبرني يعقوب بن سعد ، حدثنا أبي عن أبيه عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ، عن طلحة بن عبد الله بن عوف ، عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح، وهكذا روى غير واحد عن ابراهيم بن سعد نحو هذا ، ويعقوب هو ابن ابراهيم بن سعد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري .

وأخرجه أبو داود في السنة ٢٩ والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ (حلبي)

و« المقصود » أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول ، وسنته عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي ، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة . ولهذا قال : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِن أُولَئِكُمْ ﴾ [1] ؟

وقال ﴿ احْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [2] أي أشباههم ونظراءهم . وقال : ﴿ وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [3] قرن النظير بنظيره .

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾[4]

وقال :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ . وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً ﴾ [5]

وقال :

﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جناتٍ تَجْرِي من تَحْتَها الأَنهارُ ، خَالدِين فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[6] .

(١) سورة القمر آية رقم ٤٣

(٢) سورة الصافات آية رقم ٢٢

(٣) سورة التكوير آية رقم ٧

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢١٤

(٥) سوره الممتحنة آية رقم ٤

(٦) سورة التوبة آية رقم ١٠٠

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى : ـ

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ـ

﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ ، رَبَّنَا اغْفِر لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ـ

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٣) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم ، وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » (٤) .

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٧٥

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٠

(٣) سورة الجمعة آية رقم ٣

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ٩ ، وفي فضائل أصحاب النبي ـ ﷺ ـ (١) وفي كتاب الرقاق ٧ وكتاب الايمان ١٠ ، ٢٧ ورواه ابن ماجه في كتاب الأحكام ٢٧ باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٦٢ ٢٣ ـ حدثنا جرير عن منصور عن ابراهيم ، عن عبيدة السلماني قال : قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سئل أي الناس خير . . ؟ قال : وذكره ورواه الترمذي في أبواب القدر ٣٩ باب ما جاء في القرن الثالث ٢٣٢٢ ـ عن قتادة عن زرارة بن أوفى ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره وفيه « ثم ينشأ أقوام يشهدون =

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله ، كالتفسير وأصول الدين وفروعه ، والزهد ، والعبادة ، والأخلاق ، والجهاد وغير ذلك ، فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة . فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم - فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم ، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه ، قال تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إِن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (١) .

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ، ولا لهم خبرة بأقوالهم ، وأفعالهم ، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ويعملون به ، لا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك ، من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونه من الإجماع ، وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ، ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين ؛ طائفة أو طائفتين

= ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤمنون ويفشو فيهم السمن » . هذا حديث حسن صحيح .

ورواه الامام أحمد في المسند ١ : ٣٧٨ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٢ : ٢٢٨ ، ٤١٠ (حلبي) .

(١) سورة النساء آية رقم ٥٩

أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف ، والأول كثير في « مسائل أصول الدين وفروعه » كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، [1] ، يحكون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم ، كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ؛ مثل مسألة القرآن والرؤ ية والقدر وغير ذلك .

وهم إذ ذكروا إجماع المسلمين لم يكن لهم علم بهذا الإجماع ، فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به ؛ لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع بخلاف السلف فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً . وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً ، لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد اجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج [2] والرافضة [3]

---

(١) راجع في ذلك كتاب « شرح المقاصد » لسعد الدين التفتازاني بتحقيقنا « طبع المكتبات الأزهرية » . وكتاب « المواقف » لعضد الدين الايجي . أو كتاب « العقائد النسفية وذلك كثير يملأ جانباً مهماً من المكتبة العربية والاسلامية .

(٢) الخوارج جمع خارج ، وهو الذي خلع طاعة الامام الحق ، وأعلن عصيانه ، وألب عليه بعد أن يكون له تأويل ، وعلماء الشريعة يسمونهم « بغاة » وأما النواصب فجمع ناصب ، وقد يقال ناصبي - وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ، وأما الحرورية فنسبة الى حروراء - قرية أو كورة بظاهر الكوفة ، وأما الشراة - بضم الشين فجمع شار ، مثل قضاة وقاض وقد سموا أنفسهم بهذا الاسم وزعموا أنهم شروا أنفسهم من الله . راجع (مقالات الاسلاميين للاشعري ١ : ١٥٦] وما بعدها وخطط المقريزي ٢ : ٣٥٢ وما يليها . بولاق ، والبدء والتاريخ ٥ : ١٣٤ والتبصير ص ٢٦ وما بعدها والفرق بين الفرق ٧٢ وما بعدها .

(٣) الروافض : فإن السبئية منهم أظهروا بدعتهم في زمان علي - رضي الله عنه فقال بعضهم لعلي أنت الاله ، فأحرق علي قوماً منهم ، ونفى ابن سبأ الى ساباط المدائن ، وهذه الفرقة ليست من =

والقدرية [1] والمرجئة [2] ، ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة ، المعلومة وإجماع الصحابة .

بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فإنه لا يمكن أن يقال : إنه خلاف الإجماع وإنما يرد النص ، وإذا قيل : قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع ، فمثل هذا مبني على مقدمتين :

« إحداهما » العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر وهذا متعذر .

« الثانية » إن مثل هذا هل يرفع النزاع مشهور فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة ، إذ على خلافه ، ونزاع المتأخرين لا يمكن لأن كثيرا منه قد تقدم الإجماع على خلافه ، كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً .

و« أيضاً » فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه ، وقد بسطنا في غير هذا الموضع أن

= فرق الاسلام متسمبتهم علياً إلهاً ثم افترقت الرافضة بعد زمان علي ـ رضي الله عنه ـ أربعة أصناف زيدية وإمامية وكيسانية وغلاة ، وافترقت الزيدية فرقاً ، والامامية فرقاً والغلاة فرقاً .
[راجع الفرق بين الفرق ٢٩ ، ومروج الذهب ٣ . ٢٢٠ ومقالات الاسلاميين ١ : ١٣٢]

(١) حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، والجعد بن درهم ، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم .

(٢) المرجئة : ثلاثة أصناف . صنف منهم قالوا بالإرجاء في الايمان وبالقدر على مذهب القدرية . وصنف منهم قالوا بالارجاء في الايمان ومالوا الى قول جهم في الأعمال والاكساب ، وصنف منهم خالصة في الارجاء من غير قدر وهم خمس فرق .

الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا في جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها ـ

والله سبحانه أعلم

فصل

ما جاء من التفسير عن الرسول هو الأحق بالامتثال

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : « الأسماء ثلاثة أنواع . نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[1] وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين

---

(١) سورة النساء آية ١٩ .

وأمر الله سبحانه وتعالى بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون أدمة ما بينهم وصحبتهم على الكمال ، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش ، وهذا واجب على الزوج ، ولا يلزمه في القضاء وقال بعضهم : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له ، قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي : أتيت محمد بن الحنفية فخرج إليَّ في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية . فقلت : ما هذا . . ؟

قال : إن هذه الملحفة ألقتها عليَّ امرأتي ودهنتني بالطيب وانهن يشتهين منا ما نشتهيه منهن . وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ إني أحب أن أتزين لامرأتي لما أحب أن تتزين المرأة لي . قال ابن عطية والى معنى الآية ينظر قول النبي ـ ﷺ : فاستمتع بها وفيها عوج » أي لا يكن منك سوء عشرة مع اعوجاجها .

الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن . لا برأيه ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم : فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن، فلا يستطيع أن يزيفه إلى هواه ، ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ، ولم يمل كغيره من الكلام ، ولا تنقضي عجائبه [١] ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم [٢] .

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ،ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل فضلا عن أن يقول : فيجب تقديم العقل . والنقل ـ يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين ـ إما أن يغوص وإما أن يؤول ، ولا فيهم من يقول : إن له ذوقاً أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث . فضلاً عن أن يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك

---

(١) عند القرطبي (بزيادة) وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا »

(٢) أسند عن الحارث عن علي ـ رضي الله عنه ـ وخرجه الترمذي » والحارث : رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء ، ولم يبن من الحارث كذب وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا ـ والله أعلم ـ كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب الى تفضيل أبي بكر وعمر ولأن أبا بكر أول من أسلم ـ قال أبو عمر بن عبد البر : وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين » . [راجع تفسير القرطبي ١ : ٤ ، ٥]

المعـدن علم التوحيـد ، والأنبياء كلهم يـأخذون عن مشكـاته [1] . أو يقـول : الولي أفضل من النبي ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فإن هـذه الأقوال لم تكن حدثت بعد في المسلمـين ، وإنما يعـرف مثل هـذه إما عن مـلاحدة اليهـود والنصارى ، فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضـل من النبي كما قـد يقولـه في الحواريين [2] فإنهم عندهم رسل ، وهم يقولـون : أفضل من داود وسليمـان ، بل ومن إبراهيم وموسى وإن سموهم أنبياء ، إلى أمثال هذه الأمور .

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسـرها وتنسخهـا ،

---

(١) المشكاة : الكوة التي ليست بنافذة .

(٢) أصل الحور في اللغة : البياض ، وحـورت الثياب بيضتهـا ، والحواري من الـطعام مـا حور أي بيض ، وأحور أبيض ، والجفنة المحورة المبيضة بالسنام ، والحواري أيضاً النـاصر . قـال رسول الله ـ ﷺ « لكل نبي حواري وحواريي الزبير » والحواريات : النساء لبياضهن وقال :

فقل للحواريات يبكين غيرنا ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

والحـواريون : أصحـاب عيسى عليه السـلام ، وكانـوا اثني عشر رجـلاً قالـه الكلبي وأبـو وراق . واختلف في تسميتهم بـذلك . فقـال ابن عباس رضي الله عنـه ـ سموا بـذلـك لبيـاض ثيـابهم ، وكانـوا صيادين . وقـال ابن أبي نجيح وابن أرطـأة : كانـوا قصـارين فسمـوا بـذلـك لتبيضهم الثيـاب وقال عـطاء : أسلمت مريم الى أعمـال شتى ، وآخر مـا دفعته الى الحـواريـين وكانوا قصارين وصباغين . فأراد معلم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندي ثياب كثيـرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فـاصبغها ـ فـطبخ عيسى حُبـاً واحداً وأدخله جميـع الثياب وقـال : كـوني بإذن الله عـلى ما أريـد منك فقـدم الحواري والثيـاب كلها في الحُبِّ فلما رآها قـال : قـد أفسدتها ، فأخرج عيسى ثوباً أحمر وأصفر وأخضر الى غير ذلـك مما كـان على كـل ثوب مكتـوب عـليه صبـغة فعجب الحـواري ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به فهم الحـواريون وقال قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خـاصة الأنبيـاء ، وقيل كـانوا ملوكـاً ، وذلك أن الملك صنع طعاماً فدعا الناس اليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص فقال الملك له : من أنت . . ؟ قال : عيسى ابن مريم . قال : إني أترك ملكي هـذا وأتبعك فـانطلق بمن اتبعـه معه فهم الحـواريون .

أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها ، فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخا لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها ، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية ، بل قد لا يفهم منها ، وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والإفهام نسخا ، [و] هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم .

وأصل ذلك [من إلقاء] الشيطان ، ثم يحكم الله آياته [1] ، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه ، سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخا ، كما سموا قوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [2] ناسخا لقوله : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [3] وقوله ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [4] ناسخا لقوله : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [5] وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه . إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لا رأي ، ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

(أسباب بدع الخوارج)

وكانت البدع الأولى مثل « بدعة الخوارج » إنما هي من سوء فهمهم

---

(١) قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ . سورة الحج آية رقم ٥٢
[راجع ما كتبه الامام القرطبي على هذه الآية ١٢ : ٧٩ - ٨٦]

(٢) سورة التغابن آية رقم ١٦

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤

للقرآن ، لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه . فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب [1] ، إذ كان المؤمن هو البر التقي . قالوا : فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار . ثم قالوا : وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله فكانت بدعتهم لها مقدمتان :

« الواحدة » أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر .
« والثانية » أن عثمان وعليا ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإن أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم . قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ؛ ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن تكون بدعته معارضة القرآن ، والإعراض،

---

(١) قال صاحب كتاب الفرق بين الفرق : وقد اختلفوا فيما يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها ، فذكر الكعبي في مقالاته : أن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبها ـ إكفار علي وعثمان والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضي بتحكيم الحكمين ، والاكفار بارتكاب الذنوب ، ووجوب الخروج على الامام الجائر .
وقال شيخنا أبو الحسن : الذي يجمعها إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل ، والحكمين ، ومن رضي بالتحكيم ، وصوَّب الحكمين أو أحدهما والخروج على السلطان الجائر ، ولم يرض ما حكاه الكعبي من إجماعهم على تكفير مرتكبي الذنوب . والصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنهم وقد أخطأ الكعبي في دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبي الذنوب منهم وذلك أن النجدات من الخوارج لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم . وقد قال قوم من الخوارج إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص ، فأما الذي فيه حد أو وعيد في القرآن فلا يراد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه .
وقد قالت النجدات : إن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة وليس فيه كفر دين . [راجع الفرق بين الفرق ص ٧٣]

عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين ، كالجهمية ؟؟ ثم « الشيعة » لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين ؛ بل كان غرضه فاسدا ؛ وقد قيل إنه كان منافقا زنديقا ، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول الله ﷺ ، وتكذيب الأحاديث الصحيحة ، ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم ، بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب .

« الشيعة واصطناع الكذب »

« والشيعة » لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أصل الصحيح ، فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث عليّ إلا عن أهل بيته كأولاده ، مثل الحسن ، والحسين ، ومثل محمد ابن الحنفية، وكاتبه عبيد الله بن أبي رافع ، أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم ، مثل عبيدة السلماني ، والحارث التيمي ، وقيس بن عباد وأمثالهم ، إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن عليّ ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

« نشأة الخوارج والشيعة وضلالهم »

وهاتان الطائفتان « الخوارج والشيعة » حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم ، فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه ، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء [1] ، فكف عنهم أمير المؤمنين ،

---

(١) يقال : هم يومئذ اثنا عشر ألفاً ، وزعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء وشبث بن ربعي ، وخرج إليهم علي يناظرهم فوضحت حجته عليهم فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان وانحاز الباقون منهم الى النهروان وأمروا على أنفسهم رجلين ، أحدهما : عبد الله بن وهب الراسبي =

وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفيء ، ولا نمنعكم المساجد ، إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن خباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ، فعلم علي أنهم الطائفة التي ذكرها رسول الله ﷺ حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » وفي رواية : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان » (1) فخطب الناس

= والآخر : حرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدية والتقوا في طريقهم الى نهروان برجل رأوه يهرب منهم ، فأحاطوا به وقالوا : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب بن الأرت ، فقالوا له : حدثنا حديثا سمعته عن أبيك عن رسول الله - ﷺ - فقال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله - ﷺ - ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي ، فمن استطاع أن يكون مقتولاً فلا يكونن قاتلاً » فشد عليه رجل من الخوارج يقال له مسمع بسيفه فقتله . ثم قتلوا ولده وجاريته أم ولده ثم عسكروا بنهروان وانتهى خبرهم الى علي - رضي الله عنه ، فسار اليهم في أربعة آلاف من أصحابه وبين يديه عدي بن حاتم الطائي وهو يقول :

نسير إذا ما كاع قوم وبلدوا ... برايات صدق كالنسور الخوافق
الى شر قوم من شراة تحزبوا ... وعادوا إله الناس ربَّ المشارق
طغاة عماة مارقين عن الهدى ... وكل يُرى في قوله غير صادق
وفينا علي ذو المعالي يقودنا ... اليهم جهاراً بالسيوف البوارق

(1) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٢ باب في ذكر الخوارج ١٦٨ حدثنا بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
ورواه مسلم في كتاب الزكاة ٤٧ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ١٤٢ / ١٤٤ / ١٤٧ / ١٤٨ / ١٥٤ / ١٥٦ / ١٥٩ / وأبو داود في السنن ٢٨ والترمذي في أبواب الفتن ٢٢ باب ما جاء في صفة المارقة ٢٢٨٣ حدثنا أبو كريب أخبرنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله قال رسول الله - ﷺ وذكره . والموطأ في مس القرآن . ١ والبخاري في الأنبياء ٦ ومناقب ٢٥ ومغازي ٦١ وتوحيد ٢٣ ، ٥٧ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٦ .

وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد فسجد لله شكرا .

وحدث في أيامه الشيعة لكن كانوا مختفين بقولهم ، لا يظهرونه لعلي وشيعته ؛ بل كانوا ثلاث طوائف :

« طائفة » تقول : إنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار وخد لهم أخاديد عند باب مسجد بني كندة وقيل إنه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً[1]

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : أتى علي بزنادقة فحرقهم بالنار ، ولو كنت أنا لم أحرقهم ؛ لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله ولضربت أعناقهم لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه » [2] .

---

(١) هذه الطائفة هي طائفة السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي غلا في علي - رضي الله عنه وزعم أنه كان نبياً ثم غلا فيه حتى زعم أنه اله ، ودعا الى ذلك قوماً من غواة الكوفة ، ورفع خبرهم الى علي - رضي الله عنه - فأمر باحراق قوم منهم في حفرتين . حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

لترم بي الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

راجع التبصر ٧١ - والملل والنحل ١ : ١٧٤ ومقالات الاسلاميين ١ : ٨٥ وشرح عقيدة السفاريني ١ : ٨٠ والفرق بين الفرق ٢٣٣ - ٢٣٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في الجهاد ١٤٩ ، والاستتابة »وأبو داود في الحدود اوالنسائي في تحريم الدم ١٤ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٣٢٢ ، والامام الترمذي في أبواب الحدود ٢٥ باب ما جاء في المرتد ١٤٨٣ - حدثنا أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً حرق قوماً ارتدوا عن الاسلام : وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم في المرتد .

واختلفوا في المرأة إذا ارتدت عن الإسلام . فقالت طائفة من أهل العلم : تقتل ، وهو قول

وهـذا الذي قـاله ابن عبـاس هـومـذهب أكثر الفقهـاء ، وقد روى أنـه أجلهم ثلاثا .

والثانية « السابة » وكـان قد بلغـه عن أبي السوداء أنـه كان يسب أبـا بكر وعمر فطلبه . قيل : إنه طلبه ليقتله فهرب منه [1] .

والثالثة « المفضلة » الذين يفضلونه عـلى أبي بكر وعمـر ، فتواتـر عنه أنـه قـال : خير هـذه الأمة بعـد نبيها أبـو بكر ثم عمـر ، وروى ذلـك البخـاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعـد رسول الله ﷺ ؟ فقـال : أبو بكـر ، قال : ثم من . قـال : عمر [2] . وكـانت الشيعة الأولى لا

= الأوزاعي وأحمد وإسحاق ، وقالت طائفة منهم تحبس ولا تقتل ، وهو قول سفيان الثوري وغيـره من أهل الكوفة .

(1) لعلها الجارودية : أتباع المعروف بأبي الجارود ، وقد زعموا أن النبي - ﷺ - نص على إمـامة عـلي بالوصف دون الإسم ، وزعموا أيضاً أن الصحابة كفروا بتركهم بيعـة علي ، وقـالوا أيضـاً ؛ إن الحسن بن علي كان هو الامام قال السيد المرتضى في تاج العروس ٢ : ٢١٨ والجارودية فرقة من الزيدية من الشيعة نسبت الى أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، وأبو الجارود - هو الذي سماه الإمام الباقر « سرخوبا » وفسره بـأنه شيطان يسكن البحر . وقـال ابن حجر في تهـذيب التهـذيب ٣ : ٣٨٦ زياد بن المنذر الهمـداني ويقال الهنـدي . ويقال الثقفي - أبـو الجارود - الأعمى - الكـوفي ، وذكـر من أخذ عنهم ، ومن أخـذوا عنه . ثم قـال : قال عبـد الله بن أحمـد عن أبيـه : متـروك الحديث وضعفه جداً . وقال معاوية بن صالح عن يحيى بن معين : كذاب عـدو لله ليس يسوى فلساً . . وقال أبـو حاتم بن حبـان كان رافضيـاً يضع الحـديث في مثالب أصحـاب رسول الله - ﷺ - ويروي في فضائل أهل البيت رضي الله عنهم أشياء مالهـا أصول ، لا يحـل كتب حديثـه . وهو من المعدودين من أهل الكوفة المغالين .

وذكره البخاري في فصل من مات من الخمسين ومائة الى الستين .

وانظر عن هذه الفرقة مروج الذهب ٣ : ٢٢٠ ومقالات الاسلاميين ١ : ١٣٣ وخطط المقـريزي ٢ : ٢٥٢ والملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٧

(2) روى البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي - ﷺ « لو كنت متخذاً خليلاً قاله أبو

يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان النزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله [1] إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة ؟ فقال : كل الشيعة كانوا على هذا ، وهو الذي قال هذا على أعواد منبره أفنكذبه فيما قال ؟ ولهذا قال سفيان الثوري [2] : من فضل عليا على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وما أرى يصعد له إلى الله جل وعز عمل وهو كذلك . رواه أبو داود في سننه ، وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي [3] ، فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

= سعيد » ٣٦٧١ بسنده عن محمد بن الحنفية قال : قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره وفيه زيادة [وخشيت أن يقول عثمان قلت : ثم أنت . . ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين .

(١) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، أبو عبد الله : عالم بالحديث فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته ، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ ثم عزله ، وأعاده المهدي ، فعزله موسى الهادي وكان عادلاً في قضائه . مولده عام ٩٥ هـ في بخاري ووفاته بالكوفة عام ١٧٧ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢١٤ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٥ والبداية والنهاية ١٠ : ١٧١ وميزان الاعتدال ١ : ٤٤٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٢٧٩]

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر ، أبو عبد الله ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد عام ٩٧ هـ في الكوفة ، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم ، فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي ، فتوارى وانتقل الى البصرة فمات فيها مستخفياً عام ١٦١ هـ له من الكتب الجامع الكبير ، والجامع الصغير ، كلاهما في الحديث ، وكتاب في الفرائض . ولابن الجوزي كتاب في مناقبه . [راجع دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧ وحلية الأولياء ٦ : ٣٥٦ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١١ ـ١١٥ وتاريخ بغداد ٩ : ١٥١ وصيد الخاطر ١٧٥]

(٣) قال ابن النديم في الفهرست ص ٢٦٧ ط مصر « ولد الحسن بن صالح بن حيي سنة مائة ومات متخفياً سنة ثمان وستين ومائة وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظمائهم ، وعلمائهم ، وكان

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة ولا إمام ، ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعليا ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء وأخذ الأموال ، والخروج بالسيف ، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جدا وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

وقد رويت أحاديث في ذم القدرية [1] والمرجئة : روى بعضها أهل السنن ، كأبي داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

= فقيهاً متكلماً ، وله من الكتب كتاب التوحيد « كتاب إمامة ولد علي من فاطمة » كتاب الجامع في الفقه » وللحسن أخوان أحدهما علي بن صالح ، والآخر صالح بن صالح ، وهؤلاء على مذهب أخيهم الحسن وكان علي متكلماً . قال محمد بن اسحاق : أكثر علماء المحدثين زيدية وكذلك قوله من الفقهاء المحدثين مثل : سفيان بن عيينه ، وسفيان الثوري » وقد ترجم له الذهبي في العبر ١ : ٢٤٩ وذكر ثناء العلماء عليه وذكر أن وفاته في سنة ١٦٧ هـ وترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢ : ٢٨٥ - ٢٨٩ وذكر اختلاف العلماء فيه .

(١) روى الامام ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٩٢ - حدثنا بقية بن الوليد عن الأوزاعي عن ابن جريج عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » .
وروى عن النبي - ﷺ - لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيا » قيل : من المرجئة يا رسول الله . . ؟ قال : الذين يقولون الإيمان كلام » .

نشأة الروافض

وأما لفظ « الرافضة » فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام ، لما خرج زيد ابن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك [1] ، واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما فرفضه قوم فقال : رفضتموني رفضتموني فسموا « « الرافضة »[2] فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي ، والزيدية يتولون زيدا وينسبون اليه ، ومن حينئذ انقسمت الشيعة الى زيدية ورافضة إمامية .

« نشأة القدرية وأصول بدعتهم »

ثم في آخر عصر الصحابة حدثت « القدرية » [3] وأصل بدعتهم كانت

---

(١) هو أبو الوليد ، الخليفة الأموي : هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بقي في الخلافة عشرين سنة إلا أشهراً ، وكانت داره عند الخواصين بدمشق وعلى أرضها بنيت مدرسة السلطان نور الدين ، وكان هشام ذا رأي وحزم وعلم ، وكان أبيض جميلاً سميناً أحول ، يخضب بالسواد ، ومات في شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٥ (العبر ١ : ١٦٠) مروج الذهب ٣ : ٢١٦ وما بعدها .

(٢) قد يطلق بعض الناس اسم الرفض على كل من يتولى أهل البيت وعلى هذا جاء قول الذي يقول :

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض

(٣) يقول صاحب كتاب الفرق بين الفرق : ثم حدث في زمان المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني ويقال أنه أول من تكلم في القدر قال أبو حاتم « قدم المدينة فأفسد فيها ناساً » وقال الدارقطني « حديثه صالح ومذهبه رديء ، وقال محمد بن شعيب الأوزاعي « أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له « سوسن » كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، أخذ عنه معبد الجهني ، وأخذ غيلان عن معبد ، والجعد بن درهم ، وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبد الله بن عمر بن الخطاب ت ٧٤ هـ وجابر بن عبد الله ، وأبي =

من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله ، والإيمان بنهيه وأمره ، ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضا أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق الصحابة أنكروا إنكارا عظيما وتبرأوا منهم ، حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أني بريء منهم وأنهم مني برآء . والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر . وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث في صحيح مسلم [1] ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة مختصرا .

= هريرة وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم . وأوصوا أخلافهم بأن لا يسلموا على القدرية ولا يصلوا على جنائزهم ولا يعودوا مرضاهم .

(1) روى الامام مسلم في كتاب الايمان ١ باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ووجوب الإيمان باثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه .

١ - (٨) حدثنا وكيع عن كهمس عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري وهذا حديثه ، حدثنا أبي . حدثنا كهمس عن ابن بريدة ، عن يحيى بن يعمر . قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين . فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله - ﷺ - فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم - وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم بُرآءُ

ثم كثر الخوض في « القدر » وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في « الإرادة » و« خلق أفعال العباد » فصاروا بذلك حزبين : « النفاة » يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ما أمر به ، ولم يخلق شيئا من أفعال العباد .

وقابلهم الخائضون في القدر من « المجبرة »[1] مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا : ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا : العبد لا فعل له البتة ولا قدرة ، بل الله هو الفاعل القادر فقط ، وكان جهم بن صفوان مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه

= مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم ذكر الحديث عن أبيه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه .

(١) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير : ٦٢ والملل والنحل : ١ / ٨٦ والفرق بين الفرق ٢١١ وهؤلاء قالوا بالاجبار والاضطرار الى الأعمال وانكروا الاستطاعات كلها وزعموا أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وزعموا أن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط وقالوا : لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى : وإنما تنسب الأعمال الى المخلوقين على المجاز كما يقال : زالت الشمس ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين أو مستطيعين لما وصفتا به ، وزعموا أن علم الله تعالى حادث وامتنعوا عن وصف الله تعالى بأنه شيء أوحي أو عالم أو مريد وقالوا : لا نصف الله بوصف يجوز إطلاقه على غيره كشيء وموجود ، وحي ، وعالم ومريد ، ونحو ذلك ، وقالوا : بحدوث كلام الله تعالى كما قالته القدرية، ولم يسم الله تعالى متكلماً به .

وزعيمهم : جهم بن صفوان : هو أبو محرز بن صفوان الراسبي ، قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ رقم ١٥٨٤ « الضال المبتدع ، رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين ، وما علمته روى شيئاً ولكنه زرع شراً عظيماً » وقال الطبري عنه : إنه كان كاتباً للحارث بن سريج الذي خرج في خراسان في آخر دولة بني أمية (أنظر حوادث سنة ١٢٨ هـ) وكان جهم تلميذاً للجعد ابن درهم الزنديق الذي كان أول من ابتدع القول بخلق القرآن ، وفيه يقول الذهبي في ميزان الاعتدال رقم ١٤٨٢ ـ الجعد بن درهم ، عداده في التابعين مبتدع ضال . زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر .

قال لا يسمى الله شيئا ، ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر . وكانت « الخوارج » قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة ، وقالوا : إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاض الناس في ذلك ، وخاض في ذلك القدرية بعد موت الحسن البصري (1) ، فقال عمرو بن عبيد (2) وأصحابه : لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفارا ، واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري ، مثل قتادة وأيوب السختياني وأمثالها .

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن . وقيل : إن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس في « الأسماء والأحكام » أي في أسماء الدين ، مثل مسلم ومؤمن ، وكافر وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة ، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم

---

(1) هو أبو سعيد . الحسن بن يسار ، البصري ، مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمه مولاة أم سلمة ، إمام أهل البصرة ، وحبر زمانه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وسمع خطبة عثمان ، وشهد يوم الدار قال عنه ابن سعد : كان جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حجة مأمونا عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً » وتوفي سنة ١١٠ هـ قبل وفاة ابن سيرين بمائة يوم العبر ١ : ١٣٦ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢٦٣ ، مشاهير علماء الأمصار رقم ٦٤٢ ، والمعارف لابن قتيبة ٤٤٠ ومروج الذهب ٣ : ٢١٤ .

(2) هو أبو عثمان . عمرو بن عبيد بن باب ، البصري ، الزاهد ، العابد المعتزلي القدري ، قال ابن قتيبة « كان يرى رأي القدر ويدعو اليه » واعتزل الحسن هو وأصحابه فسموا «المعتزلة» وقال الذهبي : صحب الحسن ثم خالفه واعتزل حلقته فلذا قيل المعتزلي » ا هـ ومات عمرو في طريق مكة سنة ١٤٢ ودفن بمران على ليلتين من مكة ، وصلى عليه سليمان بن علي ورثاه أبو جعفر المنصور العبر : ١ : ١٩٣ والمعارف ٤٨٣ وتاريخ بغداد رقم ٦٦٥٢ ومروج الذهب ٣ : ٣١٣ - ٣١٤ .

ما استحلته الخوارج ، وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين [1] ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها ، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

نشأة المرجئة ومذهبهم في الايمان

وحدثت « المرجئة » وكان أكثرهم من أهل الكوفة ، ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان ، وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم ، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول ، مثل حماد بن أبي سليمان ، وأبي حنيفة وغيرهما ، هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم بالشفاعة ، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد في الايمان أن يتكلم بلسانه ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة

---

(١) قالت الأزارقة من الخوارج أن كل مرتكب للذنب صغيراً أو كبيراً مشرك بالله وقالت الصفرية : في مرتكبي الذنوب بأنهم كفرة مشركون كما قالته الأزارقة غير أنهم خالفوهم في الأطفال .

وقالت النجدات من الخوارج أن صاحب الذنب الذي أجمعت الأمة على تحريمه كافر مشرك ، وصاحب الذنب الذي اختلفت الأمة فيه على حكم اجتهاد أهل الفقه فيه .

وكانت الاباضية من الخوارج يقولون : إن مرتكب ما فيه الوعيد مع معرفته بالله عز وجل وبما جاء من عنده كافر كفران نعمة وليس بكافر كفر شرك .

وزعم قوم أن صاحب الكبيرة من هذه الأمة منافق ، والمنافق شر من الكافر وكان علماء التابعين مع أكثر الأمة يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الاسلام مؤمن : لما فيه من معرفته بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى . ولكنه فاسق بكبيرته وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والاسلام .

وعلى هذا القول مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين فلما ظهرت فتنة الأزارقة واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب على الوجوه الخمسة التي ذكرناها . خرج واصل ابن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان .

وتـاركها مستحق للذم والعقـاب ، فكـان في الأعمـال هـل هي من الإيمـان وفي الاستثنـاء ونحو ذلـك ، عامتـه نزاع لفـظي ، فإن الإيمـان إذا أطلق دخلت فيه الأعمـال ؟ لقول النبي ﷺ « الإيمـان بضـع وستـون شعبـة ـ أو بضـع وسبعـون شعبة ـ أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطـة الأذى عن الطريق ، والحيـاء شعبـة من الإيمان » [1] وإذا عـطف عليـه العمـل كقـولـه : ﴿ إِنَّ الـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [2]

فقد ذكر مقيدا بالعطف ، فها هنا قد يقال : الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العـام . وقد يقـال : لم تدخـل فيه ولكن مـع العطف كـما في اسم الفقير والمسكين ـ إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما عـلى الآخر فهما صنفان كما في آية الصدقات كقوله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [3]

وكما في آية الكفارة ، كقوله :

﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [4]

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان ١٢ باب بيـان عدد شعب الايمـان وأفضلها وأدنـاها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ٥٧ قالا حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنـا سليمان بن بـلال عن عبد الله ابن دينار عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره .
وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٣ وأبو داود في السنة ١٤ ، والنسائي في الإيمـان ١٦ وأخرجـه ابن ماجه في المقـدمة ٩ بـاب في الإيمان ٥٧ حـدثنا وكيـع ، حدثنـا سفيان ، عن سهيـل بن أبي صالح ، عن عبد الله بن دينار ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قـال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) سورة البقرة الآية . ٢٧٧

(٣) سورة التوبة آية رقم ٦٠

(٤) سورة المائدة آية رقم ٨٩

وفي قوله :

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (١)

فالفقير والمسكين شيء واحد .

وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف وفي الإثم والعدوان والمنكر ، تختلف دلالتها في الإفراد والاقتران لمن تدبر القرآن ، وقد بسط هذا بسطا كبيرا في الكلام على الإيمان (٢) ، وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب ؛ وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » (٣) وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » (٤) فإذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب ، فيجب أن يصلح

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٧١

وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤١٤ ، ٤٤٢ (حلبي)

(٢) راجع كتاب الإيمان للامام ابن تيمية فقد وفى الكلام في هذا الموضوع وبسطه بسطاً وافياً .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ٢٠ باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩) حدثنا زكرياء عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال سمعته يقول : سمعت رسول الله - ﷺ يقول : وأهوى النعمان بأصبعيه الى أذنيه (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه)وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات بسنده عن النعمان بن بشير ٣٩٨٤ وذكره .

وأخرجه الدارمي في البيوع ١

سائر الجسد ، فلذلك هو ثمرة ما في القلب ؛ فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الإيمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع .

« أقوال العلماء في الاستثناء في الإيمان »

وفي « الجملة » الذين رموا بالإرجاء من الأكابر ، مثل طلق بن حبيب [1] ، وإبراهيم التيمي [2] ونحوهما ، كان إرجاؤهم من هذا النوع ، وكانوا أيضا لا يستثنون في الإيمان ، وكانوا يقولون : الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأنا مصدقون ، ويرون الاستثناء شكا ، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روي في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ [3] ما قال ؛ لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث ، وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال : قول : إنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعا . وقول : أن الاستثناء محظور ، فإنه يقتضي الشك في الإيمان . والقول الثالث . أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار ، وتركه

---

(١) طلق بن حبيب يقول عنه الذهبي : العابد من صلحاء التابعين إلا أنه كان يرى الإرجاء وقل ما روى .

قال أبو زرعة : سمع من ابن عباس ، وهو ثقة مرجىء ، وقال أبو حاتم صدوق يرى الإرجاء ، وقد روى عن جابر ، وجندب بن سفيان ، وعنه عمرو بن دينار والمختار بن فُلفل وجماعة .

(٢) لم نعثر على ترجمة له في تهذيب التهذيب ، وميزان الاعتدال ، ولسان الميزان .

(٣) هو معاذ بن نصر بن حسان العنبري التميمي أبو المثنى : قاض بصري من الإثبات في الحديث ، أحصى له « البلخي » ثلاث غلطات إحداها أنه سمى أحد الرواة « عبد الأكبر » والصواب « عبد الأكرم » قال ابن حنبل ما رأيت أعقل من معاذ كأنه صخرة ، ولي قضاء البصرة للرشيد سنة ١٧٢ هـ ولم يوفق فشكاه أهلها الى الرشيد فصرفه فأظهروا السرور ونحروا الجزور وتصدقوا بلحمها واستتر في بيته خوف الوثوب عليه ، ثم اشخص الى الرشيد فاعتذر وقبل الرشيد عذره وأعطاه ألف دينار توفي بالبصرة عام ١٩٦ هـ [راجع تاريخ بغداد ١٣ : ١٣١ وتهذيب التهذيب ١٠ - ١٩٤]

باعتبار ، فإذا كان مقصوده أني لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب الله عليّ ، وأنه يقبل أعمالي ، ليس مقصوده الشك فيها في قلبه فهذا استثناؤه حسن وقصده أن لا يزكي نفسه ، وأن لا يقطع بأنه عمل عملا كما أمر فقبل منه ، والذنوب كثيرة ، والنفاق مخوف على عامة الناس . قال ابن أبي مليكة (١) : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه ، لا يقول واحد منهم إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل . والبخاري في أول صحيحه بوب أبوابا في « الإيمان والرد على المرجئة » وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة ، قال : وأبو حنيفة (٢) وأبو يوسف (٣) ومحمد (٤) كرهوا أن يقول الرجل : إيماني كإيمان جبريل وميكائيل ـ قال محمد : لأنهم أفضل يقينا ـ

---

(١) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي قاض من رجال الحديث الثقات ، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف توفي عام ١١٧ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٣٠٦ والمعارف ٢٠٩]

(٢) هو النعمان بن ثابت ، التيمي بالولاء الكوفي ، أبو حنيفة : إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قيل أصله من أبناء فارس ، ولد ونشأ بالكوفة ، وكان يبيع الخز ، ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء وأراده عمر بن هبيرة أمير العراقين على القضاء فامتنع ورعاً ، وأراده المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء على بغداد فأبى . وكان قوي الحجة من أحسن الناس منطقاً توفي عام ١٥٠ هـ راجع تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢٣ ـ ٤٢٣ وابن خلكان ٢ : ١٦٣ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١٠ : ١٠٧]

(٣) هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه كان فقيها علامة من حفاظ الحديث ، ولد بالكوفة ، وتفقه بالحديث والرواية ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي ، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته ببغداد عام ١٨٢ هـ من كتبه الخراج » والآثار وهو مسند أبي حنيفة وغير ذلك كثير . [راجع مفتاح السعادة ٢ : ١٠٠ ـ ١٠٧ وابن النديم ٢٠٣ وأخبار القضاة لوكيع ٣ : ٢٥٤ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٧ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٠ والجواهر المضيئة ٢ : ٢٢٠]

(٤) هو محمد بن الحسن بن فرقد ،من موالي بني شيبان أبو عبد الله إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة أصله من قرية حرسته في غوطة دمشق ، وولد بواسط ونشأ بالكوفة ، فسمع =

أو إيماني كإيمان جبريل ، أو إيماني كإيمان أبي بكر ، أو كإيمان هذا ، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الأعمال منه ، ويذمون المرجئة ، والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض، ولا اجتناب المحارم ، بل يكتفون بالإيمان ، وقد علل تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده ، كما قالوا في قوله : أنت طالق إن شاء الله ، فإن علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط . قالوا : وشرط المشيئة الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد ، فلا معنى للاستثناء ، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام ، فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمنا ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق ، وذلك يزيله . « قلت » فتعليلهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة ، كالذي يريد الدخول في الإسلام . فيقال له : آمن . فيقول : أنا أؤمن إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد إن شاء الله أن لا إله إلا الله ، وأشهد إن شاء الله أن محمدا رسول الله ، والذين استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء ، وإنما كان استثناؤهم في

= من أبي حنيفة ، وغلب عليه مذهبه وعُرف به وانتقل الى بغداد ، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله ولما خرج الرشيد الى خراسان صحبه فمات بالري عام ١٨٩ هـ قال الشافعي « لو أشاء أقول : نزل القرآن بلغة محمد بن الحسن لقلت : لفصاحته ، ونعته الخطيب البغدادي بإمام أهل الري له كتب منها « المبسوط » والزيادات « والجامع الكبير ، وغير ذلك كثير . [راجع الفهرست لابن النديم ١ : ٢٠٣ والفوائد البهية ١٦٣ والوفيات ١ : ٤٥٣والبداية والنهاية ١٠ : ٢٠٢ والجواهر المضيئة ٢ : ٤٢ وذيل المذيل ١٠٧ ولسان الميزان ٥ : ١٢١ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٣٠ ولغة العرب ٩ : ٢٢٧ وتاريخ بغداد ٢ : ١٧٢]

إخباره عما قد حصل له من الإيمان ، فاستثنوا إما أن الإيمان المطلق يقتضي دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة . كأنه إذا قيل للرجل : أنت مؤمن . قيل له : أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول : أنا كذلك إن شاء الله ، أو لأنهم لا يعرفون أنهم أتوا بكمال الإيمان الواجب . ولهذا كان من جواب بعضهم إذا قيل له : أنت مؤمن : آمنت بالله وملائكته وكتبه ، فيجزم بهذا ولا يعلقه . أو يقول : إن كنت تريد الإيمان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله : ـ

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ (١)

وقوله : ـ

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

---

(١) سورة الأنفال آية رقم ٢ ـ ٣ ـ ٤

وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية ﴿ وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال : وتطمئن قلوبهم بذكر الله » فهذا يرجع الى كمال المعرفة ، وثقة القلب ، والوجل : الفزع من عذاب الله فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين الى الله وإن كانوا يخافون الله ، فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نُهاق الحمير . فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله والخوف منه والتعظيم لجلالة ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله ، ولذلك وصف أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل

وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) .

فأنا مؤمن إن شاء الله ، وأما الإنشاء فلم يستثن فيه أحد ، ولا شرع الاستثناء فيه ، بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزما بلا تعليق .

فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظيا فإن الذي حرمه هؤلاء غير الذي استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما في قلبه من الحال ، وهذا حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة ، ولكن هؤلاء عندهم الأعمال ليست من الإيمان ، فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك .

« أقوال العلماء في الاستثناء في الإسلام »

والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى في الإسلام ، وهو المشهور عند أحمد رضي الله عنه ، وقد روي عنه فيه الاستثناء ، كما قد بسط هذا في شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

ولو قال لامرأته : أنت طالق إن شاء الله ، ففيه نزاع مشهور ، وقد رجحنا التفصيل ، وهو أن الكلام يراد به شيئان ، يراد به إيقاع الطلاق (٢) تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ .

= الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم .

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥

(٢) الطلاق : حل قيد النكاح وهو مشروع ، والأصل في مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع . أما الكتاب فقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾
وأما السنن : فما روى ابن عمر - رضي الله عنه - أنه طلق امرأته وهي حائض فسأل عمر - رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال له رسول الله - ﷺ : مره فليراجعها ثم ليتركها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . متفق عليه . راجع كتاب المغني لابن قدامة ٧ : ٩٦ - وما بعدها]

فقوله : إن شاء الله مثل قوله : بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع وإن كان قد علق لئلا يقع ، أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن تطلق . وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعا أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه ، من ولي أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن . وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيدا وتحقيقا فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحدا أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة ، فإذا علقه فإن كان مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومن بعد ذلك فهذا لم يصر مؤمنا ، مثل الذي يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام فقال أصير إن شاء الله فهذا لم يسلم ، بل هو باق على الكفر ، وإن كان قصده أني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمنا ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنشاء ، وأيضا فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلا ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا :

﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ (١)

وقال تعالى : ـ

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٢)

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥

فأخبر أنهم آمنوا فوقع الإيمان منهم قطعا بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن كما يخبر عن نفسه بأنه بر ، تقي ، فقول القائل له : أنت مؤمن هو عندهم كقوله : هل أنت بر تقي ؟ فإذا قال : أنا بر تقي فقد زكى نفسه فيقول : إن شاء الله ، وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له ، وجزاؤه عليه ، وكتابة الملك له . فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ؛ بل يقال : هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه ، وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق .

والرجل قد يقول : والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون فالمعلق هو الفعل ، كقوله ؛

﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ ﴾ (١) .

والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمي لأفعلن كذا إن شاء الله ، وهو لا يجزم بأنه يقع ، لكن يرجوه فيقول : يكون إن شاء الله ، تم عزمه عليه قد يكون جازما ، ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقا بالمشيئة أيضا ، ولكن متى كان المعزوم عليه مطلقا لزم تعليق بقاء العزم ، فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداء أو دواما في مثل ذلك ، ولهذا لم يحنث المطلق المعلق وحرف « إن » لا يبقى العزم . فلا بد اذا دخل على الماضي صار مستقبلا . تقول : إن جاء زيد كان كذلك ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٧

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٧

و إذا أريد الماضي دخل حرف « ان » كقوله ﴿ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُوني ﴾[1] .

فيفرق بين قوله : (أنا مؤمن إن شاء الله) وبين قوله : (إن كان الله شاء إيماني) .

وكذلك إذا كان مقصوده إني لا أعلم بماذا يختم لي ، كما قيل لابن مسعود : إن فلانا يشهد أنه مؤمن . قال : فليشهد أنه من أهل الجنة فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان ، وكذلك إن كان مقصوده أن إيماني حاصل بمشيئة الله . ومن لم يستثن قال : أنا لا أشك في إيمان قلبي ، فلا جناح عليه إذا لم يزل نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كايمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة . كما كان مسعر بن كدام[2] يقول : « أنا لا أشك في إيماني ، قال أحمد : ولم يكن من المرجئة فإن المرجئة الذين يقولون : الأعمال ليست من الإيمان ، وهو كان يقول : هي من الإيمان . لكن أنا لا أشك في إيماني . وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة [3] : ألا تنهاه عن هذا فإنهم من قبيلة واحدة ،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣١

(٢) هو مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري الرواسبي أبو سلمة من ثقات أهل الحديث كوفي ، كان يقال له « المصحف لعظم الثقة بما يرويه ، وكان مرجئاً ، وعنده نحو ألف حديث ، وخرج له الستة توفي بمكة عام ١٥٢ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ١١٣ - وحلية الأولياء ٧ : ٢٠٩ ، والمعارف ٢١١ وذيل المذيل ١٠٤ والكواكب الدرية ١٦٨ وفيه وفاته سنة ١٥٥ هـ وفي خلاصة تهذيب الكمال ص ٣٢٠ مات سنة ١٥٣ هـ]

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، أبو محمد ، محدث الحرم المكي ، من الموالي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها عام ١٩٨ هـ .

كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعي : لولا مالك وسفيان ، لذهب علم الحجاز . حج سبعين سنة ، له الجامع في الحديث ، وكتاب في التفسير . [راجع تذكرة الحفاظ =

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

« وأما جهم » فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب . وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول .

ولكن هو الذي نصره الأشعري [1] وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره ، واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم في « الإيمان » .

« الأصول التي بنت عليها المرجئة مذهبها في الإيمان »

والأصل الذي منه نشأ النزاع اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع ، كما ذكر الأشعري أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء ، كما كان « أصل القدر » عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبين . قالت الخوارج والمعتزلة عن علمنا يقينا أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك

= ١ : ٢٤٢ والرسالة ٣١ ، وصفة الصفوة ٢ : ١٣٠ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وميزان الاعتدال ١ : ٣٩٧]

(١) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق ، أبو الحسن من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، ولد في البصرة عام ٢٦٠ هـ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم وتوفي ببغداد عام ٣٢٤ هـ من مصنفاته « الابانة عن أصول الديانة » ومقالات الملحدين ، والرد على ابن الراوندي ، وخلق الأعمال » وغير ذلك كثير . [راجع طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ وابن خلكان ١ : ٣٢٦ ، والبداية والنهاية ١١ : ١٨٧ ودائرة المعارف الاسلامية ٢ : ٢١٨]

بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ؛ لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون في العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شيء .

وقالت « المرجئة » ـ مقتصدهم وغلاتهم كالجهمية ـ قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون في النار ؛ بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ؟ فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله [١] ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله [٢] ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ؛ وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم في أحكامهم في الدنيا .

و« الخوارج » لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ، ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

و« أقوال الخوارج » إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب [٣] المعتزلة ، والرافضة ، والزيدية [٤] ،

---

(١) قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾

(٢) روى الامام مسلم في كتاب الحدود ٨ باب حد الخمر ٣٦ ـ حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني ابي عن قتادة عن أنس بن مالك أن نبي الله ـ ﷺ ـ جلد في الخمر بالجريد والنعال ، ثم جلد أبو بكر أربعين فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى . قال : ما ترون في جلد الخمر ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود . قال فجلد عمر ثمانين .

(٣) أمثال : كتاب المغني للقاضي عبد الجبار ، والأصول الخمسة » . له ، وغير ذلك من الكتب .

(٤) الزيدية : يجمعها ثلاث فرق : الجارودية ، والسليمانية ، وقد يقال الجريرية أيضاً ، والبترية ، وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بامامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه وكان ذلك في زمن هشام بن عبد الملك .

والكرامية [1] والأشعرية ، والسالمية ، وأهل المذاهب الأربعة ، والظاهرية ، ومذاهب أهل الحديث ، والفلاسفة ، والصوفية ، ونحو هؤلاء .

وقد بسط الكلام على تفصيل القول في أقوال هؤلاء في غير هذا الموضع .

وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على « أقسام » :

منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم ، فيبدأ بالخوارج .

ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة . ويختم بالجهمية . كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه ، كعبد الله [2] ابنه ونحوه ، وكالخلال [3] ، وأبي عبد الله بن بطة [4] وأمثالهما ، وكأبي الفرج

---

(١) أتباع ابن كرام الذي دعا أتباعه الى تجسيم معبوده ، وزعم أنه جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التي منها يلاقي عرشه ، وهذا شبيه بقول الثنوية: إن معبودهم الذي سموه نوراً يتناهى من الجهة التي تلاقي الظلام وإن لم يتناه من خمس جهات .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي ، أبو عبد الرحمن حافظ للحديث من أهل بغداد ، له الزوائد على كتاب الزهد لأبيه وزوائد المسند ، زاد به على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث توفي عام ٢٩٠ هـ . [راجع تهذيب ٥ : ١٤١ والمستطرفة ١٦ والطبقات لابن أبي يعلى ١ : ١٨٠]

(٣) هو أحمد بن محمد بن هارون ، أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الحنابلة ـ من أهل بغداد ، كانت حلقته بجامع المهدي قال ابن أبي يعلى : له التفاسير الدائرة والكتب السائرة ، وقال الذهبي جامع علم أحمد ومرتبه ، من كتبه « تفسير الغريب » و« طبقات أصحاب أحمد بن حنبل ، والسنة ، والعلل ، والجامع لعلوم الإمام أحمد في الحديث » توفي عام « ٣ هـ . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ ومختصره ٢٩٥ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٧ ومناقب الامام أحمد ٥١٢ومخطوطات الظاهرية ٢٦٥]

(٤) هو عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان أبو عبد الله العكبري ، المعروف بابن بطه عالم بالحديث ، فقيه من كبار الحنابلة ، من أهل عكبرا مولداً ووفاة رحل الى مكة والثغور والبصرة ، وغيرها في طلب الحديث ، ثم لزم بيته أربعين سنة فصنف كتبه وهي تزيد على مئة ، منها =

المقدسي ،وكلا الطائفتين تختم بالجهمية ، لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخاري [1] في صحيحه فإنه بدأ بـ « كتاب الإيمان والرد على المرجئة » وختمه « بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » .

ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولا مع الجهمية ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة ، والبيهقي [2] أفرد لكل صنف مصنفاً ، فله مصنف في الصفات [3] ، ومصنف في القدر ، ومصنف في شعب الإيمان [4] ، ومصنف في دلائل

= « الإبانة في أصول الديانة » والسنة « والإنكار على من قضى بكتب الصحف الأولى » توفي عام ٣٨٧ هـ . [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٤٤ - ١٥٣ ومختصره للنابلسي ٣٤٦]

(١) هو محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله حبر الاسلام ، والحافظ للحديث - صاحب « الجامع الصحيح » المعروف بصحيح البخاري و« التاريخ » و« الضعفاء » في رجال الحديث ، وخلق أفعال العباد »
ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ في طلب الحديث ، فزار خراسان ، والعراق ، ومصر ، والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ ، أقام في بخارى فتعصب عليه جماعة ورموه بالتهم فاخرج الى خرتنك (من قرى سمرقند) فمات بها عام ٢٥٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٤ - ٣٦ وتهذيب الاسماء واللغات ٦٧ والسبكي ٢ : ٢]

(٢) هو أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر من أئمة الحديث ، ولد في خسرو جرد من قرى بيهق بنيسابور عام ٣٨٤ هـ ثم رحل الى بغداد والكوفة ومكة وغيرهما ، وطلب الى نيسابور ، فلم يزل فيها الى أن مات عام ٤٥٨ هـ قال إمام الحرمين ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي ، فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه . وقال الذهبي لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لعلمه ومعرفته بالاختلاف .
[راجع شذرات الذهب ٣ : ٣٠٤] وطبقات الشافعية ٣ : ٣ ومعجم البلدان ٢ : ٣٤٦ والمنتظم ٨ : ٢٤٢ وابن خلكان ١ : ٢٠ واللباب ١ : ١٦٥ واحمد محمد شاكر في دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٤٢٩ ، أما خسروجرد) فبضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء الثانية ، كما في الباب .

(٣) يسمى كتاب الأسماء والصفات طبع أكثر من مرة .

(٤) شعب الايمان : ويسمى : الجامع المصنف في شعب الايمان وهو كبير من الكتب المشهورة ، وله =

النبوة [1] ، ومصنف في البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في « الأسماء والأحكام » في الإيمان والإسلام أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض ، قال أولئك : فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد في النار ، وأنه ليس كافراً مرتداً ، بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمنا تام الإيمان [ليس] معه بعض الإيمان ، لأن الايمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة

فقال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية : بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً فالذي لا بد منه تصديق القلب ، وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال .

وأنكر كل هذه الطوائف أنه « ينقص » والصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص وهو قول أئمة السند ، وكان ابن [2] المبارك يقول : هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص ، وعن مالك [3] في كونه لا ينقص روايتان .

= مختصرات منها مختصر شمس الدين القونوي ومختصر الإمام معين الدين محمد بن حمويه وفيه سبعة وسبعون باباً ومنتقاة للشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، جمع زوائد الأصل على الكتب الستة كتب منه الثلث فقط .

(١) دلائل النبوة : اختصره سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ . [راجع كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ ١ ص ٧٦٠]

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبد الرحمن : الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء كان من سكان خراسان ، ومات بهيت عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم ، له كتاب في الجهاد ، وهو أول من صنف فيه و« الرقاق »[راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٣]

(٣) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد =

والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ، ودلت النصوص على نقصه كقـوله « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله في النسـاء « ناقصـات عقل ودين » (٢) وجعـل من نقصان دينهـا أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين : من جهـة أمر

= الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفـاته عـام ١٧٩ هـ بالمـدينة ، كـان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشي به الى جعفر عم المنصـور العباسي فضـربه سيـاطاً انخلعت لها كتفه ، ووجـه إليه الـرشيد العبـاس ليأتيـه فيحدثـه ، فقال : العلم يؤتى ، فقصـد الرشيد منزله واستند الى الجدار . صنف كتاب « الموطأ » وله رسالة في الوعظ . [راجع الـديباج المذهب ١٧ ـ ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥ وصفه الصفوة ٢ : ٩٩ وحلية ٦ : ٣١٦ وذيـل المذيـل ١٠٦ والانتقـاء ٩ : ٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٢ والتعـريف بـابن خلدون ٢٩٧ ، ٣٠٥ واللباب ٣ : ٨٦ ومعجم المطبوعات ١٦٠٩]

(١) روى ابن مـاجـه في كتـاب الفتن ٣ بـاب النهي عن النهبـة ٣٩٣٦ ـ أنبـأنـا الليث بن سعـد عن عقيل ، عن ابن شهاب عن أبي بكـر بن عبد الـرحمن بن الحرث بن هشـام ، عن أبي هريـرة أن رسول الله ـ ﷺ قال : لا يزني الزاني ،حـين يزني وهو مؤمن ، ولا يشـرب الخمر حـين يشربهـا وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبهاوهو مؤمن ٧٠

(٢) روى الامام مسلم في كتاب الايمان ٣٤ : باب بيان نقصان الايمان بنقص الطاعات وبيان ! إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ١٣٢ ـ أخبرنا الليث ، عن ابن الهاد ، عن عبـد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال « يا معشـر النساء تصـدقن وأكثرن الاستغفـار فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقـالت امرأة منهن جـزلة : ومـا لنا يـا رسول الله أكـثر أهل النـار قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصـات عقل ودين أغلب لـذي لب منكن قالت : يا رسول الله وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعـدل شهـادة رجل فهـذا نقصان العقـل ، وتمكث الليالي مـا تصلي ، وتفـطر في رمضان فهـذا نقصان الدين » ورواه ابن ماجه في كتاب الفتن ١٩ باب فتنة النسـاء ٤٠٠٣ ـ أنبـأنا الليث بن سعد عن ابن الهاد ، عن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
ورواه الامام البخاري في كتاب الحيض ١٦ ، والزكاة ٤٤ والترمذي في كتاب الإيمان والامام أحمد ابن حنبل في المسند ٢ : ٦٧ ، ٣٧٣ ـ ٣٧٤ (حلبي)

الرب ، ومن جهة فعل العبد .

أما « الأول » فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة .

و« أيضاً » فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا .

وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان ، وهذا من أصول غلط المرجئة ، فإنهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوي فيه جميع المكلفين ، فقالوا : إيمان الملائكة والأنبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لفظه كلفظ غيره من الناس .

فيقال لهم : قد تبين أن الإيمان الذي أوجبه الله على عباده يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تبايناً عظيماً ، فيجب على الملائكة من الإيمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الأنبياء من الإيمان ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم . ويجب على الأمراء ما لا يجب على غيرهم ، وليسر المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط ؟ بل ومن التصديق والإقرار .

فإن الناس وإن كان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به ، وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلا ، وما لم يؤمر به العبد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فمن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج

والإيمان بها ، فيجب عليه من الإيمان والعمل ما لا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ، ومن الإيمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره ، فيجب عليه من العلم والإيمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم والعمل ليسا من الإيمان ، وإن جعل جميع ذلك داخلا في مسمى الإيمان كان أبلغ ، فبكل حال قد وجب عليه من الإيمان ما لا يجب على غيره . ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا ، فإذا جاءت أمور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقاً مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة الى الكعبة (١) ، وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ونحو ذلك . ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا ، كما ذكر ذلك في سورة المنافقين (٢) ، وذكر مثل ذلك في سورة البقرة ، فقال :

﴿ مَثَلهم كَمَثَلِ الذي اسْتَوقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ ، صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجعُونَ ﴾ (٣) .

وقال طائفة من السلف : عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا . فمن هؤلاء من كان يؤمن أولا إيمانا مجملا ، ثم يأتي أموراً لا يؤمن بها فينافق في الباطن ، وما يمكنه إظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته ، وهذا كما ذكر الله

---

(١) قال تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٤٢ .
والمراد بالسفهاء هنا اليهود الذين بالمدينة ، قاله مجاهد والسدي وقال الزجاج : المنافقون : كفار قريش لما انكروا تحويل القبلة قالوا : قد اشتاق محمد الى مولده ، وعن قريب يرجع الى دينكم وقالت اليهود : قد التبس عليه أمره وتحير ، وقال المنافقون: ما ولاهم عن قبلتهم واستهزؤوا بالمسلمين .

(٢) قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ .
● سورة المنافقون آية رقم ٣

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٧ ـ ١٨

عنهم في الجهاد فقال :

﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيْتَ الذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ . فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ [1] .

و« بالجملة » فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ، ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في النساء « ناقصات عقل ودين » وقال في نقصان دينهن « إنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي » [2] وهذا مما أمر الله به فليس هذا النقص ديناً لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها وإن لم يكن عاصياً . فهذا أفضل ديناً وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم ، فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات ، لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص ، وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذاك لا يستحق العقاب بتركها ، ولكن إيمان ذلك أكمل . قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » [3] .

---

(١) سورة محمد آية رقم ٢٠ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ولفظه كما جاء في سنن ابن ماجه « وتمكث الليالي ما تصلي ، وتفطر في رمضان ، فهذا من نقصانَ الدين » .

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الرضاع ١١ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ١١٦٢ حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .
وأخرجه أبو داود في : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٥ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه حديث رقم ٤٦٨٢ ، والدارمي في كتاب الرقاق ٧٤ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٥٠ ، ٤٧٢ . ٥٢٧ ، ٦ : ٩٩ (حلبي)

فهذا يبين تفاضل الإيمـان في نفس الأمر بـه . وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها .

و« النـوع الثـاني » هـو تفـاضـل النـاس في الإتيـان بـه مـع استـوائهم في الواجب ، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع . وهـذا أيضاً يتفاضلون فيه فليس إيمـان السارق والـزاني والشارب كـإيمان غيـرهم ، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل بها أو ببعضهـا ، كما أنـه ليس دين هذا وبـره وتقـواه ، مثل دين هـذا وبره وتقـواه ، بل هـذا أفضل دينـاً وبراً وتقـوى ، فهو كـذلك أفضـل إيمانـاً ، كـما قـال النبي ﷺ : « أكمـل المؤمنـين إيمانـاً أحسنهم خلقاً »[1] وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصـاً ، ومن كانت فيـه خصلة منهن كانت فيـه خصلة من النفاق حتى يدعها . إذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[2] .

وأصـل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفـاضل ، بـل هـو شيء واحـد يستوي فيه جميع العبـاد فيـما أوجبـه الـرب من الإيمـان ، وفيـما يفعله العبـد من الأعمـال ، فغلطوا في هذا وهـذا ثم تفرقـوا كما تقـدم . وصارت المـرجئة عـلى « ثـلاثة أقـوال » فعلماؤ هم وأئمتهم أحسنهم قـولا ؛ وهـو أن قـالـوا : الإيمـان تصديق القلب وقول اللسان . وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم - في كتاب الإيمان ٢٥ باب بيان خصال المنافق ١٠٦ - حدثنـا عبد الله بن نمـير ، وحدثنـا ابن نمير ، وحـدثنا أبي ، حـدثنـا الأعمش ، وحـدثني زهـير بن حـرب ، وحـدثنا وكيع وحدثنـا سفيان عن الأعمش ، عن عبـد الله بن مرة ، عن مسـروق عن عبد الله ابن عمرو . قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره .

وأخرجه الإمام البخاري في كتـاب الإيمان ٢٤ ، وفي كتـاب الجزيـة ١٧ ، وأخرجـه أبو داود في السنة ١٥ .

[وقـالت الكـرامية هـو القـول فقط] فمن تكلم بـه فهـو مؤمن كـامـل الإيمان ، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذباً بقلبه كان منـافقاً مؤمـناً من أهل النـار ، وهـذا القـول هـو الـذي اختصت بـه الكـرامية وابتدعته ، ولم يسبقها أحد الى هذا القول ، وهو آخر مـا أحدث من الأقـوال في الإيمـان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم بـه بلسانـه دون قلبه فهـو من أهل الجنة وهو غلط عليهم . بل يقولون : إنه مؤمن كامل الإيمان وأنه من أهل النار ، فيلزمهم أن يكـون المؤمن الكامـل الإيمان معـذباً في النـار ، بل يكـون مخلدا فيها وقد تواتر عن النبي ﷺ أنـه « يخرج منهـا من كان في قلبـه مثقال ذرة من إيمان » (١) .

وإن قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (٢) .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم ، وقال له :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) الحـديث أخرجـه الامام البخـاري في كتاب الايمـان ١٥ وفي كتاب الـرقاق ٣٥ ، ٥١ وفي كتـاب الفتن ١٣ وفي كتاب التوحيد ٢٤ ، ٣٦ وأخرجـه الامام مسلم في كتـاب الايمان ٣٩ بـاب تحريم الكبـر وبيانـه ١٤٧ بسنده عن عبـد الله بن مـسعود ـ رضي الله عنـه عن النبي ـ ﷺ بلفظ « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنـاً ونعله حسناً قال : إن الله جميل يحب الجمال » .

ورواه الامام الترمذي في الفتن ١٧ وأخرجه ابن ماجـه في المقدمـة ٩ باب في الايمـان ٥٩ بسند ٥ عن علقمة عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٤٥

(٣) سورة التوبة آية رقم ٨٠

وقال :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١)

وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فإن قالوا : هؤلاء قد كانوا يتكلمون بألسنتهم سراً فكفروا بذلك ، وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فإن ذلك ردة عن الإيمان . قيل لهم : ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين . قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ ﴾ (٢) .

وأيضا قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وإنهم لكاذبون . قال تعالى : -

﴿ وَمِنَ النَّاسِ من يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤) .

وقد قال النبي ﷺ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » (٥) . وقد

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٨٤

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٤

(٣) سورة البقرة آية رقم ٨

(٤) سورة المنافقون آية رقم ١

(٥) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٣٤ ، ١٣٥ - حدثني أبي ، حدثنا بهز حدثنا علي بن

قال الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا . قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن سعد : أن النبي ﷺ أعطى رجالا ولم يعط رجلا فقلت : يا رسول الله ! أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ؟ فقال : « أومسلم » مرتين أو ثلاثا (٢) . وبسط الكلام في هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ، لأنه قطب الدين الذي يدور عليه ، وليس في القول اسم علق به السعادة والشقاء ، والمدح والذم ، والثواب والعقاب ، أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سمي هذا الأصل « مسائل الأسماء والأحكام » وقد رأيت لابن الهيصم فيه مصنفاً في أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلاني (٣) فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط ، وكلاهما في عصر

= مسعدة حدثنا قتادة عن أنس قال : كان رسول الله - ﷺ - يقول وذكره . وفيه زيادة [قال ثم يشير بيده الى صدره ثلاثاً قال : ثم يقول التقوى ههنا التقوى ههنا »

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٤

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة باب الدليل على زيادة الايمان ونقصانه ٤٦٨٣ حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، قال وأخبرني الزهري ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : وذكره وفيه زيادة [ثم قال النبي - ﷺ - إني أعطي رجالاً وأدع من هو أحب إليّ منهم لا أعطيه شيئاً مخافة أن يُكبوا في النار على وجوههم » .

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاص ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها كان جيد الاستنباط ، سريع الجواب ، وجهه عضد الدولة سفيراً عنه الى ملك الروم فجرت في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها . من كتبه « إعجاز القرآن » والانصاف ، وغير ذلك توفي عام ٤٠٣ هـ واجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وقضاة الأندلس ٣٧ - ٤٠ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩

واحد ، وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

« عمدة أهل البدع في التوحيد والصفات »

و« المقصود هنا » أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان . فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى ، إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر على غير ذلك . والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف أمكن . ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم ـ كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي (١) والآمدي (٢) وابن الحاجب (٣) ـ أن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي الامام المفسر أصله من طبرستان ومولده في الري عام ٥٤٤ هـ وإليها نسبته ويقال له (ابن الخطيب) رحل الى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفي في هراة من كتبه مفاتيح الغيب ، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى وصفاته ومعالم أصول الدين ، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، وغير ذلك كثير . راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ والوفيات ١ : ٤٧٤ ، ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ ـ ٤٥١ وذيل الروضتين ٦٨ وابن الوردي ٢ : ١٢٧ واداب اللغة ٣ : ٩٤ ولسان الميزان ٤ : ٤٢٦

(٢) هو علي بن محمد بن سالم الثعلبي أبو الحسن ، سيف الدين الآمدي أصولي باحث ، أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها عام ٥٥١ هـ وتعلم في بغداد والشام وانتقل الى القاهرة فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، فخرج مستخفيا الى حماه ومنها الى دمشق فتوفي بها عام ٦٣١ هـ له نحو عشرين

جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ، بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين . فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث ، وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ، ولكن قالوا : إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه « المقالة » لم يقولوا هذا ، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة [1] ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم ، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية بجواز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى .

وكذلك إذا قالوا يجوز أن يراد بها هذا المعنى والأمة قبلهم لم يقولوا أريد بها الا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة ،

= مصنفاً منها « الأحكام في أصول الأحكام » وأبكار الأفكار في علم الكلام ، ولباب الألباب ودقائق الحقائق . [راجع ابن خلكان ١ : ٣٢٩ والسبكي ٥ : ١٢٩ وميزان الاعتدال ١ : ٤٣٩ وفيه : كان يترك الصلاة ونفي من دمشق لسوء اعتقاده » ولسان الميزان ٣ : ١٣٤] .

(٣) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس أبو عمر وجمال الدين بن الحاجب ـ فقيه مالكي ، من كبار العلماء بالعربية . كردي الأصل ولد في أسنا (من صعيد مصر) عام ٥٧٠ هـ وكان في القاهرة وسكن دمشق ومات بالاسكندرية عام ٦٤٦ هـ أبوه حاجبا

فعرف به من تصانيفه الكافية ، والشافية ، ومختصر الفقه ، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل » وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣١٤ والطالع السعيد ١٨٨ وخطط مبارك ٨ : ٦٢ وغاية النهاية ١ : ٥٠٨ ومفتاح السعادة ١ : ١١٧ وآداب اللغة ٣ : ٥٣ والفهرس ٢٢٥]

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب الفتن ٨ باب السواد الأعظم ٣٩٥٠ حدثنا الوليد بن مسلم ، ثنا معان ابن رفاعة السلامي ، حدثني أبو خلف الأعمى . قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول : إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم » .

في الزوائد : في اسناده أبو خلف الأعمى واسمه حازم بن عطاء وهو ضعيف ، وقد جاء الحديث بطرق في كلها نظر . قاله شيخنا العراقي في تخريج أحاديث البيضاوي .

وأخبرت أن مراده غير ما أراده ، لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ،ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا معنى الآية ؛ ولكن طائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ، وطائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد ، فجاء الثالث وقال : ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه ، وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود » أن كثيرا من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ، ولا على الايمان الذي جاء به الرسول ، بخلاف السلف ، فلهذا كان السلف أكمل علماً وإيماناً ، وخطأهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه .

« أصول مذهب السلف »

وكان الأصل الذي أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله :

﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (١)

فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة ، كما قال تعالى :

﴿ **وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِن دُونِهِ**

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١

﴿ فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ (١)

فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول ، وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله . كما قال : ـ

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ ﴾

وأعمالهم تابعة لأمره ، فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به ، فهم مطيعون لأمره سبحانه .

وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار ، فقال : ـ

﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢)

وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد ، وقال بعضهم : بل لا يعصونه في الماضي ، ويفعلون ما أمروا به في المستقبل ، وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً ، فاذا قال : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم من ٢٦ ـ ٢٩

(٢) سورة التحريم آية رقم ٦

ذكر القشيري أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : يا رسول الله ـ نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا . . ؟ فقال : تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله . »

وقال مقاتل : ذلك حق في نفسه ، وولده ، وأهله ، وعبيده ، وإمائه قال الكيا الهراسي : فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب، وهو قوله تعالى ﴿ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ ونحو قوله تعالى للنبي ـ ﷺ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وفي الحديث « مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع » .

لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون ، فإن العاجز ليس بعاص ، ولا فاعل لما أمر به .

وقال : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهو لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية ، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين ، إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به ، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد وصف الملائكة بأنهم : ـ

﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ، وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إنِّي إلَهٌ مِن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ، كذلك نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

فالملائكة مصدقون بخبر ربهم ، مطيعون لأمره ، ولا يخبرون حتى يخبر ، ولا يعملون حتى يأمر ، كما قال تعالى : ـ

﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك ، فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه ، بل بينهم وبينه رسول من البشر ، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ، ولا يعملون إلا بما أمرهم به ، كما قال تعالى : ـ

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ ـ ٢٩

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٧

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

قال مجاهد : لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه ﴿ تُقَدِّمُوا ﴾ معناه تتقدموا وهو فعل لازم وقد قرىء « يقدموا » يقال : قدم ونقدم ، كما يقال : بين وتبين ، وقد يستعمل قدم متعدياً أي قدم غيره ، لكن هنا هو فعل لازم ،فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ، ولا يتقدم بين يديه ، بل ينظر ما قال ، فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعلمه تبعاً لأمره ، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين ، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ، ولا يؤسس ديناً على غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل ، فهذا أصل أهل السنة ، وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ، ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ، بل

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١
قال العلماء : كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي - ﷺ - وتلقيب الناس .
واختلف في سبب نزولها منها ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال : حدثني ابن أبي مليكة ان عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله - ﷺ فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ . ورواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح ، ذكره المهدوي أيضاً ومنها : ما روى أن النبي - ﷺ - أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ مضى الى خيبر ، فأشار عليه عمر برجل آخر . فنزل: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ .
ذكره المهدوي أيضاً .

على ما رأوه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقه وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرفوها تأويلا .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين ، بل ناقصي الإيمان مبتدعين ، وخطأهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

فصل
النهي عما جاء عن الرسول نهي عن العدل، والأمر بضده أمر بالظلم

وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن .

﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾[1]

وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً ، فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه . وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً ، وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فمن نهى عنه فقد نهى عن العدل ، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم، فإن ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلا وظلما ظناً وما تهوى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما أن يكون كان شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما أن يكون ما شرع قط ، بل يكون من المبدل . فكل ما خالف حكم الله ورسوله ، فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ما شرعه الله ، بل شرعه شارع بغير إذن من الله ، كما قال : ـ

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ الله ﴾[2]

---

(١) سورة النجم آية رقم ٢٣

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢١

لكن هذا وهذا قد يقعان في خفى الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ، ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ؛ ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم معتصمون بحبل الله يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله ، فضلا عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

« حكم المجتهد المخطىء في طلب الحق »

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين يغفر الله لهم خطاياهم ، ويثيبهم على اجتهادهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلا يعملها في ذلك الزمان . لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ، فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ، ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن

= هذه الآية لها اتصال بقوله تعالى :﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ ومعناه « هل لهم شركاء شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله . . ؟ »

تنتشر دعوته وتظهر كلمته، وتكثر أعوانه وأنصاره ، وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين ، وانفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه ، في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد ، كما في الصحيحين عنه ﷺ « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » [1] .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال ﷺ : « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » [2] فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثاني ، والثاني أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث ، وكذلك في الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ؟ هذا فيه نزاع ، وفيه قولان حكاهما القاضي عياض [3] وغيره . من الناس من يفرضها في مثل معاوية [4] وعمر بن

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي - ﷺ (لو كنت متخذاً خليلاً) قاله أبو سعيد ٣٦٧٣ حدثنا شعبة عن الأعمش قال سمعت ذكوان يحدث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه الامام مسلم ٥٤ باب تحريم سب الصحابة - رضي الله عنهم ٢٢١ - حدثنا يحيى التميمي وأبو بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن العلاء قال يحيى : أخبرنا ، وقال الآخران حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ وذكره . وأخرجه الترمذي في المناقب ٥٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١١ (حلبي)

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي - ﷺ ٣٦٥٠ - حدثنا النضر أخبرنا شعبة عن أبي جمرة سمعت زهدم بن مضرب قال : سمعت عمران بن حصين - رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .
وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ٤٥ باب م جاء في القرن الثالث ٢٢٢٢ - حدثنا أبو عوانة ، عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي ، أبو الفضل ، عالم المغرب ، =

عبد العزيز [1] . فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد ، والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود هنا » أن من خالف الرسول فلا بد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى :

* ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [2] .

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة إنهم إناث :

= وإمام أهل السنة في وقته ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم . ولي قضاء سبته ولد فيها عام ٤٧٦ هـ ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش عام ٥٤٤ هـ من تصانيفه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وترتيب كتاب المدارك وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١ وقلائد العقيان ٢٢٢ والفهرس ٣٦٨ وبغية الملتمس ٤٢٥ وأزهار الرياض ١ : ٢٣ وجذوة الاقتباس ٢٧٧]

(٤) هو معاوية بن أبي سفيان ـ صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ت ٦٠ هـ [راجع ابن الأثير ٤ : ٢ وتطهير الجنان . والطبري ٦ : ١٨٠ ومنهاج السنة ٢ : ٢٠١ ـ ٢٢٦ واليعقوبي ٢ : ١٩٢ والخميس ٢ : ٢٩١ و ٢٩٦ والبدء والتاريخ ٦ : ٥ وخلاصة تهذيب الكمال ٣٢٦ والإسلام والحضارة العربية ٢ : ١٤٦ ـ ١٦١ ـ ٣٩٤ .

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص الخليفة الصالح ، والملك العادل ، وربما قيل له « خامس الخلفاء الراشدين » ت عام ١٠١ هـ[راجع فوات الوفيات ٢ : ١٠٥ وتهذيب التهذيب ٧ : ٤٧٥ وحلية الأولياء ٥ : ٢٥٣ ـ ٣٥٣ وفيه طائفة كبيرة من أخباره ، وابن الأثير ٥ : ٢٢ واليعقوبي ٣ : ٤٤ وصفة الصفوة ٢ : ٦٣ وابن خلدون ٣ : ٧٦ وتاريخ الخميس ٣ : ٣١٥ والطبري ٨ : ١٣٧ والاسلام والحضارة العربية ٢ : ١٧٢]

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣

﴿ إنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ المَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ، وإنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ، فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ (١)

وهم جعلوهم إناثا كما قال : ـ

﴿ وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً ﴾ (٢)

وفي القراءة الأخرى :

﴿ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (٣) .

وهؤلاء قال عنهم : ـ ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ﴾ .

لأنه خبر محصن ليس فيه عمل . وهناك : ـ

﴿ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾

لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها ، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم ، فقال : ـ

﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾ (٤) .

والذي جاء به الرسول كما قال : ـ

---

(١) سورة النجم آية رقم من ٢٧ ـ ٣٠

(٢) الزخرف آية رقم ١٩ .

(٣) الزخرف آية رقم ١٩ .

(٤) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (١) .

وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذي لا يغني من الحق شيئا كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب ، أو خطاب ألقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلا ، أما إن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهاناً وأدلة قطعية ، وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ، ومعان متشابهة ، لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك في جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وهذه هي الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فإما أن تكون كذباً على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع إما في الإسناد وإما في المتن ودلالته على ما ذكر ، وهذه الحجة السمعية هذه حجة أهل العلم الظاهر .

« لأهل الحق إلهامات صحيحة »

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر » (٢) .

---

(١) سورة النجم الآيات من ١ ـ ٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري ٧ : ٤٠ و٤١ في فضائل أصحاب النبي ـ ﷺ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه مسنداً ومعلقاً وفي الأنبياء باب ما ذكر عن بني اسرائيل ومسلم ٢٣٩٨ في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه من حديث عائشة .

وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنها تجلي لهم أمور صادقة .

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : ـ

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (١) ثم قرأ قوله : ـ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٢)

وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم

= قال الحميدي : أخرجه أبو مسعود في المتفق بين البخاري ومسلم ، ولم يخرجه مسلم عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وإنما أخرجه عن أبي سلمة عن عائشة .

(١) قال في الدرر رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد، وقال في التمييز تبعاً للأصل رواه الترمذي وقال غريب ، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الديلمي بعد أن عزاه للترمذي عن أبي سعيد ، قال وزاد بعضهم وينطق بتوفيق الله ، قلت لم أقف على هذه الزيادة انتهى وقال في الأصل ورواه الطبراني وأبو نعيم والعسكري عن ثوبان رفعه بلفظ احذروا دعوة المسلم وفراسته فإنه ينظر بنور الله وينظر بتوفيق الله ، ورواه العسكري عن أبي الدرداء موقوفاً بلفظ اتقوا فراسة العلماء فإنهم ينظرون بنور الله ، إنه شيء يقذفه الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم ورواه الديلمي عن أبي الدرداء بلفظ « اتقوا فراسة العلماء فوالله إنه لحق يقذفه الله في قلوبهم ويجعله على أبصارهم»، وطرقه كلها ضعيفة ، وبعضها متماسك فلا يليق مع وجوده الحكم على الحديث بالوضع لا سيما ورواه الطبراني والبزار وأبو نعيم بسند حسن عن أنس رفعه : إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم ونحوه ، قول النبي ﷺ ـ لعمران بن حصين وقد أخذ بطرف عمامته من ورائه ، واعلم أن الله يحب الناظر الناقد عند مجيء الشبهات وفي مستدرك الحاكم عن عروة مرسلاً أن النبي ـ ﷺ ـ قال : إن لكل قوم فراسة وإنما يعرفها الأشراف . قيل والمراد بهم المؤمنون جميعاً بين الأحاديث ، وحكم عليه الصغاني بالوضع .

وقال النجم : ورواه البخاري في التاريخ والترمذي والعسكري والخطيب وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد وزاد ثم قرأ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم انتهى .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .

وأسماعهم . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : -
« ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » وفي رواية : « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي » فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به[1] .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه ، وقال ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده »،[2] وقال الله تعالى :

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾،[3] نور الإيمان مع نور القرآن . وقال تعالى : -

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [4]

وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر بما أقربه حذاق النظار كما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله تحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق ٣٨ باب التواضع ٦٥٠٢ حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال ، حدثني شريك بن عبد الله بن أبي تمر عن عطاءعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٢) الحديث رواه الترمذي في كتاب الأحكام ١ باب ما جاءعن رسول الله ﷺ - في القاضي ١٣٢٣- حدثنا هناد حدثنا وكيع عن اسرائيل عن عبد الأعلى عن بلال بن أبي موسى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام ١ باب ذكر القضاء ٢٣٠٩ بالسند السابق بلفظ : من سأل القضاء وكل الى نفسه ، ومن جبر عليه نزل اليه ملك فسدده » .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٧

النظر ، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري ـ للرازي ورفيقه وقد قالا له يا شيخ ! : بلغنا أنك تعلم علم اليقين ، فقال : نعم ! فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده ؟ فقال : ـ هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن تحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة .

« العلم الضروري والعلم النظري »

فتبين له أن الحق مع أهل الإثبات ، وأن الله سبحانه فوق سماواته ، وعلم ذلك بالضرورة ، رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيري حكاها له ، وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه ، وكلام المشايخ في مثل هذا كثير . وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يمكنه معه هذا الانفكاك عنه » .

هذا حد القاضي أبي بكر بن الطيب [١] وغيره ، فخاصته أنه يلزم النفس لزوماً لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوماً لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال : واردات : لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا ، وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار ، متقدميهم كالكيا الهراسي [٢] والغزالي [٣] وغيرهما . ومتأخريهم ـ كالرازي والآمدي ـ وقالوا

---

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء

(٢) هو علي بن محمد بن علي ، أبو الحسن الطبري ، الملقب بعماد الدين المعروف بالكيا =

نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر ، هذا لا ندفعه ، لكن إن لم يكن علماً ضرورياً فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه ، بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه . قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل ، وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع لكن يقع أيضاً ما يظن أنه منه كثير ، أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع في الأدلة العقلية والسمعية فمن هؤلاء من يسمع خطاباً أو يرى من يأمره بقضية ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب هم الجن ، وهو يحسب أنه أنسي ، وقد يقول له ؛ أنا الخضر (1) ، أو الياس ، بل أنا محمد ، أو ابراهيم الخليل ، أو المسيح ، أو

= الهراسي ، فقيه شافعي ، مفسر ولد في طبرستان ٤٥٠ هـ وسكن بغداد فدرس بالنظامية ووعظ وأتهم بمذهب الباطنية فرجم ، وأراد السلطان قتله فحماه المستظهر وشهد له من كتبه أحكام القرآن توفي عام ٥٠٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٢٧ وتبين كذب المفتري ٢٨٨ ومرآة الزمان ٨ : ٣٧]

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجة الاسلام فيلسوف ، متصوف ، له نحو مئتي مصنف ولد عام ٤٥٠ هـ وتوفي عام ٥٠٥ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وشذرات الذهب ٤ : ١٠ والوافي بالوفيات ١ : ٢٧٧ ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ - ٢١٠ وتبين كذب المفتري ٢٩١ - ٣٠٦ ومعجم المطبوعات ١٤٠٨ - ١٤١٦ وآداب اللغة ٣ : ٩٧ والفهرس التمهيدي ١٦٤ وفي اللباب ٢ : ١٧٠]

(١) اسمه بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكان أبوه من الملوك واختلفوا في سبب تلقيبه بالخضر فقال الأكثرون لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء والفروة وجه الأرض وقيل الهشيم من النبات وقيل إنه كان إذا صلى اخضر ما حوله

أبـو بكر ، أو عمـر ، أو أنـا الشيـخ فـلان ، أو الشيـخ فـلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به في الهواء ، أو يأتيه بطعام أو شـراب أو نفقة ، فيـظن هذا كرامة ، بل آية ومعجزة تدل على أن هـذا من رجـل الغيب أو من الملائكـة ، ويكون ذلك شيطاناً لبس عليه ، فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات .

فهؤلاء يتبعون ظناً لا يغني من الحق شيئاً ولو لم يتقـدموا بين يـدي الله ورسوله ، بل اعتصموا بالكتاب والسنة لتبين لهم أن هذا من الشيـطان ، وكثير من هؤلاء يتبـع ذوقه ووجـده وما يجـده محبوبـاً اليـه بغيـر علم ولا هـدى ولا بصيـرة ، فيكون متبـعاً لهواه بـلا ظن ، وخيـارهم من يتبـع الـظن ومـا تهـوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحـدهم حجة ذكـر تقليده لمن يحبـه من آبائـه وأسلافه ، كقول المشركين : -

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١)

وإن عكسوا احتجوا بـالقدر ، وهـو أن الله أراد هذا وسـلطنا عليه ، فهم يعملون بهـواهم وإرادة نفـوسهم بحسب قـدرتهم كـالملوك المسلطين ، وكـان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله ، فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله ، فيقولون :

= والصحيـح الأول لما في الحـديث الصحيح من سنـد البخاري إنمـا سمي الخضر خـضراً لأنه جلس على فـروة بيضاء فإذا هي تهتز تحتـه خضراء وكنيتـه الخضر أبـو العباس وهـو صـاحب موسى النبي عليه السلام واختلف العلماء في حيـاة الخضر وفي نبـوته فقـال الأكثرون هـو حيّ موجود بين أظهرنا وذلك مجمع عليه عند المشايخ والصوفية - قال الشيخ أبو عمرو بن الصـلاح في فتاويه هو حيّ عند جماهير العلماء والصالحين والعـامة معهم في ذلـك وإنما شـذ بإنكـاره البخاري وابن المبارك والحربي وابن الجوزي واختلف في كونه مرسلا فقـال القشيري لم يكن الخضر نبياً وإنما كان ولياً وقال المـاوردي في تفسيره قيـل هو ولي وقيـل نبي . . . الخ راجـع بصائر ذوي التمييز ٦ : ٧٦ - ٧٧

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٣

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١)

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجد ، وقد كان النبي ﷺ يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد (٢) .

فالذوق والوجد هو يرجع الى حب الانسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : ـ

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ﴾ (٣)

وقال تعالى : ـ

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام ٣ باب ما يكره من كثرة السؤال ، ومن تكلف ما لا يعنيه وقوله تعالى ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ٧٢٩٢ ـ حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراد كاتب المغيرة قال : كتب معاوية الى المغيرة : اكتب إلي ما سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ فكتب اليه : إن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول في دبر كل صلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وذكره . وأخرجه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٣٨ باب اعتدال أركان الصلاة وتحقيقها في تمام ١٩٤ ـ بسنده عن شعبة عن الحكم . وأخرجه الامام مالك في كتاب القدر ٢ باب جامع ما جاء في أهل القدر ٨ عن مالك عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي وذكره .

(٣) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [1] .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة فإنما يتبع ظناً لا يغني من الحق شيئاً ، فليس في المحدثين الملهمين أفضل من عمر ، كما قال ﷺ « إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم »[2] وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ، ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله ؛ بل يجعل ما ورد عليه إذ تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع الى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه ، فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه ، كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره في مانعي الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع إليها كما جرى في مهور النساء ، ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر ، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين أخطأوا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم ، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول .

وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال له : أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين ، وإما من اليهود

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(2) سبق تخريج هذا الحديث قريباً .

والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لـك أنه وحي من الله ؟ ومن أين لـك أنه ليس من وحي الشيطان ؟

« الوحي قسمان »

و« الـوحي » وحيـان : وحي من الـرحمن ، ووحي من الشيـطان ، قـال تعالى : -

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (١)

وقال تعالى : -

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُـوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ﴾ (٢)

وقال تعالى : -

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٣)

وقد كان المختار بن أبي عبيد(٤) من هذا الضرب . حتى قيل لابن عمر

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢١

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٢

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١

(٤) هو المختار بن أبي عبيـد بن مسعود الثقفي أبـو اسحاق ، من زعمـاء الثائـرين على بني أمية ، وأحد الشجعان الأفذاذ من أهل الطائف انتقل منها الى المدينة مع أبيـه في زمن عمر ، وتـوجه أبوه الى العراق فاستشهد يوم الجسر وبقي المختار في المدينـة منقطعـاً الى بني هاشم وتـزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب اخته ثم كان مع علي « بـالعراق » وسكن البصـرة بعد علي ولمـا قتل « الحسين » سنة ٦١ هـ انحرف المختار عن عبيـد الله بن زياد أميـر البصرة فقبض عليـه ابن زيـاد وجلده وحبسه ونفـاه بشفاعـة ابن عمر الى الـطائف ولما مـات يزيـد بن معاويـة سنة ٦٤ هـ ذهب المختار الى عبد الله بن الزبير وعاهده وشهـد معه بـداية حـرب الحصين بن نمير ثم استأذنه في التوجه الى الكوفة ليدعو الناس الى طاعته فوثق بـه وأرسله ووصى عليه غيـر أنه =

وابن عباس . قيل لأحدهما : إنه يقول إنه توحى إليه فقال : ـ

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾

وقيل للآخر : إنه يقول إنه ينزل عليه ، فقال : ـ

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (1)

« طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر . »

فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره ، كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس والخبر والنظر ، وكل إنسان [يستدل] من هذه الثلاثة في بعض الأمور ، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين ، كالطب فإنه تجربات وقياسات ، وأهله منهم من تغلب عليه التجربة ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس ، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلة والمناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها ، والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا الكلية ، فلا بد له من الحسيات التي هي الأصل ليعتبر بها ، والحس إن لم يكن مع

= كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا الحسين وقتلوه فدعا إلى إمامة محمد بن الحنفية فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سراً ، فخرج بهم على والي الكوفة عبد الله بن مطيع فغلب عليها واستولى على الموصل، وعظم شأنه ـ قتله مصعب بن الزبير عام ٦٧ هـ . [راجع الإصابة ت ٨٥٤٧ والفرق بين الفرق ٣١ ـ ٣٧ وابن الأثير ٤ : ٨٢ ـ ١٠٨ والطبري ٧ : ١٤٦ والحور العين ١٨٢]

(1) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .

صاحبه عقل وإلا فقد يغلط . والناس يقولـون : غلط الحس ، والغلط تارة من الحس ، وتارة من صاحبه ، فإن الحس يـرى أمرا معيناً ، فيظن صـاحبه فيـه شيئا آخر فيؤتى من ظنه ، فلا بد له من العقل .

ولهـذا النائم يـرى شيئا ، وتلك الأمـور لهـا وجـود وتحقيق ، ولكن هي خيالات وأمثلة ، فلما عزب ظنها الـرائي نفس الحقائق كـالذي يـرى نفسه في مكان آخر يكلم أمواتا ويكلمونه ، ويفعل أمورا كثيرة وهو في النوم ، يجزم بأنه نفسه الذي يقول ويفعل ، لأن عقله عزب عنه ، وتلك الصـورة التي رآها مثـل صـورته وخيـالها ، لكن غـاب عقله عن نفسه ، حتى ظن أن ذلـك المثال هـو نفسه فلما ثـاب اليه عقله علم أن ذلـك خيالات ومثـالات ، ومن الناس من لا يغيب عقله ، بـل يعلم في المنام أن ذلـك في المنـام ، وهـذا كـالـذي يـرى صورته في المرآة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص ، حتى أنـه يفعل بـه ما يفعـل بالشخص ، وهـذا يقـع للصبيـان والبله ، كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل ، فيظنونه شخصا حقيقة ، ولا يعلمون أنه خيال ، فالحس إذا أحس [حسّاً] صحيحا لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميـز بين هذا العين والمثـال ، فإن العقـل قد عقـل قبل هذا أن مثل هذا يكـون مثالا . وقـد عقل لـوازم الشخص بعينه ، وإنـه لا يكون في الهواء ولا في المرآة ، ولا يكون بـدنه في غيـر مكانـه ، وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج ، وما لا يكون موجودا إلا في أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعـرفه كـل أحـد ، ولكن قد يـرون في الخارج أشخـاصا يـرونها عيـانـا ، ومـا في خيـال الإنسـان لا يراه غيـره ويخاطبهم أولئـك الأشخاص ، ويحملونهم ، ويـذهبون بهم الى عرفات فيقفون بها وإما الى غير عـرفات ، ويـأتوهم بـذهب وفضة ، وطعام ولباس ، وسلاح وغير ذلـك ، ويخرجـون إلى الناس ، ويـأتونهم أيضـا بمن يطلبونه ، مثل من يكـون له إرادة في امـرأة أو صبي ، فيأتـونه بـذلك إمـا

محمولا في الهواء وإما بسعي شديد ، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوي ما لم يمكنه المقام معه أو يخبر أنه سمع خطابا ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه ، فهذا كله موجود كثيرا ؛ لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر .

ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ، ويقول : هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنهم من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن تسموا فقالوا : هذا هو الخضر ، وهذا هو الياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر (١) أو الشيخ عدي أو الشيخ أحمد الرفاعي (٢) أو غير ذلك ظن أن الأمر كذلك .

فهنا لم يغلط ولكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت

---

(١) هو عبد القادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني ، أو الجيلي مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان عام ٤٧١ وانتقل الى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب الوعظ وتفقه ، وسمع الحديث وقرأ الأدب ، واشتهر ، وكان يأكل من عمل يده وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ وتوفي بها عام ٥٦١ هـ له كتب منها « الغنية لطالب الطريق الحق » و« الفتح الرباني » وغير ذلك كثير . [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧١ وطبقات الشعراني ١ : ١٠٨ - ١١٤ وفوات الوفيات ٢ : ٢ ونور الأبصار ٢٢٤ وشذرات الذهب ٤ : ١٩٨]

(٢) هو أحمد بن علي بن الرفاعي الحسين أبو العباس الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق عام ٥١٢ هـ وتفقه وتأدب في واسط ثم سكن قرية أم عبيدة بالبطائح وتوفي بها عام ٥٧٨ هـ وقد صنف كثيرون كتبا خاصا به وبطريقته وفي كتاب عجائب واسط لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مائة وثمانين ألفا في حال حياته وجمع بعض كلامه في رسالة سميت « رحيق الكوثر » [راجع ابن خلكان ١ : ٥٥ وابن الساعي ١١٢ وفيه نسبه . ومرآة الزمان ٨ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ١٢١]

على صور هؤلاء ، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي ﷺ أو الشيخ وهو صادق في أنه إياه من قال إنه النبي ، أو الشيخ ، أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك.

والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي ﷺ ، تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع ، مثل أن يأمروه بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلم أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحدا من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي ، وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره ، وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا .

وهذا يقع كثيرا لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رقيقة فلان ، وقد يقولون : هو معناه تشكل وقد يقولون : روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحدا يغسلني ولا فلانا يحضرني ، فإني أنا أغسل نفسي ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنيا قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقا ، فإنه كان في حياته يقول له أمورا وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاء المشركين كالهند فهذا كثيرا ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ، ورد ودائع ، وقضى ديونا ، ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شيطان تصور في صورته .

ومن هؤلاء من يكون في جنازة أبيه أو غيره ، والميت على سريره وهو يراه آخذا يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخا بعد أبيه فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطانا ، ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالدا وغير خالد ، وقال لهم إنه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ويسمونه خالدا الغيبي ، وينسبون الشيخ إليه فيقولون : محمد الخالدي ونحو ذلك .

« الجن مكلفون كالأنس »

فإن الجن مأمورون ومنهيون ، كالإنس وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : -

﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (١) .

وهذا بعد قوله :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإِنْسِ . وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ (٢) .

« الاستمتاع بين الإنس والجن »

قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتم من الإنس وأضللتموهم . قال البغوي (٣) : قال بعضهم : استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم : من الأراجيف ، والسحر ، والكهانة ، وتزيينهم لهم الأمور التي

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٣٠ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٨ .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان ، أبو القاسم البغوي : حافظ للحديث من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ ـ النسبة اليها بغوي) ومولده ووفاته ببغداد ، كان محدث العراق في عصره له « معالم التنزيل » في التفسير ، و« معجم الصحابة » و« الجعديات » في الحديث . [راجع معجم البلدان : بغشور] واللباب ١ : ١٣٣ وميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ : ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١]

يهيؤنها ويسهل سبيلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي .

قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض ، وموافقة بعضهم بعضا ، وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري . قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس ، .

وعن محمد بن كعب قال : هو الصّحابة في الدنيا .

وقال ابن السائب [١] : استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم . واستمتاع الجن بالإنس أن قالوا : قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفا في أنفسهم ، وعظما في نفوسهم وهذا كقوله : -

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [٢]

قلت : « الاستمتاع بالشيء » هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض كما قال : -

﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [٣]

---

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النضر نسابة راوية عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة . شهد موقعة دير الجماجم مع ابن الأشعث وصنف كتابا في تفسير القرآن وهو ضعيف الحديث قال النسائي حدث عنه الثقات من الناس ورضوه في التفسير ، وأما في الحديث ففيه مناكير وقيل كان سبئيا من أصحاب عبد الله بن سبأ وهو أبو هشام صاحب كتاب الأصنام توفي عام ١٤٦ هـ . [راجع تهذيب التهذيب ٩ : ١٧٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٦١ والوافي بالوفيات ٣ : ٨٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٣٣ - والفهرست لابن النديم ٩٥ -]

(٢) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٤ .

ومن ذلك الفواحش ، كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله : ـ

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ (١)

وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم ، وأدناها كسوة تجزى فيها الصلاة .

وفي « الجملة » استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس . قال تعالى : ـ

﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ـ ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ (٣)

قال مجاهد : هي المودات التي كانت لغير الله . وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا . ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٥)

فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣٦ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٦٧ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٦٦ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٢٥ .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .

يهواه ، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

وتـارة يـخـدم هؤلاء لـهؤلاء في أغـراضهـم ، وهؤلاء لـهؤلاء في أغراضهم ، فالجن تـأتيه بمـا يريـد من صورة أو مـال أو قتل عـدوه ، والإنس تطيع الجن ، فتارة تسجد له ، وتارة تسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة تمكنه من نفسه ، فيفعل بـه الفاحشـة ، وكذلـك الجنيات منهن من يـريد من الإنس الذي يخدمنه ما يـريد نسـاء الإنس من الرجـال ، وهذا كثيـر في رجال الإنس ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي ، وقـد يفعل ذلـك بالـذكران . وصـرع الجن للإنس هـو لأسباب ثـلاثة : تـارة بكون الجن يحب المصـروع فيصـرعـه ليتمتـع بـه ، وهـذا الصـرع يكـون أرفق من غيـره وأسهل ، وتارة يكون الإنس آذاهم إذا بال عليهم ، أو صب عليهم ناراً حارة ، أو يكون قتل بعضهم أو غير ذلك من أنواع الأذى وهذا أشد الصرع ، وكثيرا ما يقتلون المصـروع ، وتارة يكون بـطريق العبث بـه كمـا يعبث سفهـاء الإنس بأبناء السبيـل . ومن استمتاع الإنس بـالجن استخدامهم في الأخبـار بالأمـور الغـائبة ، كمـا يخبر الكهـان . فـإن في الإنس من لـه غـرض في هـذا ، لمـا يحصل به من الـرياسـة والمال وغيـر ذلك . فـإن كان القـوم كفارا كمـا كانت العرب لم تبال بأن يقال : إنه كاهن كما كان بعض العرب كهانـا ، وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهـان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان ، فـإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي ، بأنه يطيعه الإنسي في بعض ما يريده إما في شرك وإما في فاحشة وإما في أكل حـرام ، وإما في قتل نفس بغير حق .

فـالشياطين لهم غـرض فيما نهى الله عنـه من الكفر والفسـوق والعصيان [١] ،

---

(١) قال تعالى : ﴿ وأنـه كان رجـال من الإنس يعوذون بـرجال من الجن فـزادوهم رهقاً ﴾ سـورة =

ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك وإن لم يكن فيه منفعة لهم. وهم يأمرون السارق أن يسرق ، ويذهبون إلى أهل المال ، فيقولون : فلان سرق متاعكم ؟ ولهذا يقال : القوة الملكية ، والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا منفعة فيه ، ويحب ذلك ، كما فعل ابليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المحسود ، لكن يبغض ذلك ، وقد يكون بغضه لفوات غرضه ، وقد لا يكون .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام ، وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك ، وقد يدلونه على كنز وغيره ، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

الجن آية رقم ٦ .

أي زاد الجن الإنس « رهقا » أي خطيئة وإثماً قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والرهق الإثم في كلام العرب وغشيان المحارم ورجل رهق إذا كان كذلك ومنه قوله تعالى :﴿ وترهقهم ذلة ﴾ وقال الأعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها ... هل يشتفي وامق ما لم يصب رهقا

يعني إنما . وأضيفت الزيادة الى الجن إذ كانوا سببا لها ، وقال مجاهد أيضاً « فزادوهم » أي أن الإنس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ ، حتى قالت الجن : سدنا الإنس والجن ، وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فرقاً وخوفاً من الجن .

وقال سعيد بن جبير : كفراً .

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه . وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه ، ثم إن الشيخ يقول : نعم ، ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل ، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه ، وهو الذي فعل ذلك حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده في إناء يأكل ، فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء ، فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أنه يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر ، والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد ، حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله .

وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء أو غير ذلك . فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظما ، وأراد أن يدله على سرقته ، مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال ، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه ، لأن الذي سرق المال معه أيضا جني يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضا ، فإذا دل الجني عليه جاء اليه أولياء السارق فآذوه ، وأحيانا لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب من يعرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به ، إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف

سارقه ، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

والجن مكلفون كتكليف الإنس ، ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بالنصوص وإجماع المسلمين .

وأما مؤمنوهم ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضا ويدخلون الجنة ، وقد روي أنهم يكونون في ربطها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس عكس الحال في الدنيا ، وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج إلى النظر في إسناده .

وقد احتج ابن أبي ليلى [1] وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى : ـ

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [2]

وقد ذكر الجن والإنس : الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي [3] وغيره بقوله تعالى : ـ

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار (وقيل : داود) ابن بلال الانصاري الكوفي قاض فقيه ، من أصحاب الرأي ، ولي القضاء والحكم بالكوفة لبني أمية ، ثم لبني العباس واستمر ٣٣ سنة له أخبار مع الإمام أبي حنيفة وغيره ،مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ .
[راجع تهذيب التهذيب ٩ : ٣٠١ وميزان الاعتدال ٣ : ٨٧ ووفيات الأعيان ١ : ٤٥٢ والوافي بالوفيات ٣ : ٢٢١ وفيه وفاته سنة ١٤٩]

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي من قبيلة الأوزاع أبو عمرو : إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، وأحد الكتاب المترسلين ، ولد في بعلبك عام ٨٨ هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها عام ١٥٧ هـ وعرض عليه القضاء فامتنع قال صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ، كان الأوزاعي عظيم الشأن بالشام ، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان. له كتاب « السنن » في الفقه ، والمسائل ، ويقدر ما سئل عنه من الأمور بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها .
[راجع ابن النديم ١ : ٢٢٧ والوفيات ١ : ٢٧٥ وتاريخ بيروت ١٥ وحلية الأولياء ٦ : ١٣٥

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ، وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ (١) .

وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة . وقوله : ـ

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ في أَصْحَابِ الجَنَّةِ ﴾ (٢) .

ثم قال : ـ

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٣)

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ودرجات أهل النار تذهب سفلاً ، وقد قال تعالى عن قول الجن : ـ

﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ ومِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ (٤)

وقالوا : ـ ﴿ وَإِنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً . وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ (٥) .

ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الانس . وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ،

= وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ٢٩٨ والمعارف ٢١٧]

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٨ ـ ١٩

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٦ .

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الجن آية رقم ١١ .

(٥) سورة الجن آية رقم ١٤ ، ١٥ .

والفساق مع المفسدين . وأهل البدع والجهل مع أهل الجهل والبدع . واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء : منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بغير علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين ، وإنما هو من أفعال الشياطين .

ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم ، أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك . و «النوع الثالث» أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله ، كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل الخلق ، فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله ، إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً بذلك إلى الثقلين ، الإنس والجن . وقد قال الله له : ـ

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

وعمر رضي الله عنه لما نادى ياسارية(٣) الجبل ؟ قال : إن لله جنوداً

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

(٣) هو سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدئلي : صحابي من الشعراء القادة الفاتحين ، كان في الجاهلية لصاً كثير الغارات ، يسبق الفرس عدواً على رجليه ، ولما ظهر الإسلام =

يبلغـون صوتي ، وجنـود الله هم من الملائكـة ومن صـالحي الجن فجنـود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية ، وهو أنهم نـادوه بمثل صـوت عمر ، والا نـفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يـدعو آخـر وهو بعيد عنه . فيقول : يا فلان ؟ فيعان على ذلك فيقول : الواسطة بينهما يا فلان . وقد يقول لمن هو بعيد عنه يا فلان احبس الماء ، تعال إلينـا ، وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك يا فلان احبس الماء ، أرسل الماء ، إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه . وهذه حكاية : كان عمر مرة قد أرسـل جيشاً فجـاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر ، فقـال عمر ؛ من أين لكم هـذا ؟ قالـوا لشخص صـفته كيت وكيت فـأخبرنـا ، فقال عمـر ذاك أبـو الهيثم بريد الجن ، وسيجيء بريد الانسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج الناس يتحدثون بـه ، فـإن الجن تسمعـه وتخبـر بـه النـاس ، والـذين يستخـدمـون الجن في المباحات يشبـه استخدام سليمـان ، لكن أعطي ملكـا لا ينبغي لأحد بعـده . وسخـرت له الإنس والجن ، وهـذا لم يحصـل لغيـره ، والنبي ﷺ لمـا تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال « فأخذته فذغته [1] حتى سال لعابـه على يـدي ، وأردت أن أربطه إلى سـارية من سـواري المسجد ، ثم ذكـرت دعـوة أخي سليمـان فـأرسلتـه [2] » فلم يستخـدم الجن أصـلا ، لكن دعـاهم إلى

= أسلم ، وجعله عمر أميراً على جيش وسيره الى بلاد فارس سنة ٢٣ هـ ففتح بلاداً منها أصبهان في رواية ، وهو المعني بقول عمر : يا سارية الجبل توفي عام ٣٠ هـ [راجع الاصابة الترجمة ٣٠٣٤ وتهذيب ابن عساكـر ٦ : ٤٣ وتاريـخ الإسلام للذهبي ٢ : ٤٩ والنجـوم الزاهـرة ١ : ٧٧]

(١) فذغته : أي خنقته .

(٢) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة . ٨ ـ بـاب جواز لعن الشيـطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه ، وجواز العمل القليل في الصلاة ٣٩ (٥٤١) حـدثنا اسحـاق بن

الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن ، وبلغهم الرسالة ، وبايعهم كما فعل بالإنس . والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان . فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين . وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء ، وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك - من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وأهل البدع والضلال من الداخلين في الإسلام فجعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا : كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها .

« خاصة المعجزة عند المعتزلة »

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك ، وأن يقيض له من يعارضه ، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي مما لم يكن معتاداً للناس ، قالوا : إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة ، فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة ، لكن انكروا كرامات الصالحين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس

= ابراهيم واسحاق بن منصور قالا : أخبرنا النضر بن شميل أخبرنا شعبة ، حدثنا محمد (وهو ابن زياد) قال : سمعت أبا هريرة يقول وذكره - ورواه البخاري في الصلاة ٧٥ والعمل في الصلاة ١٠ والأنبياء ٤٠ وتفسير سورة ٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٩٨ ، ٥ : ١٠٤ ، ١٠٥ (حلبي)

الشعبذة والحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك . وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي ، قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع .

وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها يكون للسحرة ما هو مثلها ، وتناقضوا في ذلك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة ، فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ، ثم يقولون : الولي إذا تولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالأضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة ، وأكل الخبائث والخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش ، والفحش والتفحش في المنطق ، وظلم الناس وقتل النفس بغير حق ، والشرك بالله ، وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين تضل بها الناس وتغويهم .

« ظهور الجن في صور الصالحين »

ودخلت الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق ، وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لي ، ويلبسه فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول : أنا الشيخ فلان فلا شك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره . وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ ، وقد يخلصونه مما يكره فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه ، أو أن

ملكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين ، والملائكة لا تجيب مشركاً .

وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً، ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت ، فيأتيه في صورة أنسي ويسقيه ويدعوه إلى الإسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويتوبه ويطعمه ، ويدله على الطريق ، ويقول من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون [من مؤمني الجن] .

كما جرى مثل هذا لي ، كنت في مصر في قلعتها ، وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس ، فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم ، لما جاؤوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك .

قال لي طائفة من الناس ، فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ قلت : لا : إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

« الجزم بموت الخضر »

وكثير من الناس رأى من قال : إني أنا الخضر ، وإنما كان جنياً . ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر [1] ، وكلا الطائفتين مخطىء ، فإن الذين رأوا من قال : إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون والحكايات متواترات .

---

[1] هذا الجزء في كلمة وافية .

لكن أخطأوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كـان جنياً ، ولهـذا يجري مثـل هذا لليهـود والنصارى ، فكثيراً مـا يـأتيهم في كنـائسهم من يقـول إنـه الخضـر ، وكـذلـك اليهـود يـأتيهم في كنـائسهم من يقـول إنـه الخضـر ، وفي ذلـك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هـذا الموضـع ، يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر ، وأنه غلط في ظنه أنه الخضر وإنما كان جنياً وقد يقول : أنا المسيـح ، أو موسى ، أو محمـد ، أو أبو بكـر ، أو عمر ، أو الشيـخ فلان ، فكل هذا قد وقع ، والنبي ﷺ قال : « من رآني في المنام فقـد رآني حقاً فـإن الشيـطان لا يتمثل في صـورتي »[1] قال ابن عبـاس : في صـورتـه التي كـان عليها في حياته . وهذه رؤ يـة في المنام ، وأمـا في اليقظة فمن ظن أن أحـداً من الموتى يجيء بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتى .

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقـدوا أن المسيح بعـد أن صلب ـ كما يظنون أنه أتى ـ إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكـور في أناجيلهـم ، وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كـان شيطانـاً قال : أنـا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه . ويجوز أن يشتبه مثل هـذا على الحواريين كمـا اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغـه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه . ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه ، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء . وأصحاب الحلاج[2] لما قتل كان يأتيهم

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة ، وأبي قتادة ، ورواه ابن ماجه عن أبي جحيفـة وحذيفـة وغيرهمـا ، وفي لفظ لبعضهم « فقـد رآني فإن الشيـطان لا يتمثـل بي». ورواه أحمـد عن أبي قتـادة بلفظ الترجمة وزيادة « فإن الشيطان لا يتزيا بي». ورواه مسلم في كتاب الـرؤ يا ١ بـاب قول النبي ـ ﷺ ـ «من رآني في المنـام فقـد رآني» ١١ أخبـرنا ابن وهب، أخبـرني يونس عن ابن شهـاب، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول : وذكره .

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج أبو مغيث عـد في زمرة الملحـدين أصله من بيضاء فـارس ونشأ بواسط العراق ، وانتقل الى البصرة وحـجَّ ، ودخل بغـداد ، وعاد الى تستـر ، وظهر أمـره سنة ٢٩٩ هـ كـان يظهـر مذهب الشيعـة للحلول « العباسيين »ومـذهب الصـوفيـة للعـامـة وهـو في تضـاعيف ذلك يـدعي حلول الالهية فيـه أمر المقتدر العبـاسي بـالقبض عليه ، فسجن وعـذب =

من يقول : أنا الحلاج . فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي (١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة . وأراني صادقاً من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن ـ وقد رأيت خط الجن غير مرة ـ وفيه كلام من كلام الجن ، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي . وكان يقول : انتقل ثم مات ، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن وقيل كان بعد هذا يأتي أصحابه في صورته ، فيعتقدون أنه هو ، وكذلك الذي كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية (٢) قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته ، وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً .

= وضرب . قال ابن خلكان وقطعت أطرافه الأربعة ثم حز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة من كتبه « طاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة النورية ، والظل المحدود الى غير ذلك . [راجع الفهرست ١ : ١٩٠ ولغة العرب ٣ : ١٥٤ والمشرق ١٢ : ١٩١ وروضات الجنات ٢٢٦ وطبقات الصوفية ٣٠٧ والبداية والنهاية ١١ : ١٣٢ ولسان الميزان ٢ : ٣١٤ وميزان الاعتدال ١ : ٢٥٦ وفيه كان مقتله سنة ٣١١ هـ .]

(١) هو ابراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد ، يتصل نسبه بالحسين السبط ؛ من كبار المتصوفين ، كثير الأخبار من أهل دسوق (بغربية مصر) أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه « الجواهر » وأورد له شعراً ينحو فيه منحى ابن الفارض في وحدة الوجود ، وفي خطط مبارك أنه تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية توفي عام ٦٧٦ هـ .

[راجع طبقات الشعراني ١ : ١٤٣ ـ ١٥٨ وخطط مبارك ١١ : ٧]

(٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي ، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية ، أحد الأبطال الأشداء في صدر الاسلام وهو أخو الحسن والحسين ، غير أن أمهما فاطمة الزهراء وأمه خولة بنت جعفر الحنفية كان يقول : الحسن والحسين أفضل مني ، وأنا أعلم منهما ، كان واسع العلم ورعاً ، وكان المختار الثقفي يدعو الناس إلى أمامته ويزعم أنه المهدي وكانت الكيسانية تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى مولده عام ٢١ ووفاته عام ٨١ هـ .

[راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٦٦ ووفيات الأعيان ١ : ٤٤٩ وصفة الصفوة ٢ : ٤٢ وحلية الأولياء ٣ : ١٧٤]

فهذا باب واسع واقع كثيراً ، ولما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر ، ففي المشركين أكثر مما في النصارى ، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها ، فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه ، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصبرون خيراً مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً . وقد قال النبي ﷺ « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم »(1) .

وهكذا كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي ، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل ويغوى بها كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه .

وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين : من الرافضة والجهمية وغيرهم

---

(1) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب القدر ٥ باب العمل بالخواتيم ٦ . ٦٦ أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لرجل ممن معه يدعي الاسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال ، قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح فأثبتته ، فجاء رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فقال يا رسول الله أرأيت الذي تحدثت أنه من أهل النار قاتل في سبيل الله من أشد القتال فكثرت به الجراح فقال النبي ـ ﷺ ـ أما إنه من أهل النار فكاد بعض المسلمين يرتاب فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده الى كنانته فانتزع منها سهماً فانتحر بها . فاشتد رجال من المسلمين الى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا يا رسول الله : صدَّق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وأخرجه مسلم في الايمان ٤٧ باب غلظ تحريم قتل الانسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ١٧٨ ـ بسنده عن أبي هريرة وابن ماجه في كتاب الفتن ٣٥ والدارمي في السير ٧٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٩ ، ٥ : ٤٥ (حلبي)

إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة الى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة الى الكفار فهو خير .

وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص، قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذباً وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف . ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خيراً من أن يبقى كافراً ، فانتقل الى خير مما كان عليه ، وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه .

والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان : ـ

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١)

وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

مذهب المعتزلة خير من مذهب الرافضة

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تقر

(١) سورة الأحقاف آية رقم ١٩ .

بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكي عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ، ولا أعلم عينها وقالوا إنه قال : لو شهد علي [1] والزبير [2] لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ، ولو شهد علي مع آخر ففي قبول شهادته قولان ، وهذا القول شاذ فيهم ، والذي عليه عامتهم تعظيم علي .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبي موسى [3] وعمرو بن العاص [4]

---

(١) راجع ترجمة له في ابن الأثير : حوادث سنة ٤٠ والطبري ٦ : ٨٣ والبدء والتاريخ ٥ : ٧٣ وصفة الصفوة ١ : ١١٨ واليعقوبي ٢ : ١٥٤ ومقاتل الطالبيين ١٤ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ وشرح نهج البلاغة ٢ : ٥٧٩ ومنهاج السنة ٣ : ٢ وما بعدها ثم ٤ : ٢ الى آخر الكتاب وتاريخ الخميس ٢ : ٢٧٦ والمسعودي ٢ : ٢ - ٣٩ والاسلام والحضارة العربية ٢ : ١٤١ و ٣٧٩ والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ - ٢٤٩ وفيه الخلاف في عمره يوم قتل ، قيل ٥٧ عاماً وقيل ٥٨ و ٦٣ و ٦٥ و ٦٨ والاصابة الترجمة ٥٦٩٠ .

(٢) هو الزبير بن العوام بن خولد الأسدي القرشي أبو عبد الله الصحابي الشجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سل سيفه في الاسلام وهو ابن عمة النبي - ﷺ - وله ١٢ سنة وشهد بدراً وأحداً وغيرهما من المشاهد ، وكان على بعض الكراييس في اليرموك ، وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب ، وجعله عمر في من يصلح للخلافة بعده ، وكان موسراً كثير المتاجر قتل عام ٣٦ هـ قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٣٥٥ والجمع ١٥٠ وصفة الصفوة ١ : ١٣٢ وحلية الأولياء ١ : ٨٩ وذيل المذيل ١١ وتاريخ الخميس ١ : ١٧٢ وفيه كان له ألف مملوك يؤدون الضريبة والبدء والتاريخ ٥ : ٨٣]

(٣) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن خصار بن حرب ، أبو موسى ، من بني الأشعر من قحطان : صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين ، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين ، ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام ، فأسلم - وهاجر الى أرض الحبشة ثم استعمله رسول الله - ﷺ - على زبيد وعدن ، وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ فافتتح أصبهان والأهواز له ٣٥٥ حديثاً توفي عام ٤٤ هـ . [راجع طبقات ابن سعد ٤ : ٧٩ والاصابة ت ٤٨٨٩ وغاية النهاية ١ : ٤٤٢ وصفة الصفوة ١ : ٢٢٥ وحلية الأولياء ١ : ٢٥٦ والمنادى ١ : ٤٨]

=

لأجل علي ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم ، بخلاف طلحة [1] والزبير وعائشة فإنهم يقولون : إن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ، ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض ، وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته ، وحكمته وصدقه ، وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس ، لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من « التوحيد » نفي الصفات وإنكار الرؤية ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا بذلك الجهمية ، وجعلوا من « العدل » أنه لا يشاء ما يكون ، ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيئته وخلقه لاثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة .

وكذلك هم والخوارج قالوا بـ « إنفاذ الوعيد » ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب ، إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

= (٤) هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم ، كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام وأسلم في هدنة الحديبية ، وولاه النبي - ﷺ - إمرة جيش « ذات السلاسل » وأمده بأبي بكر وعمر . توفي عام ٤٣ هـ . راجع الأستيعاب بهامش الإصابة ٢ : ٥٥١ والاصابة ت ٥٨٨٤ وتاريخ الاسلام للذهبي ٢ : ٢٣٥ - ٢٤٠]

(١) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المدني ، أبو محمد ، صحابي شجاع من الأجواد ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد الثمانية السابقين الى الاسلام له ٣٨ حديثاً توفي عام ٣٦ هـ [راجع ابن سعد ٣ : ١٥٣ وتهذيب التهذيب ٥ : ٢٠]

بالسيف » قصدوا به طاعة الله ورسوله ، كما يقصده الخوارج والـزيديـة فغلطوا في ذلك .

وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات قصدوا به إثبات النبوة ونصرها وغلطوا فيما سلكوه ، فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق وذلك لأنهم لم يحققوا خاصة آيات الأنبياء .

« الأشعرية ردوا بدع المعتزلة وغيرهم »

والأشعرية ما ردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم وبينوا ما بينوا من تناقضهم ، وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة ، فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة ، وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي [1] ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم . وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة ، بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يوالهم الأشعري في شيءمنها . بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في « مسائل العدل والأسماء والأحكام » إلى مذهب جهم ونحوه .

وكثير من الطوائف « كالنجارية » [2] أتباع حسين النجار [3]

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبة الطائفة « الجبائية » له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبته الى جبى (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ومات عام ٣٠٣ هـ ودفن بجبى له تفسير حافل مطول رد عليه الأشعري . [راجع المقريزي ٢ : ٢٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥ واللباب ١ : ٢٠٨ ومفتاح السعادة ٢ : ٣٥]

(٢) انظر في شأن هذه الفرقة مقالات الاسلاميين ١ : ٣١٥ والملل والنحل ١ : ٨٨ والتبصير ٦١ =

و« الضرارية »[1] أتباع ضرار بن عمرو[2] يخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام ، وانفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق والصوفية يذمونها ويعيبونها .

وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود ، وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم الى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وروى بإسناده عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه : يقول : فألهمنا دينك الحق ـ وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود . ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم ،

= والفرق بين الفرق ٢٠٧ وما بعدها .

(٣) هو أبو عبد الله : الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، كان حائكاً في طراز العباس بن محمد الهاشمي ، وهو من متكلمي المجبرة ، وقيل إنه كان يعمل الموازين ، وكان إذا تكلم سمع له صوت كصوت الخفاش، وله مع النظام مجالس ومناظرات ، وسبب موته أنه تناظر يوماً مع النظام فأفحمه النظام فقام محموماً ومات عقب ذلك، وقد ذكر ابن النديم هذه المناظرة راجع الفهرست ص ٢٦٨ مصر .

(١) انظر في شأن هذه الفرقة : التبصير ص ٦٢ والتنبيه ص ٤٣ واعتقادات فرق المسلمين ص ٦٩ والملل والنحل ١ : ٩٠ والمقالات ١ : ٣١٣

(٢) هو ضرار بن عمرو وقد ظهر في أيام واصل بن عطاء ، وقد وضع بشر بن المعتمر كتاباً في الرد على ضرار سماه « كتاب الرد على ضرار » وذكر صاحب الانتصار نقلاً عن الراوندي أن له كتاباً سماه « التحريش » ذكر فيه مستند كل فرقة فيما هي عليه من كلام الرسول ـ ﷺ ـ ولا بد أنه قد اختلق فيه ووضع وخب في الباطل ووضع (الانتصار ص ١٣٦) وانظر أيضاً ميزان الاعتدال (٢ : ٣٢٨ الترجمة رقم ٣٩٥٣)

يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين . وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل ، والسلوك في طريقه، وهو النظر . وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول . فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة ، وعظموا جنس النظر ، ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به وبين النظر البدعي الباطل المنهى عنه .

وكذلك « الصوفية » عظموا جنس الإرادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثير منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الارادة البدعية ، بل أقبلوا على طريق الإرادة طريقة النظر ، وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل اليهم النصارى ويميلون اليهم ، وأولئك يميل اليهم اليهود ويميلون اليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض .

وكذلك بين أهل الكلام والرأي ، وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض ، وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

نسأل الله العظيم أن يهـدينا وسـائر إخـواننا الصـراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

فصل
عن التحريفات في التوراة والانجيل

فإن قيل : فإذا كان في كتب الأناجيل التي عندهم أن المسيح صلب ، وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح - ولا يقولون : إن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم - وهذه أثر المسامير أو نحو هذا الكلام ، فأين الانجيل الذي قال الله عز وجل فيه :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ الله فِيهِ ﴾ (١)

وقال قبل هذا :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وآتَيْنَاهُ الإِنْجِيل فِيهِ هُدىً وَنُورٌ ، ومُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ الله فِيهِ ، وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

وقد قال قبل هذا :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْم الله ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٦ ـ ٤٧

ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورُ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ (١) .

وقال أيضاً : ـ

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (٢)

وقال أيضاً :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وهذا أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم ـ وهم من كان في وقته ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة ـ لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم وكذلك قوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ﴾ (٤)

إخبار عن اليهود الموجودين ، وأن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾ (٥)

هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ، ومن لا يؤمر على

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٣ ـ ٤٤
(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٦
(٣) سورة المائدة آية رقم ٦٨
(٤) سورة المائدة آية رقم ٤٣
(٥) سورة المائدة آية رقم ٤٧

لسان محمد ﷺ .

قيل قبل هذا : إنه قد قيل : ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواترها والإنجيل انما أخذ عن أربعة .

ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة أو الانجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال : بل ذلك قليل .وقيل لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب . وإنما حرموا معانيها بالتأويل ، وهذان القولان قال كَـلاًّ منهما كثير من المسلمين .

والصحيح القول الثالث . وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة ، وبقيت الى عهد النبي ﷺ ، ونسخاً كثيرة محرفة ، ومن قال إنه لم يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ويخبر أنه فيهما حكمه ، وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول · هو سبحانه قال :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ ﴾ (١)

وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ، ليس هو مما

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٧

أنزله الله عليهما ولا هو مما أمرا به في حياتهما ، ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك : ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ ﴾ [1]

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوْا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [2]

فإن إقامة الكتاب العمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول ، وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ليس هو مما أنزله الله على الرسول ، ولا مما أمر به ولا أخبر به ، وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه في آخره عمر المصنف ونسبه وسنه . ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

ولهذا أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن ، وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك . والمصاحف القديمة كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفي المصاحف من قد كتبها ناسخها أسماء السور . والتخميس ، والتعشير ، والوقف ، والابتداء ، وكتب في آخر المصحف تصديقه ، ودعا ، وكتب اسمه ، ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه الى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح وإنما هو مما رآه من بعده ، والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله . فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل

---

(1) سورة المائدة آية رقم ٦٨ .

(2) سورة المائدة آية رقم ٦٦ .

والدين ، فقد دخلت الشبهة .

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة في كلام الأنبياء ، وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقا قبل وإلا ردّ ، ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله . لا سيما المتواتر كالقرآن ، وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه فاجماعهم معصوم ، وما تنازعوا فيه ردّ الى الله والرسول ، وعمر قد كان أولا أنكر موت النبي ﷺ حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فصل أبو بكر بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة ، فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ [1] .

والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ، ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإن الذي صلب إنما صلبه اليهود ، ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً ، وأولئك اليهود الذين صلبوه قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح . وقد قيل : إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ، ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس ، والأول هو المشهور ، وعليه جمهور الناس [2] .

وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام . وقال : أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعي [أحدهم] أنه نبي أو صالح . ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطاناً وفي ذلك حكايات متعددة ، مثل حكاية الراهب الذي جاءه جاء وقال : أنا المسيح جئت لأهديك ، فعرف أنه الشيطان فقال : أنت قد بلغت الرسالة ، ونحن

---

(١) راجع ما كتبه الامام الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » بشأن الخلافات التي حدثت في حياة المسلمين ، وراجع مقدمة شرح العقيدة الطحاوية بتحقيقنا .

(٢) قال تعالى : ﴿ وما صلبوه وما قتلوه ، ولكن شبه لهم ﴾ .

نعمل بها ، فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند اليهود والنصارى علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (١) .

وأضاف الخبر عن قتله الى اليهود بقوله : -

﴿ وَقَوْلِهِمْ ، إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ﴾ (٢) فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة ، إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن جوز قتله فهو كمن قتله ، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون . وإذا قالوا فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه . وقد قال النبي ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه » (٣)

« تفسير قوله تعالى : وإن الذين اختلفوا فيه »

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ (٤)

قيل : هم اليهود وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين . وقوله : -

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في الفتن « باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما » ٣٩٦٤ - ثنا يزيد بن هارون عن سليمان التيمي وسعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة عن الحسن عن أبي موسى قال قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات . وأخرجه النسائي في التحريم ٢٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٥٧ .

﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ قيل : من قتله . وقيل : منه أي في شك منه هل صلب أم لا ، كما اختلفوا فيه فقالت اليهود هو ساحر ، وقالت النصارى إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ، وهم في شك من ذلك : ـ

﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾

فإذا كان هذا في الصلب فكيف في الذي جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح ؟ فإن قيل : [إذا] كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في ايمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم : ـ

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١)

وقوله : ـ

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (٢)

قيل : ظن من ظن منهم أنه صلب لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح . بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله . وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب لا يقدح في إيمانه ، فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له ، وقتل النبي لا يقدح في نبوته ، وقد قتل بنو اسرائيل كثيراً من الأنبياء ـ قال تعالى : ـ

﴿ وَكَأَيِّنْ مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِير ﴾ (٣) الآية وقال تعالى : ـ

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ علىٰ أعْقابِكُمْ ﴾ (٤)

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة الصف آية رقم ١٤ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٤٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤ .

وكذلك اعتقاد من يعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم هو . مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين أن النبي ﷺ جاءهم في اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة واتباعاً له ، وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره ، فكذلك ظن من ظن من الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ، ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه [1] ، لم يكن هذا قادحاً في ايمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

« والله أعلم »

---

(١) لما اختار الله تعالى رسوله الى الرفيق الأعلى ، وسمع المسلمون ذلك اشتد الحزن بهم وعلا ضجيجهم ، ومن شأن الحزن إذا اشتد أن يغطي على العقول ، وكان من الذين غلبهم الحزن عمر بن الخطاب ، فشهر سيفه وقال : من قال إن رسول الله قد مات ضربته بسيفي هذا فجاء أبو بكر فقال : كلمته المشهورة وتلا عليهم قوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ فسكن عمر وثاب المسلمون الى الصواب ، وكان عمر يقول : والله لقد أنسيت هذه الآية ، ولكأني لم أسمعها حتى سمعتها من أبي بكر .

فصل
في النعي على الكفار لاتباعهم الظن وتنوع طرق الناس في جواز هذا . .

وقوله تعالى في هذه : ـ

﴿ ما لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ [1].

هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم ، وكذلك قوله : ـ

﴿ إنْ هِيَ إلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ . إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ [2] .

وكذلك قوله : ـ

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ، وَإنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ [3]

وقوله تعالى : ـ

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنْ

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٧

(٢) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٨ .

هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ (١) .

وقـوله : ـ ﴿ أَفَمَنْ يَهْـدِي إلَىٰ الحَقِّ أَحَقُّ أن يُتَّبَـعَ أَمَّن لاَ يَهـدي إلاَّ أن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلاَّ ظَنّـاً إنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . إنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

فهـذه عدة مـواضع يـذم الله فيها الـذين لا يتبعون الا الـظن ، وكذلـك قوله : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْـدَكُم مِنْ عِلْم فَتُخْرِجُـوهُ لَنَا إن تَتَّبِعُـونَ إلاَّ الظَّنِّ وَإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْـرُصُونَ ، قُـلْ : فَلِلهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ ﴾ (٣) مطالبـة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم . ولذلك قوله : ـ

﴿ نَبِّئُوْني بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤)

وقوله : ـ ﴿ وَإنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٥)

وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم ، وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتواترة وإجماع الأمة أن الحـاكم يحكم بشاهـدين ، وإن لم يكن شهـود حلف الخصم ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنـه قـال « إنكم تختصمون إليَّ ، ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » (٦)

---

(١) سورة يونس آية رقم ٦٦ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٦) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الأقضية ٣ باب الحكم بالـظاهر واللحن بـالحجة ، ٥ ـ =

والاجتهاد في « تحقيق المناط » مما اتفق المسلمون عليه ، ولا بد منه كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان ، بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا ، فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس ، وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينازعوا في خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع ، كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه لم ينازع في الأخبار ، فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الإثني عشر ، فلا بد لهم من الرواية ولا يوجد من يستغني عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه ، وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن .

وقد تنوعت طرق الناس في جواز هذا ، فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلا ، وقالوا إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون نقطع بخطأ من خالفنا ، وننقض حكمه ، كما يقول داود [1] وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً ، وأما

= أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب ، أخبرني عروة بن الزبير عن زينب بنت أسامة عن أم سلمة زوج النبي - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج اليهم فقال إنما أنا بشر وذكره . وأخرجه الامام البخاري في كتاب ٢٩ ، ٣١ وفي كتاب المظالم ١٦ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٠٨ (حلبي)

(١) هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني أبو سليمان ، الملقب بالظاهري أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام تنسب إليه الطائفة الظاهرية ، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وأعراضها عن التأويل والرأي والقياس ، وكان داود أول من جهر بهذا القول ، وهو أصبهاني الأصل من أهل « قاشان » بلدة قريبة من أصبهان ومولده عام ٢٠١ هـ بالكوفة سكن بغداد =

الاستصحاب ، فالاستصحاب في كثير من المواضع من أضعف الأدلة ـ وهم في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ ، بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت : لما قدم الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كنا متبعين للعلم ، فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم ، لا نعمل بالظن وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأتباعه [1] .

وهنا السؤال المشهور في « حد الفقه » إنه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازي : العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً ؟ .

قلت : المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العمل مما أدى اليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعاً ، والظن واقع في طريقه ، وحقيقة هذا الجواب إن هنا مقدمتين (إحداهما) أنه قد حصل عندي ظن و(الثانية) قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن .

فـ ـ « المقدمة الأولى » وجدانية . و« الثانية » عملية استدلالية ، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم ، لكن يقال : العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه ، بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر ، وخبر الواحد والقياس والأصول تفيد أن العمل بهذا الظن واجب ،

= وانتهت إليه رياسة العلم فيها ، قال ابن خلكان قيل : كان يحضر مجلسه كل يوم أربعمائة صاحب طيلسان أخضر ، وقال ثعلب : كان عقل داود أكبر من علمه ، وله تصانيف أورد ابن النديم أسماءها في زهاء صفحتين توفي في بغداد عام ٢٧٠ هـ . [راجع تهذيب ابن عساكر ٥ : ٣٠٣ والمحبر ٣٣ وميزان الاعتدال ١ : ٣٢١ والطبري ٩ : ١٤٧]

(١) القاضي هو أبو بكر الطيب الباقلاني ـ سبق الترجمة له وأتباعه هم « الأشاعرة »

وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا . فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه . وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر ، وهو بناه على أصله ، فإن عنده كل مجتهد مصيب ، وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن، بل الظنون عنده بحسب الاتفاق . وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله : قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر ، كميل ذي الشدة إلى قول ، وذي اللين إلى قول .

وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظنا في نفسه ، فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن ، وقد أنكر أبو المعالي [1] وغيره عليه هذا القول إنكاراً بليغاً ، وهم معذورون في إنكاره ، فإن هذا أولا مكابرة ، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء والكلام في شيئين : في اتباع الظن ، وفي الفقه هل هو من الظنون ؟ .

أما الأول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم ، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ، ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به ، وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين ، من أصحاب الشافعي ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل الى بغداد ، فمكة حيث جاور أربع سنين ،وذهب الى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب ثم عاد الى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسةالنظامية فيها ، وكان يحضر دروسه أكابر العلماء ، له مصنفات كثيرة منها « غياث الأمم والنيات الظلم » والعقيدة النظامية في الأركان الاسلامية » توفي عام٤٧٨ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والفهرس التمهيدي ٢٠٩ - ٥٥١ والسبكي ٣ : ٢٤٩]

الرجحان ورجحان الاعتقاد . أما اعتقاد الرجحان فقد يكون علماً وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان ، وإذا ظن الرجحان أيضا فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم ، فلا بد أن ينتهي الأمر الى رجحان معلوم عنده فيكون متبعاً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن وهو اتباع الأحسن ، كما قال : ـ

﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ .[1]

وقال ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [2]

وقال ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾ [3]

فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم . فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصري ، وأبي [4] وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٥

(٢) سورة الزمر آية رقم ١٨ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٥٥

(٤) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ، من بني النجار ، من الخزرج أبو المنذر صحابي أنصاري ، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود ، مطلعاً على الكتب القديمة يكتب ويقرأ ولما أسلم كان من كتاب الوحي ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ وكان يفتي على عهده ، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس ، وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه وله في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً وفي الحديث : اقرأ أمتي أبي بن كعب » توفي عام ٢١ هـ راجع طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ وغاية النهاية ١ : ٣١ وصفة الصفوة ١ : ١٨٨ وحلية ١ : ٢٥٠ والمؤتلف والمختلف ٢٤ وسمط اللآلي ٤٩٤ .

إلى علم بأن هذا أرجح من غيره : كما قال: ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ﴾ (١) .

وقال: ﴿ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْم فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إن تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ﴾ (٢) وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه ، والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعملون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر .

وهذا كما ذكر النبي ﷺ حيث قال : ـ « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع » (٣) .

فإذا أتى أحد الخصمين بحجة . مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح ، فما حكم إلا بعلم ، لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أن يبينها ، مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه ، وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك ، فيكون هو المضيع لحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام ، فإن تعارض خبران أحدهما مسند ثابت والآخر مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم ، لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يزك الآخر ، فهذا المزكى أرجح ، وإن جاز أن يكون في نفس

---

(١) سورة النجم آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث قريباً في هذا الجزء .

الأمر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم ، وهو علمه برجحان هذا على هذا ، ليس ممن لم يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفي تزكية هذا الشاهد ، فإنّ المرسل قد يكون راويه عدلا حافظاً ، كما قد يكون هذا الشاهد عدلا .

ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوي ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا نعلم عدالتهمامع تقويتها ورجحانها في نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ في الاجتهاد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لامكان ثبوته في نفس الأمر ، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته ، وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فإنهما إذا تعارضا وكانا متناقضين ، فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ، فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك ، وذلك المجهول بالعكس ، فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته .

« الفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد »

ولكن قد يقال : إنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا : فرق بين اعتقاد الرجحان ، ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم ، والمجتهد ما عمل إلّا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن ، لكن لم يكن ممن قال الله فيه : -

﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ ﴾

بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم ، فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد في جميع العلوم ، والصناعات كالطب والتجارة ، وغير ذلك .

وأما الجواب عند قولهم الفقه من باب الظنون : فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب [1] بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر ، وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله :

﴿ فإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ [2]

والتحقيق أن عنه جوابين :

« أحدهما » أن يقال : جمهور مسائل الفقه التي يحتاج إليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الإجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج اليه الناس ، وهذا موجود في سائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هي في أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما مالا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين بالضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة ، والحج واستقبال القبلة ، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمر والفواحش ، وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

و« أيضا » فكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي ، فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد

---

(1) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني أبو الخطاب : إمام الحنبلية في عصره ، أصله من كلواذي (من ضواحي بغداد) مولده ووفاته ببغداد من كتبه « التمهيد » في أصول الفقه ، والانتصار في المسائل الكبار ، ورؤوس المسائل » وغير ذلك ، وله اشتغال بالأدب ونظم توفي عام ٥١٠ هـ [راجع اللباب ٢ : ٤٩ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢١٢ ومخطوطات رباط الفتح ١ : ١٤١ وطبقات الحنابلة ٩ : ٤]

(2) سورة الممتحنة آية رقم ١٠

للسهو [١] ، وقضى بالدية على العاقلة [٢] ، وقضى أن الولد للفراش [٣] وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة .

« الجواب الثاني » أن يقال : الفقه لا يكون فقهاً إلا من المجتهد المستدل ، وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح ، فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل وهذا الظن ، ليس الفقه قطعه بوجوب العمل ، أي بما أدى اليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولي يتكلم في جنس الأدلة ، ويتكلم كلاما كليلا فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ويقول أيضا : إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ، ويقول أيضا : العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الأفراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه : فيتكلم في دليل معين في حكم معين ، مثل أن يقول قوله : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

---

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة منها ١٣٠ باب من صلى الظهر خمساً وهو ساه بسنده عن عبد الله . قال صلى النبي ﷺ الظهر خمساً فقيل له : أزيد في الصلاة ؟ قال : وما ذاك فقيل له : فثنى أرجله فسجد سجدتين .

(٢) أخرج ابن ماجه في كتاب الديات ٧ باب الدية على العاقلة ٢٦٣٣ - بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : قضى رسول الله - ﷺ - « بالدية على العاقلة »

(٣) أخرج الإمام مسلم في كتاب الرضاع ١٠ باب الولد للفراش وتوقى الشبهات ٣٦ - حدثنا ليث ، وحدثنا محمد بن رمح أخبرنا الليث عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : اختصم سعد بن أبي وقاص ، وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليَّ أنه ابنه ، أنظر الى شبهه وقال عبد بن زمعة ، هذا أخي يا رسول الله ، ولد على فراش أبي من وليدته ، فنظر رسول الله - ﷺ الى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة ، فقال : هو لك يا عبد : الولد للفراش وللعاهر الحجرُ واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة ، قالت : فلم ير سودة قط ، ولم يذكر محمد بن رمحٍ قوله « يا عبد »

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (1) .

خاص في أهل الكتاب ، ومتأخر عن قوله :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ ﴾ (2) .

وتلك الآية لا تتناول أهل الكتاب ، وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر ، فيكون ناسخاً ومخصصاً ، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه هو علم قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للائمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا نكاح الكتابيات ، واعتقاد المقلد ليس بفقه .

ولهذا قال المستدل على أعيانها : والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسؤول عنه ، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لا قول له ، وإذا قيل له : فقد قال :

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (3)

قال : هذا نزل عام الحديبية ، والمراد به المشركات ، فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك ، فهي خاص متأخر وذاك عام متقدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم .

استجابة الصحابة لأوامر الله تعالى

ولهذا لما نزل قوله : ـ

---

(1) سورة المائدة آية رقم ٥ .

(2) سورة البقرة آية رقم ٢٢١ .

(3) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ [1]

فارق عمر امرأة مشركة ، وكذلك غيره ، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ، فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة ، وآية المائدة بعد آية البقرة ، فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل ، وظن على دليل ، وهذا علم لا ظن . فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا اذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ اِلَّا الظَّنَّ ﴾

فهم لا يتبعون إلا الظن ، ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد اتبعوا علما لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن « والله أعلم » .

---

(1) المراد بالكوافر عبدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها ، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب ، وقيل هي عامة نسخ منها نساء أهل الكتاب ولو كان الى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه ، وعلى القول الأول : إذا أسلم وثني أو مجوسي ، ولم تسلم امرأته فرق بينهما ، وهذا قول بعض أهل العلم ، ومنهم من قال : ينتظر بها تمام العدة ، فمن قال يفرق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الاسلام ولم تسلم مالك بن أنس وهو قول الحسن وطاووس ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة والحكم ، واحتجوا بقوله تعالى : ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، وقال الزهري : ينتظر بها العدة ، وهو قول الشافعي وأحمد ، واحتجوا بأن سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته ، وكان إسلامه بمر الظهران ثم رجع الى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها ، فأخذت بلحيته وقالت : اقتلوا الشيخ الضال ، ثم أسلمت بعده بأيام فاستقر على نكاحها لأن عدتها لم تكن انقضت .

فصل
في موارد الإجتهاد

فههنا ثلاثة أشياء « أحدها » الظن الراجح في نفس المستدل المجتهد . و« الثـاني » الأدلة ـ التي يسميهـا بعض المتكلمين أمـارات ـ التي تعـارضت ، وعلم المستدل بأن التي أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

« الثالث » أنه قد يكون في نفس الأمـر دليل آخـر على القول الآخـر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد . فـإن الرجـل قد يسمـع نصاً عامــاً ، كمـا سمـع ابن عمـر وغيـره أن النبي ﷺ نهى عن قـطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخـرج أحد حتى يـودع البيت ، أو أن النبي ﷺ نهى[1] عن لبس الحـرير وظـاهره العمـوم ، وهـذا راجـح على الاستصحـاب النـافي للتحـريم ، فعملوا بهـذا الـراجـح ، وهم يعلمـون قـطعاً أن النهي أولى من الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خـاص ، ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكـانوا يفتـون بأن الحائض عليهـا الوداع ، وعليهـا قطع الخفين ، وإن قليـل الحريـر وكثيره

(١) أخرج ابن ماجه في كتاب اللباس ١٦ باب كراهية لبس الحرير ٣٥٩١ ـ بسنده عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره ، أن عمر بن الخطاب رأى حلة سيـراء من حريـر ، فقال يا رسول الله لو ابتعت هذه الحلة للوفد ، وليـوم الجمعة . فقـال رسول الله ـ ﷺ : إنمـا يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة » .

حرام، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء؛ لعموم قوله «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[1] وكان في نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم، ولكن تجتنب النقاب والقفازين. وأنه رخص في موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير، كما بين ذلك في الصحيح في رواية عمر، ولم يعرف به ابنه عبد الله، وكان له جبة مكفوفة بالحرير فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا. وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلموا به، وهم في الحالين إنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن، فإنهم أولا رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية، وهذا ترجيح بعلم، فإن هذا راجح بلا ريب، والشرع طافح بهذا.

فما أوجبه الله أو حرمه في كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما هي نصوص عامة، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة، وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم، وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان، ولم

---

(1) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب اللباس والزينة ٢ باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء وخاتم الذهب والحرير على الرجل وإباحته للنساء ١١ حدثنا عبيد بن سعيد، عن شعبة عن خليفة بن كعب أبي ذبيان قال: سمعت عبد الله بن الزبير يخطب يقول: ألا لا تلبسوا نساءكم الحرير، فإني سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله - ﷺ - لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وكذلك البخاري في اللباس ٢٥ والترمذي في باب ما جاء في الحرير والذهب بسنده عن سويد بن غفلة عن عمر أنه خطب بالجابية فقال: نهى نبي الله - ﷺ - عن الحرير إلا موضع أصبعين أو ثلاث أو أربع.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه ابن ماجه في كتاب اللباس ١٦ باب كراهيه لبس الحرير. ٣٥٨٨ بسنده عن أنس بن مالك. قال: قال رسول الله - ﷺ - وذكره.

يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم ، وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء الخصوص ، وهذا القول في سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص ، وتكون منسوخة ، ولم يبلغه الناسخ كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة ، وصلى بعضهم صلاة الى القبلتين ، بعضها الى هذه القبلة ، وبعضها الى هذه القبلة ، لما بلغهم النسخ وهم في أثناء الصلاة فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة ، من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ، ويقولون : ما ثم إلا الظن الذي في نفس المجتهد، والامارات لا ضابط لها وليست أمارة أقوى من أمارة ؛ فإنهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً ، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون : بل الامارات بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر ، وعلى الإنسان أن يجتهد ويطلب الأقوى ، فإذا رأى دليلا أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئا معذورا . وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه وخطأه مغفور له ، وذلك الباطن هو الحكم ، لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه .

فإذا أريد بالخطأ الإثم فليس المجتهد بمخطىء ، بل كل مجتهد

مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران ، كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة ـ واحد وله أجران لاجتهاده وعمله ـ كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علما وعملا زاده أجرا بما زاده من العلم والعمل . قال تعالى : ـ

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ؛ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ من نَشَاءُ ﴾ [1]

قال مالك عن زيد بن أسلم [2] بالعلم ، وكذلك قال في قصة يوسف :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إلَّا أن يَشَاءَ الله ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم ، واتبعوا العلم ، وإن « الفقه » من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن ، لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر . إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر كما قال تعالى : ـ

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [4]

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٨٣

(٢) هو زيد بن أسلم العدوي العمري ، مولاهم أبو أسامة ، فقيه مفسر من أهل المدينة ، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدبنة الى دمشق مستفتياً في أمر ، وكان ثقة كثير الحديث له حلقة في المسجد النبوي ، وله كتاب في التفسير توفي عام ١٣٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ١٢٤ وتهذيب التهذيب ٣ : ٣٩٥]

(٣) سورة يوسف آية رقم ٧٦

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٧٨ ـ ٧٩ .

وهـذه حال أهـل الاجتهاد والنـظر والاستدلال في الأصـول والفروع ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين « قسمين » أصولا ، وفروعا لم يكن معروفا في الصحابة والتـابعين ، ولم يقل أحـد من السلف والصحابـة والتابعين أن المجتهـد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلـة وأدخله في أصول الفقـه من نقل ذلـك عنهم ، وحكـوا عن عبيد الله بن الحسن العنبـري [1] أنـه قـال : كـل مجتهـد مصيب ومراده أنه لا يأثم . وهذا قول عامة الأئمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

« القصد من هجر أهل البدع ورد شهادتهم »

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ، ومن ردها ـ كمالـك وأحمد ـ فليس ذلك مستلزما لإثمهما ، لكن المقصود إنكار المنكـر وهجر من أظهر البدعة ، فإذا هجر ولم يصل خلفه ولم تقبل شهادته كان ذلك منعا له من إظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره ، وكذلك قـال الخرقي [2] : ومن صلى خلف من يجهـر ببدعـة أو منكر أعـاد ، وبسط هذا له موضع آخر .

---

(1) هـو عبيـد الله بن الحسن بن الحصين العنبـري ، من تميم : قـاض ، من الفقهـاء العلمـاء بالحديث من أهل البصرة ، قال ابن حبان من ساداتها فقهاً وعلماً ولي قضاءها سنة ١٥٧ هـ وعزل سنة ١٦٦ وتوفي فيها عام ١٦٨ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ : ٧ وذيل المذيل ١٠٦ ورغبة الأمل ٤ : ١٦٥]

(2) هـو عمر بن الحسين بن عبـد الله الخرقي ، أبـو القاسم ، فقيـه حنبلي من أهل بغـداد ، رحل عنهـا لما ظهـر فيها سب الصحابة ، نسبتـه الى بيع الخـرق ، ووفاتـه بدمشق ، لـه تصـانيف احتـرقت ، وبقي منها « المختصـر » في الفقـه يعـرف بمختصـر الخـرقي تـوفي عـام ٣٣٤ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٧٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٣ : ١٧٨]

« عمدة من فرق بين مجتهدي الأصول والفروع »

والذين فرقوا بين الأصول والفروع لم يذكروا ضابطا يميز بين النوعين ، بل تارة يقولون : هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسائل الأحكام قطعي ، وكثير من مسائل الأصول ظني عند بعض الناس ، فإن كون الشيء قطعياً وظنيا أمر اضافي ، وتارة يقولون : الأصول هي العلميات الخبريات والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وتارة يقولون : هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير المخطىء فإن الكفر حكم شرعي يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .و إذا تدبر الانسان تنازع الناس وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى ، كما في مسائل الأحكام ، مثال ذلك ما تقدم في الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين [١] ، ومسائل الأسماء والأحكام وانفاذ الوعيد ، وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرأون ممن خالفهم فيها ، وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وإثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه ، وطاعة أمره لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم .

وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ومن سلك مسلكهم ، كأبي الحسن الأشعري [٢] وأصحابه ـ فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك ، وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحط علما بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور بل علموا بعضا وجهلوا بعضا ، فإن هؤلاء المجبرة هم في الحقيقة لا يثبتون لله عدلا ولا حكمة ، ولا رحمة ولا صدقا .

---

(١) تكلمنا عن المنزلة بين المنزلتين في هذا الجزء في كلمة وافية بهذا الموضوع .

(٢) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

فأولئك قصدوا إثبات هـذه الأمور ، أمـا العدل فعنـدهم كل ممكن فهـو عـدل ، والظلم عندهم هو الممتنـع ، فلا يكـون ثم عدل يقصـد فعــله وظلم يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحا ، ويقـولون : القبيح هو ما نهى عنه ، وهو لا ناهي له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكرا وشركـا . والنهي عن كل شيء وإن كـان توحيـدا ومعروفـا ، فلا ضـابط عندهم للفعل ، فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يـد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقا بين المعجزات وغيـرها ، ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نـقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : ـ

﴿ شَهِـدَ اللهُ أَنَّـهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ وَالمَـلَائِكَـةُ وَأُولُـوا العِلْمِ قَـائِمـاً بِالقِسْطِ ﴾ (1)

وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس في الممكن قسط وجور ، حتى يكون قـائمـا بهـذا دون هـذا ، وقـد بسط هـذا في غيـر هـذا المـوضـع . وكـذلـك « الحكمة » عندهم لا يفعل لحكمة ، وقد فسروا « الحكمة » إما بالعلم ، وإما بـالقدرة ، وإمـا بـالارادة ، ومعلوم أن القـادر قـد يكـون حكيمـا ويكـون غيـر حكيم ، وكـذلك المـريد قـد تكون إرادتـه حكمة وقـد تكـون سفهـا ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم .

---

(1) سورة آل عمران آية رقم ١٨ .

قال سعيد بن جبير كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمـاً ، فلما نـزلت هذه الآيـة ، خررن سجداً . وقال الكلبي : لما ظهر رسول الله (ﷺ) بالمدينة ، قدم عليه حبران من أحبار أهـل الشام ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الـذي يخرج في آخر الـزمان . فلمـا دخلا على النبي (ﷺ) ، عـرفاه بـالصفة والنعت . فقـالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم . قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهـادة ، فإن أنت أخبرتنا بها ، آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله (ﷺ) : سلاني . فقالا : أخبـرنا عن أعـظم شهادة في كتـاب الله . فأنـزل الله سلى نبيه (ﷺ) ﴿ **شهـد الله أنه لا إلـه إلا هـو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ [راجع تفسير القرطبي ٤ : ٤٠]

وكذلك « الرحمة » ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح نسبتها الى نفس العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضا .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين تناقضهم في الصفات والأفعال ، حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض . وإن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضا منهم ، فإن الرازي ذكر في المطالب العالية [1] « مسألة الإرادة » ورجح فيها نفي الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب على حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ، واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي غليلاً ولا تروي غليلاً .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [2]

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [3]

---

(1) كتاب المطالب العالية ـ في علم الكلام للامام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة وشرحه عبد الرحمن المعروف بجلبي زادة . [راجع كشف الظنون ٢ : ١٧١٤]

(٢) سورة طه آية رقم ٥

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

واقرأ في النفي : ـ

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (١) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (٢)

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته ، وكذلك الصدق فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا : الصدق في الكلام النفساني واجب ، لأنه يعلم الأمور ومن يعلم يمتنع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره .

فقيل لهم : هذا ضعيف لوجهين :

« أحدهما » الصدق في ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق في العبارات الدالة عليه ، ويميز بين الأفعال عندهم .

« الثاني » إنهم أثبتوا الخبر النفساني فإن الإنسان يخبرك بالكذب ، فيقوم في نفسه معنى ليس هو العلم ، وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضي أنهم يقولون : إن العالم قد يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعني به شيئا خلافا للحشوية (٣) . قيل له : هل قال أحد من طوائف الأمة أن الله لا يعني بكلامه شيئا ؟ . وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه . وقيل له : هب أن في هذا نزاعا

---

(١) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٠ .

(٣) الحشوية : فرقة من فرق المعتزلة ، سموا كذلك نسبة الى الحشو ويقصد به أسافل الناس ، كما يقصد به الزائد من الكلام . أي اللغو ذلك أن الحشوية، أو أهل الحشو أخذوا بظواهر القرآن دون تبصر حتى وقعوا في الاعتقاد بالتجسيم . [راجع القاموس الاسلامي جـ ٢ ص ١٠٢]

فهـو لم يقم دليلا على امتنـاع ذلـك . بـل قـال هـذا عيب أو نقص والله منـزه عنه . فقيل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة . أما الأول فلا يجوز إرادته هنا . لأن المسألة هي فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ، ولا يعني به شيئا وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف ـ وهو مراده ـ فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس منزها عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو ما لا تريده ، فهذا ممتنع .

فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ، ولا على تنزيهه عن العيب في خطابه ، فإن ذلك إنما يكون ممن ينزهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولا حكمته ، ولا رحمته ولا صدقه ، والمعتزلـة قصدهم إثبـات هذه الأمور ، ولهذا يذكـرونها في خـطبة الصفـات ، كما يـذكرهـا أبو الحسن البصري وغيره ، كما ذكر في أول صور الأدلة خطبة مضمـونها . أن الله واحـد عدل .

﴿ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] . و ﴿ أنـه بالناس لرؤوف رحيم ﴾[2]

وأظن فيهـا إثبات صـدقه ، ولهـذا يكفرون من يجـوزه ، أو يكذبـه ، أو يسفهه ، أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة ـ كمـا قد نبـه على هذا في غير موضع فكلا الـطائفتين معها حق وبـاطل ، ولم يستـوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار ، وآمن بما جاء به الرسـول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الـرحمة الـذين لا يختلفون ، بخـلاف أولئك المختلفين . قال تعالى :

---

(١) سورة يونس آية رقم ٤٤

(٢) الآية ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ الحج آية رقم ٦٥ وسورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [1] .

(1) سورة هود آية رقم ١١٨ ، ١١٩ .
قيل الاشارة في الآية بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك الى شيئين متضادين كقوله تعالى : «لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » . ولم يقل بين ذينك ولا تينك وقال : والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، وقال : «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » . وكذلك قوله : «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا » .



فصل
مناقشة نفاة الصفات والمثبتين لبعضها وقضية نداء موسى عليه السلام

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفس الصفات ، وابن كلاب ومن تبعه - كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم - أثبتوا الصفات : لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

فأثبت رؤية مستقبلة ، وكذلك قوله تعالى : -

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

ومثل كونه نادى موسى حين أتى . لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فإن المعتزلة والجهمية يقولون : خلق نداء في الهواء ، والكلابية والسالمية يقولون : النداء قام بذاته وهو قديم : لكن سمعه موسى ، فاستجدوا سماع

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٤

موسى ، وإلا فما زال عندهم مناديا . والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا ، وتبين أنه ناداه حين جاء ، وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين كما قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [1]

وقال تعالى : -

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2]

والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل ، وأما الأحاديث فلا تحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ، ولهذا قال عبد الله ابن المبارك [3] والإمام أحمد بن حنبل [4]، وغيرهما : لم يزل متكلما إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل ، والذين قالوا من المتأخرين : هو قديم كثير منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول : هو قديم في علمه ، ومنهم من يقول : قديم أي متقدم

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ١١ .

(2) سورة آل عمران آية رقم ٥٩ .

(3) سبق الترجمة له قريباً في هذا الجزء .

(4) هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة ، أصله من مرو ، وكان أبوه والي سرخس ، ولد ببغداد عام ١٦٤ هـ فنشأ منكباً على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة ، وصنف المسند وله كتب في التاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والرد على من ادعى التناقض في القرآن ، والتفسير ، وفضائل الصحابة ، والمناسك والزهد ، وغير ذلك كثير توفي عام ٢٤١ هـ .
[راجع ابن عساكر ٢ : ٢٨ وحلية ٩ : ١٦١ والجمع ٥ ، وصفة الصفوة ٢ : ١٩٠ وابن خلكان ١ : ١٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ والبداية والنهاية ١٠ ـ ٣٢٥ ـ ٣٤٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤٩١ ـ ٤٩٦]

الـوجود ، متقـدم على ذات زمان المبعث ؛ لا أنـه أزلي لم يـزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هـذا الموضع .

و« المقصود هنا » أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآهـا وسمع أصـوات عباده ، وكـان ذلـك بمشيئتـه وقـدرتـه ، إذ كـان خلقـه لهم بمشيئتـه وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقـد جاء في القـرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله :

« ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينـظر اليهم يوم القيـامة ، ولا يـزكيهم ، ولهم عذاب أليم : ملك كذاب ، وشيخ زان ، وعائل مستكبر »[1] .

وكذلك في « الاستماع » قال تعالى :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[2] أي استمعت

وقـال النبي ﷺ « مـا أذن الله لشيء كـإذنـه لنبي حسن الصـوت يتغنى بالقرآن يجهر به »[3] وقال « لله أشد أذنا الى صاحب القرآن من صاحب القينة الى قينتـه »[4] فهـذا تخصيص بـالإذن وهـو الاستماع لبعض الأصـوات دون بعض .

---

(١) الحـديث رواه الامام مسلم في كتـاب الايمان ٤٦ بـاب وبيان الثلاثة الـذين لا يكلمهم الله يـوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ١٧٢ (١٠٧) حدثنا وكيع وأبـو معاويـة عن الأعمش عن أبي حـازم عن أبي هريـرة قال : قـال رسـول الله ـ ﷺ وذكـره . وأخـرجـه الامـام التـرمذي في الجنـة ٢٥ والنسائي في الـزكـاة ٧٥ ، ٧٧ والامـام أحمد بن حنبـل في المسنـد ٢ : ٤٣٣ ، ٤٨٠ ، ٥ : ١٥٣ (حلبي)

(٢) سورة الانشقاق آية رقم ٢ و ٥ .

(٣) الحـديث أخرجـه الامام مسلم في كتـاب صلاة المسـافرين وقصـرها ٣٤ بـاب استحباب تحسـين الصوت بالقرآن ٢٣٣ حدثنا عبد العزيز بن محمد ، حدثنا يزيـد (وهو ابن الهـاد) عن محمد بن ابراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : وذكره .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٧٦ باب في حسن الصوت بالقرآن =

وكذلك « سمع الإجابة » كقوله : ـ

﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ [1] وقول الخليل ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [2] وقوله ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [3] يقتضي التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة ، وهو تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته ـ كما تقدم ـ وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل ، لا بمعنى يقوم بذاته ، وتخصيص من يحب بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم .

لكن مع هذا هل يقال : إن نفس الرؤية والسمع الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته فلا يمكن وجود مسموع ومرئي إلا وقد تعلق به كالعلم ؟ أو يقال : إنه أيضا بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر الى بعض المخلوقات ؟ هذا فيه قولان : والأول قول من لا يجعل ذلك متعلقا بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقا بمشيئته وقدرته فقد يقولون : متى وجد المرئي والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

والقول الثاني : إن جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته فيمكن أن لا ينظر الى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال : ما نظر الله الى شيء من خلقه إلا رحمه ، ولكنه قضى أن لا ينظر اليهم . وقد يقال :

= ١٣٤٠ ثنا الوليد بن مسلم ثنا الأوزاعي ، ثنا إسماعيل بن عبيد الله عن ميسرة مولى فضالة عن فضالة بن عبيد ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(١) كلمة يقولها المسلم إذا رفع رأسه من الركوع .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة سبأ وقد جاءت هذه الآية محرفة حيث ذكرت في الأصل (إن ربي سميع قريب) آية ٥٠ أما آية هود رقم ٦١ فهي كالآتي « إن ربي قريب مجيب » .

هذا مثل الذكر والنسيان . فإن الله تعالى قال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [1] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : ـ « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرا تقربت اليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت اليه باعا . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » [2] فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ؟ قَالَ : كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٥٢ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (أذكروني) بدون الفاء .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٥ باب قول الله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ ٧٤٠٥ ـ حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : قال النبي ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى وذكره . وأخرجه الامام مسلم ـ في كتاب التوبة [1] باب في الحض على التوبة والفرح بها ١ ـ (٢٦٧٥) حدثنا حفص بن ميسرة ، حدثني زيد بن أسلم عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال « قال الله عز وجل : وذكره .

وأخرجه الترمذي في الدعاء ١٣٢ باب في حسن الظن بالله عز وجل ٣٦٠٣ بسنده عن أبي هريرة ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ يقول الله عز وجل : وذكره .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ويروى عن الأعمش في تفسير هذا الحديث من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً يعني بالمغفرة والرحمة وهكذا فسر أهل العلم هذا الحديث قالوا : إنما معناه يقول : إذا تقرب إليَّ العبد بطاعتي وما أمرت أسرع اليه بمغفرتي ورحمتي .

وأخرجه الامام احمد في المسند ٢ : ٢٥١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥٠٠ ، ٥٠٩ ، ٥٢٤ ، ٥٣٥ ، ٣ : ٤٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٥ : ١٥٣ ، ١٦٩ (حلبي)

آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [١] .

ومثل قوله :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [٢] وقد فسروا هذا النسيان بأنه وهذا النسيان ضد ذلك الذكر وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال « أفظننت أنك ملاقى ؟ قال : لا . قال : فاليوم أنساك كما نسيتني » [٣] فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً ، وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله ، فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

---

(١) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد والرقائق ١٦ (٢٩٦٨) حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة . . ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟. قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابه . . ؟ قالوا : لا . قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم الا كما تضارون في رؤية أحدهما قال : فيلقى العبد فيقول : أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول : بلى قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقى فيقول : لا فيقول فإني أنساك كما نسيتني الخ .

وأخرجه الترمذي في الإقامة ٦ .

فصل
جماع الفرقان اتباع ما أنزل من الرحمن

جماع « الفرقان » بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق السعادة والنجاة ، وطريق الشقاوة والهلاك ، أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والايمان ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف، هل جاء الرسول بتصديقه ، أو تكذيبه ، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في أمور « دنيوية » مثل الطب والحساب ، والفلاحة والتجارة . وأما الأمور « الالهية » والمعارف الدينية » فهذه العلم فيها مأخذه عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها ، وأرغبهم في تعريف الخلق بها ، وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك ، فلم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان . وبيان الرسول على وجهين :

تـارة يبين « الأدلة العقليـة » الـدالـة عليهـا ، والقـرآن مملوء من الأدلـة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية . وتـارة يخبر بها خبرا مجردا لما قد أقامه من الآيات البينات ، والدلائـل اليقينيات على أنـه رسـول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقـول عليـه إلا الحق ، وأن الله شهـد لـه بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه ، والأدلـة التي بهـا نعلم أنـه رسـول الله كثيـرة متنـوعـة ، وهي أدلـة عقليـة ، تعلم صحتهـا بـالعقل ، وهي أيضـا شرعيـة سمعية ، لكن الـرسول بينهـا ودل عليها وأرشـد اليها ، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المـطالب الدينيـة ، وهم يذكـرون ذلـك في كتبهم الأصـوليـة ، وفي كتب التفسير ، وعامـة النظار ايضـا يحتجون بـالأدلة السمعيـة الخبريـة المجردة في المطالب الدينية ، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

أقسام العلوم عند ابن تيمية

« والعلوم ثـلاثة أقسـام » منها مـا لا يعلم إلا بـالأدلـة العقليـة ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد اليها الرسول ، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فـإن من الناس من يـذهل عن هذا ، فمنهم من يقدح في الدلائل العقليـة مطلقـا لأنه قـد صار في ذهنـه أنهـا هي الكلام المبتـدع الذي أحـدثه من أحدثه من المتكلمين ، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينيـة العقلية منـه ، لأنه قـد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط ، فلا بد أن يعلم بالعقل قبـل ذلك ثبـوت النبوة وصـدق الخبر ، حتى يستـدل بعـد ذلـك بخبـر من ثبت بـالعقـل صدقه ، ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبيـاء ، وخبرهم المجـرد هو دليـل سمعي ، مثل تفـاصيل مـا أخبـروا بـه من الأمـور الإلهيـة ، والمـلائكـة والعرش ، والجنة والنار ، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه .

فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته ، وعلمه وقدرته ، ومشيئته وحكمته ،

ورحمته ونحو ذلك فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية ، وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الأنبياء هي أكمل الأدلة العقلية لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد ، وإن كانت أخبار الأنبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضاً ، فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا اليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

وقد تنازع الناس في « العلم بالمعاد ، وبحسن الأفعال وقبحها » فأكثر الناس يقولون : إنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل ، قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول : المعاد والحسن والقبح لا يعلم الا بمجرد الخبر ، وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي الجويني ، وأبي الوليد الباجي وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد [1] مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك [2] .

« الأشعرية يثبتون الصفات الخبرية »

وكتب أصول الدين لجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ، لكن الرازي طعن في ذلك في « المطالب العالية » قال : لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه ، قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر ، وهو إنما

---

(١) للامام البخاري صاحب الصحيح ـ كتاب يسمى « خلق أفعال العباد » وضع هذه القضية في ميزانها الصحيح ورد فيه على أصحاب الأهواء والمضللين . وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب ـ وطبعته دار عكاظ بجدة « المملكة العربية السعودية » .

(٢) راجع هذا الشأن رؤية الله سبحانه وتعالى في كتاب شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني بتحقيقنا طبع « المكتبات الأزهرية » بالقاهرة .

يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة في الوعيد ، كالأشعري ، والقاضي أبي بكر وغيرهما ، وليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة ، لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة ، وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية لله ، كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري في ذلك ، وهو قول أئمة أصحابه . لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية ، بل فيهم من ينفيها ومنهم من يقف فيها كالرازي والآمدي [1] ؛ فيمكن أن يقال : قول الأشعري ينتزع من قول هؤلاء بأن يقال : لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ، لكن يقال : المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث، ولكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به .

وفي « الحقيقة » فجميع الأدلة اليقينية توجب علما ضروريا ، والأدلة السمعية الخبرية توجب علما ضروريا بأخبار الرسول ، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضروري من غير تعيين دليل ، وقد يعين الأدلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر . و« المقصود هنا » أنه يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقليها ، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا ، فدلائل النبوة عامتها تدل على ذلك جملة ، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث تدل على ذلك تفصيلا .

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه .

وأيضا فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم ،

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

والخطأ مع مخالفيهم ، كما قال الرازي ـ مع أنه من أعظم الناس طعنا في الأدلة السمعية ، حتى ابتدع قولا ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ، ومع هذا فإنه يقول ـ لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي غليلا ، ولا تروي غليلا ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (١) **﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾** (٢)

واقرأ في النفي :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٣) **﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾** (٤)

قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وأيضاً فمن اعتبر ما عند الطوائف الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وارشادهم وأخبارهم وجدهم كلهم حائرين ، ضالين شاكين مرتابين ، أو جاهلين جهلا مركبا ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً . وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ

---

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥ .

(٣) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٤) سورة طه آية رقم ١١٠ .

بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ . إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ (١) .

والله أعلم

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٩ ـ ٤٠ .

قالوا : نزلت هذه الآية في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كان يترهب متلمساً للدين فلما خرج ـ ﷺ ـ كفر .

والسراب : ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض ، والآل الذي يكون ضحا كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء ، وسمي السراب سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء ، ويقال سرب الفحل أي مضى وسار في الأرض ويسمى الآل أيضاً ، ولا يكون إلا في البرية والحر فيغتر به العطشان قال الشاعر :

فكنت كمهريق الذي في سقائه ... لرقراق آل فوق رابية صلدا

وقال آخر :

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم ... كلمع سراب بالفلا متألق

وقال امرؤ القيس :

ألم انضى المطي بكل خرق ... أمق الطول لماع السراب

والقيعة جمع القاع ، مثل جيرة وجار قاله الهروي ، وقال أبو عبيدة ، قيعة وقاع واحد ، حكاه النحاس ، والقاع ما انبسط من الأرض واتسع ، ولم يكن فيه نبت ، وفيه يكون السراب ، وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء وجمعه قيعان قاله الجوهري والقاع المستوي من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان .

فصل
أهل الضلال هم أهل البدع والشبهات

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، هم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات : يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد قال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يحتجون بالمتشابه من الكلام ،ويضلون الناس بما يشبهون عليهم .

والمفترقة من أهل الضلال تجعل لها دينا وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث فإن وافقه احتجوا به اعتقادا لا اعتمادا ، وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه ، ويقولون : نفوض معناه الى الله ، وهذا فعل عامتهم .

وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول . ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه الا الراسخون في العلم ، والراسخون عندهم من كان موافقا لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب وترك المحكم ،

كالنصارى والخوارج ، وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما ، وجعلوا المحكم متشابها .

وأما أولئك - كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ، وكالفلاسفة - فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء وإن كان صريحا قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف ابن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : إن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الاثنتين وسبعين فرقة . قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية .

« في المتشابهات قولان »

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ (١)

في المتشابهات قولان :

« أحدهما » : انها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

و« الثاني » - وهو الصحيح - أن التشابه أمر نسبي ، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال : -

﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ . ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .
(٢) سورة هود آية رقم ١ .

وهـذا كقولـه : « الحلال بـين والحرام بـين وبين ذلـك أمور مشتبهـات لا يعلمهن كثير من الناس »(١) وكذلك قولهم : -

﴿ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾(٢) .

وقد صنف أحمد كتابا في « الرد على الزنادقة والجهمية » فـيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفـة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثـل الآيات التي سـأل عنها نـافع بن الأزرق ابـن عبـاس قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت ، وماذا عني بها .

ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل ما استأثـر الله بعلمه ، مثـل وقت الساعـة ، ومجيء أشراطهـا ، ومثل كيفية نفسه ، وما أعده في الجنة لأوليائه .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه : حدثنا زكريا عن عامر ، قال سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وذكـره ، وفيه زيـادة [فمن اتقى المشبهات استبـرأ لدينـه وعرضـه ، ومن وقع في الشبهـات كراع يـرعى حول الحمى يـوشك أن يـواقعه الأوان لكـل ملك حمى ألا إنَّ حمى الله في أرضه محـارمـه ، ألا وإن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كله وإذا فسدت فسـد الجسـد كله ألا وهي القلب » .
وأخرجه الامام مسلم في المساقاة ٢٩ باب أخـذ الحلال ، وتـرك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩ بسنـده عن النعمان بن بشير وذكره) .
وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع (١) باب ما جاء في ترك الشبهـات ١٢٠٥ بسنده عن النعمـان ابن بشير وفيه زيادة [ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » .
وقال الترمذي : هذا حـديث حسن صحيح ، وقـد رواه غير واحـد عن الشعبي عن النعمان بن بشـير ، وأخرجـه ابن ماجـه في الفتن ١٤ والدارمي في البيـوع ١ وأحمد بن حنبـل في المسند ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ (حلبي)
(٢) سورة البقرة آية رقم ٧٠ .

« أسباب نزول آية المتشابهات »

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله (إنا) و(نحن) . وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان ، لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه : (إياي) وما قيل فيه (إنا) لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه : إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول : فإيانا فاعبدوا ، ولا إيانا فارهبوا . بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والمتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ (١) ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٢) ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَأِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الفتح آية رقم ١ .

روى محمد بن اسحاق عن الزهري ، عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها الى آخرها .

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسير في بعض أسفاره وعمر ابن الخطاب يسير معه ليلاً فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه : ثكلت أم عمر فزرت رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك ، فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيَّ قرآنا فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فقلت لقد خشيت أن ينزل فيَّ قرآنا فجئت رسول الله ـ ﷺ ـ فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب الي مما طلعت عليه الشمس ـ ثم قرأ ـ ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبيناً ﴾ لفظ البخاري ، قال الترمذي . حديث حسن غريب صحيح ، وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال لما نزلت ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ،وقد نحر الهدي بالحديبية فقال :« لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليَّ من الدنيا جميعا »

(٢) سورة القيامة آية رقم ١٨ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٣ .

ونحو ذلك . مع أن تأويل هذا ـ وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم ـ لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .
و« المقصود هنا » أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ، ويعرف برهانه ودليله ، أما العقلي وإما الخبري السمعي ، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا ، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ : يحتمل كذا وكذا ، ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد .

وهذا مثل لفظ « المركب » و« الجسم » و« المتحيز » و« الجوهر » و« الجهة » و« العرض » ونحو ذلك ، ولفظ « الحيز » ونحو ذلك . فإن هذه الألفاظ ، لا توجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يجيده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضا ، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ، ويبطل ما دل عليه القرآن ؛ بالأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم ، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل ، وفي المعنى ليس بدليل كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا ، لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها والذي قال : أيها المنكح الثريا سهيلا .

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل : ثم قال :
عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل يعجبه ، وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع .

« الأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات معتقدهم »

والأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات وعطلوا ما عطلوه حتى صار منهاهم الى قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ، ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية ، وفي ذم هؤلاء المتكلمين .

والسلف لم يذموا جنس الكلام ، فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله [1] ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولا ذموا كلاماً هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضا وهو الباطل ، فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل [2] . ولكن كثير من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل ، حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن هؤلاء من يجعله أصل

---

(١) قال تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ سورة النحل آية رقم ١٢٥ .
وقال تعالى للمؤمنين ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٢) العقل في اللغة هو الحجر والنهي ، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقال الناقة من الشرود .
والعقل يطلق على ثلاثة أوجه أ ـ يرجع الى وقار الإنسان وهيئته ب : يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية ج : يراد به صحة الفطرة الأولى في الانسان فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها .

الدين ولا يحصل الإيمان أو لا يتم إلا به ، ولكن من عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد ، بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل ، لكنه طويل أو يبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعيبونه كما يعاب الطريق الطويل ، والطريق المخيف مع اعتقادهم أنه يوصل الى المعرفة وأنه صحيح في نفسه .

وأما الحذاق العارفون تحقيقه فعلموا أنه باطل عقلا وشرعاً ، وأنه ليس بطريق موصل الى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته الى الجهل والضلال ، ومن تبين له تناقضه أوصله الى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيه ينتهون الى الحيرة والشك ، إذ كان حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم وهذا مكابرة ، فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث وإما قديم والحادث لا بد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين . وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا [1] وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك ، الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات أصله من بلخ ومولده في إحدى قرى بخارى عام ٣٧٠ هـ نشأ وتعلم في بخارى وطاف البلاد وناظر العلماء ، واتسعت شهرته ، وتقلد الوزارة في همذان ، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارى ثم صار الى أصفهان وصنف بها أكثر كتبه مات عام ٤٢٨ هـ قال ابن قيم الجوزية : كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه ـ هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين » وقال ابن تيمية « تكلم ابن سينا في أشياء من الالهيات والنبويات والمعاد ، والشرائع ، لم يتكلم بها سلفه ولا وصلت اليها عقولهم ولا بلغتها علومهم فإنه استفادها من المسلمين ، وإن كان إنما يأخذ من الملاحدة المنسبين الى المسلمين كالاسماعيلية وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالالحاد » [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٥٢ وإغاثة اللهفان ٢ : ٢٦٦]

بسط ذلك في غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقا لاثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقا لاثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم والواجب فليس في واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة .

ولهذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو العالم بنفسه ، وقالوا : هو الله . وأنكروا أن يكون للعالم رب مباين للعالم ، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب ، لكنهم لا يعرفون أن هذا لا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على اثبات القديم الواجب بنفسه .

ولكن وصفوه بصفات الممتنع فقالوا : لا داخل العالم ولا خارجه ولا هو صفة ولا موصوف ، ولا يشار اليه ، ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدوم الممتنع لا صفة الموجود . فدليلهم في نفس الأمر يستلزم أنه ماثم قديم ولا واجب . ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع ، فما أثبتوا قديماً ولا واجباً . فجاء آخرون من جهميتهم فرأوا هذه مكابرة ، ولا بد من إثبات القديم والواجب فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا : هو عين الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الموجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه . وأما حقيقة قولهم فهو النفي أنه لا داخل العالم ولا خارجه ،ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ، ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية ، وشاع عند الناس

أن الجهمية يصفونه بالمسلوب حتى قال أبو تمام (١) .

جهـمـيـة الأوصـاف إلا أنها قـد حـليت بمحـاسـن الأشـيـاء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فإن هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهة عقله ، فإنه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ، ولهذا قال تعالى :ـ

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ (٢) .

وقد قيل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ من غير رب خلفهم ، وقيل : من غير مادة ، وقيل : من غير عاقبة وجزاء . والأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

ومعرفة الفطر أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها . ، من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء نازع

---

(١) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام : الشاعر ، الأديب أحد أمراء البيان ، ولد في جاسم من قرى حوران بسورية . ورحل الى مصر واستقدمه المعتصم الى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها عام ٢٣١ هـ كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزه من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع في شعره قوة وجزالة واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي له تصانيف منها فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ، ونقائض جرير والفرزدق وغير ذلك كثير. [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٢١ ونزهة الألباء وابن عساكر، ومعاهد التنصيص ١ : ٣٨ وخزانة البغدادي ١ : ١٧٢ ، ٤٦٤وفيه: كان شعره غير مرتب فرتبه الصولي على الحروف ، ثم رتبه علي بن حمزة الأصفهاني على أنواع الشعر ، وتاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨ وفيه قال ابنه تمام ولد أبي سنة ١٨٨ هـ ومجلة المجمع العلمي العربي ٢٤ : ٢٧٤ والذريعة ١ : ٣١٤ و ٣١٥ ودار الكتب ٣ : ١٩٩ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٣٥ .

في هذا وهذا ، ولم ينازع في الأول . طائفة قالت : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه ، بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع . وإما أن يقول : إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة ، وإنما يحكى عمن لا يعرف .

ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد في عقله صار به الى السفسطة [1] ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس ، وفي بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء ، هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث .

وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته ، فهو محدث وممكن لزمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفاً بما يقوم به من الصفات والأمور الاختيارات ، مثل أنه متكلم

---

(١) أصل هذه اللفظة في اليونانية (سوفيسيا) وهو (مشتق من لفظ سوفوس) ومعناه الحكيم والحاذق .

والسفسطة : عند الفلاسفة : هي الحكمة المموهة ، وعند المنطقيين هي القياس المركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم واسكاته وقيل : إن السفسطة قياس ظاهره الحق وباطنه الباطل ، ويقصد به خداع الآخرين أو خداع النفس ، فإذا كان القياس كاذباً ولم يكن مصحوباً بهذا القصد لم يكن سفسطة ، بل كان مجرد غلط أو انحراف عن المنطق، وتطلق السفسطة أيضاً على القياس الذي تكون مقدماته صحيحة ، ونتائجه كاذبة لا ينخدع بها أحد إلا أنك إذا أنعمت النظر فيه وجدته مطابقاً لقواعد المنطق ، ووجدت نفسك عاجزاً عن دحضه كسفسطة السهم وسفسطة كومة القمح ، فإن الغرض منها إثارة المشكلات المنطقية ، وإظهار المتناقضات التي تضع العقل في مأزق حرج .

أما سفسطة السهم فقد لخصها (زينون) الإيلي في كلامه على بطلان الحركة بقوله : كل جسم يشغل امتداداً مساوياً لامتداده فهو ساكن ، والسهم المرمي ، جسم يشغل في كل لحظة من زمان حركته امتداداً مساوياً لامتداده .

والسوفسطائي : هو المنسوب الى السفسطة . قال (بروشار) لقد كان السوفسطائيون القدماء يدعون أنهم يستطيعون أن يبرهنوا على النظريات المتناقضة بأدلة منطقية متساوية الخ . [راجع المعجم الفلسفي جـ ١ ص ٦٥٨ وما بعدها]

بمشيئته وقدرتـه ، ويخلق ما يخلقـه بمشيئته وقـدرته ، لكن هؤلاء اعتقـدوا انتفاء هذه الصفات عنه ، لاعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهـو حـادث ، لأن ذلـك لا يخلو من الحـوادث ومـا لم يخـل من الحــوادث فهـو حادث ، وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب ، وأنه ذات مجردة عن الصفات ، ووجوده مطلق لا يشـار اليه ولا يتعـين ، ويقولـون : هو بلا إشارة ولا تعيين ، وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج . وإنما هو في الذهن . فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهـان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع .

فجـاء إخوانهم في أصـل المقالـة وقالـوا : هذا الـوجود المـطلق المجرد عن الصفات هو الوجود الساري في الموجودات ، فقالوا بحلوله في كل شيء .

وقال آخرون منهم : هـو وجود كـل شيء ، ومنهم من فرق بـين الوجـود والثبوت ومنهم من فرق بين التعيين والإطلاق ، ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصـورة ، ومنهم من جعله في العالم كـالزبـد في اللبن وكالـزيت والشيرج في السمسم والزيتون . وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

و« المقصـود هنا » أن الأصـل الذي أضلهم قـولهم ما قـامت به الصفـات والأفعال ، والأمور الأختيارية أو الحـوادث فهو حـادث ، ثم قالـوا : والجسم لا يخلو من الحـوادث ، وأثبتوا ذلـك بطرق ، منهم من قـال : لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق . ومنهم من قـال : لا يخلو عن الحـركـة والسكـون فقط . ومنهـم من قــال : لا يخـلو عن الأعـراض [1] ،

---

(١) عرض الشيء ظهر ، وبدأ ولم يدم ، والعرب يطلقون لفظ العرض علـى عدة معـان . فهو يـدل على الأمر الذي يعرض للمرء من حيث لم يحتسبه أو عـلى ما يثبت ولا يـدوم ، أو على مـا يتصل بغيره ويقوم به ، أو على ما يكاثر ويقل من متـاع الدنيـا ، فكأن المتكلمـين والفلاسفـة استنبطوا معنى العرض من أحد هذه المعاني فـدلوا بـه على مـا يقوم بـذاته وهـو الحال في مـوضوع . قـال الخوارزمي : العرض هو ما يتميز به الشيء عن الشيء لا في ذاته كالسـواد والبياض ، والحـرارة =

والأعراض كلها حادثة ، وهي لا تبقى زمانين ، وهـذه طريقـة الآمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقـة الحركـة والسكون [1] .

وقـد بسط الكلام على هـذه الطرق ، وجميـع ما احتجـوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كمـا قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وأمـا الهـشامية والكـرامية وغيـرهم ممن يقـول بـأنـه جسم قـديم فقـد شاركوهم في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ولا قالوا : إن الجسم لا ينفك عن الحوادث ، إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهـو خال من الحوادث . وقد قيل : أول من قال في الإسـلام إن القـديم جسم هو هشـام بن الحكم [2] ، كـما أن أول من أظهـر في الاسـلام نفي الجسم هـو الجـهم بـن صفوان .

= والبرودة ، وغير ذلك (راجع مفاتيح العلوم ، ٨٦)

(١) الحركة : ضد السكون ولها عند القدماء عـدة تعريفـات ، وهي : أ ـ الحركـة : هي الخروج من القوة الى الفعل على سبيل التدريج ومعنى التدريج هو وقوع الشيء في زمان بعد زمان .
ب ـ الحركة : هي شغل الشيء حيزاً بعد أن كان في حيز آخر ، أو هي كونان في آنـين ومكانـين بخلاف السكون الذي هو كونان في آنين ومكان واحد .
والحركة في الفلسفة الحديثة : هي التغير المتصل الذي يطرأ على وضـع الجسم في المكان من جهـة ما هو تابع للزمان فلكل حركة زمان لأن الجسم المتحرك لا يشغل مكانين في زمان واحد .

(٢) هو هشام بن الحكم الشيباني بالـولاء الكوفي أبـو محمد ، متكلم منـاظر ، كـان شيخ الامـامية في وقته ، ولد بـالكوفـة ، ونشأ بـواسط ، وسكن بغداد ، وانقـطع الى يحيى بن خالـد البرمكي ، فكان القيم بمجالس كـلامه ونـظره وصنف كتباً منهـا « الامامـة » و« القدر » و« الشيـخ والغلام » و« الدلالات على حدوث الأشياء » و« الرد على المعتزلة في طلحة والزبير » و« الرد على الزنـادقة » والرد على شيطان الطاق » و« الرد على هشام الجواليقي » وغير ذلك ، ولما حدثت نكبـة البرامكـة استتر وتوفي على أثرها بالكوفة عام ١٩٠ هـ ويقال عاش الى خلافة المأمون .
[راجع منهج المقـال ٣٥٩ وسفينة البحـار ٢ : ٧١٩ والنجاشي ٣٠٤ وفهـرست الـطوسي ١٧٤ =

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض التجسيم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة ، كما قال الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه واسحاق بن راهويه [1] وغيرهما قالوا : المشبهة الذين يقولون : بصر كبصري ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب [2] ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته [فأما التي تتعلق بمشيئته وقدرته] فينفونها ، قالوا لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

و« محمد بن كرام » [1] كان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج [2]

= والكشي ١٦٥ وهم مضطربون في سنة وفاته ، منهم جزم بأنها سنة ١٩٩ ومنهم من يراها سنة ١٧٩ وفي فهرست ابن النديم طبعة فلوجل ١ : ١٧٥ مات بعد نكبة الرامكة بمديدة مستتراً ويقال عاش الى خلافة المأمون] .

(١) هو اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي أبو يعقوب بن راهويه عالم خراسان في عصره من سكان مرو (قاعدة خراسان) وهو أحد كبار الحفاظ طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ، وقيل في سبب تلقيبه (ابن راهويه) أن أباه ولد في طريق مكة فقال أهل مرو : راهويه ، أي ولد في الطريق . وكان اسحاق ثقة في الحديث قال في الخطيب البغدادي : اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد . توفي عام ٢٣٨ هـ .
[راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ ـ ٤١٤ وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ وطبقات الحنابلة ٦٨ وفيه ولادته سنة ١٦٦ ووفاته سنة ٢٤٣ وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥]

(٢) هو محمد بن كرام بن عراق بن حزابة أبو عبد الله السجزي : إمام الكرامية من فرق الابتداع في الإسلام ، كان يقول بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر . ولد في سجستان ، وجاور بمكة خمس سنين ، وورد نيسابور فحبسه طاهر بن عبد الله ، ثم انصرف الى الشام وعاد الى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر ، وخرج منها عام ٢٥١ هـ الى القدس فمات فيها عام ٢٥٥ هـ [راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٨ وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٠٦ والأنس الجليل ١ : ١٦٢ وميزان الاعتدال ٣ : ١٢٧ ولسان الميزان ٥ : ٣٥٣]

أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ، ويتكلم بمشيئته وقدرتـه ، ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأزل متكلماً بمشيئته وقدرته ، لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقبل بقول السلف أنـه لم يزل متكلما اذا شـاء بل قـال : إنه صـار يتكلم بمشيئته وقدرته ، كـما صار يفعـل بمشيئته وقـدرته بعـد أن لم يكن كذلـك ، وقال : هـو وأصحابه في المشهور عنه أن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يـزول عنها ، لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كـان قابـلا لحدوثهـا وزوالها ، وإذا كـان قابلا لذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحـوادث فهو حـادث ، وإنما يقبـل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط ، كما يقبل أن يفعلهـا ويحدثهـا ، ولا يلزم من ذلـك أنها لم تخل منـه كما لم يلزم أنـه لم يزل فـاعلا لهـا ، والحدوث عنـدهم غير الأحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محـدث ، لأن المحدث يفتقـر الى اجداث بخلاف الحدوث .

خلاف العلماء في السكون هل وجودي أم عدمي . . ؟

وهم إذا قالوا : كان خاليا منها في الأزل وكان ساكناً لم يقولوا إنه قام به حادث ، بل يقولون السكون أمر عدمي كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر وجودي ، بخلاف ما يقوله [من يقوله] من المعتزلـة والأشعريـة : أن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حـادث لم يكن ثم عدم هـذا الحادث ،

---

(١) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أبو الحسين حـافظ من أئمة المحـدثين بنيسابور ، ورحل الى الحجاز ، ومصر ، والشام والعراق ، وتوفي بظاهر نيسابور عـام ٢٦١ هـ أشهر كتبه « صحيح مسلم » جمع فيه اثني عشر ألف حديث كتبها في خمس عشرة سنة ، وهو أحد الصُحيحين المعول عليها عند أهل السنة في الحـديث ، ومن كتبه «المسند الكبير» رتبـه على الرجال ،«والجامع» مرتب على الأبواب ،«والأسماء والكنى » أربعة أجـزاء ، وغير ذلـك كثير . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٥٠] وتهذيب ١٠ : ١٢٦ ، وابن خلكان ٢ : ٩١ وفهرسة ابن خير ٢١٢ وتاريـخ بغداد ١٢ : ١٠٠ وفيه أن مسلماً حذا حذو البخاري في صحيحه ولما ورد البخاري نيسابور في آخـر أمره لازمـه مسلم . وطبقات الحنابلة ١ : ٣٣٧ والبداية والنهاية ١١ : ٣٣ ومعجم المطبوعات ١٧٤٥

فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به وهذا ممتنع ، وهم يقولون : إنه يمتنع عدم الجسم وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وافناؤها ، فالحوادث التي تقوم بهم تقوم به لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء ، فكان قابلا لأن يحدث فيه حادث ، ويفني ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلابية ، لكن المعتزلة يقولون : السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر . وهؤلاء يقولون : السكون ليس بضد وجودي . بل هو عدمي ، وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناء ، فلو قبل قيام الاحداث والإفناء به لكان قابلا لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده . وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الآمدي تناقضهم من وجوه كثيرة ، قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول : أنه تقوم به الحوادث وتزول ، وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية [1] لهم في ذلك قولان وإلا فالقول بفناء الصوت

---

(١) يقول عبد القاهر البغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق » : وأعجب من هذا ، فرقهم بين المتكلم والقائل ، وبين الكلام والقول . وذلك أنهم قالوا : إن الله تعالى لم يزل متكلماً قائلاً ، ثم فرقوا بين الإسمين في المعنى ، فقالوا : إنه لم يزل متكلماً بكلام هو قدرته على القول . ولم يزل قائلاً بقائلية لا بقول . والقائلية قدرته على القول . وقوله حروف حادثة فيه . فقول الله تعالى عندهم حادث فيه ، وكلامه قديم .

قال عبد القاهر : ناظرت بعضهم في هذه المسألة ، فقلت له : إذا زعمت أن الكلام هو القدرة على القول ، والساكت عندك قادر على القول في حال سكوته ، لزمك على هذا القول أن يكون الساكت متكلماً ، فالتزم ذلك .

الذي كلم به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : انه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمه بصوت حادث ، وأن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهة . وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلاً وشرعاً . وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا ، بل قد خالفوا السلف والأئمة وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم ، من الفلاسفة والدهرية [1] والملاحدة بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيعوا الأصول فحرموا الوصول ، والأصول اتباع ما جاء به الرسول .

وأحدثوا أصولا ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين : مثل البناء والشجرة . فقال في المؤمنين والمنافقين :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ

---

(١) مذهب اعتقادي اشتق اسمه من الدهر ، والقول بأزليته وقدمه وأن الحياة بما في ذلك أفعال البشر تجري نتيجة للقوانين الطبيعية والى هذا تشير الآية الكريمة **﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾** ويستتبع اعتقادهم أن المادة لا تفنى وأن الحواس هي أبواب المعرفة دون غيرها وأن المحسوسات هي الحقيقة الثابتة لهذا كثيراً ما يطلق على الدهرية اسم المادية أو الطبيعية وإن كانت تختلف الواحدة عن الأخرى في بعض الوجوه ، وقد نشأت هذه المدرسة في التفكير الإسلامي نتيجة للتأثر بمترجمات الفلسفة اليونانية . [راجع القاموس الاسلامي ٢ : ٣٩٧]

عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ والله لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

« أقوال العلماء في الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة »

وقال : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . وَيَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِن قَرَارٍ ، يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) .

والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما تفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء ، كما قيل :

أيها المفتدي لتطلب علما	كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح حكما	ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين الى صراطه المستقيم ، صراط الذين

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٤ ـ ٢٧
اختلف العلماء في أصل الشجرة ـ وخرج الدارقطني عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما قال : قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ وضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت ﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أتدرون ما هي . . ؟ فوقع في نفسي أنها النخلة . قال السهيلي : ولا يصح فيها ما روي عن علي بن أبي طالب أنها جوزة الهند ـ لما صح عن النبي ـ ﷺ ـ في حديث ابن عمر « إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها ـ وهي مثل المؤمن خبروني ما هي ـ ثم قال ـ هي النخلة » ـ أخرجه مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره .

أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وهذه الأصول ينبني عليها ما في القلوب ،و يتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين . و« الكلمة » هي قضية جازمة وعقيدة جامعة . ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين ـ وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية ـ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (١) .

والله سبحانه وتعالى مثل الكلمة الطيبة ، أي : كلمة التوحيد ، ﴿ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهي ثابتة في قلب ثابت ، كما قال :

﴿ يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (٢) فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان في قلبه ثابت مستقر ، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ استؤصلت واجتثت . كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان ، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى

---

(١) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٢٧ .

﴿ وَبِئْسَ القَـرَارُ ﴾ (١) وقال ﴿ جَعَـلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ (٢) ويقـال : فلان ماله قرار أي ثبات . وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا . فـالمبطل ليس قـوله ثابتا في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر . كما قال تعالى في المثل الآخر :

﴿ فَـأَمَّـا الـزَّبَـدُ فَيَـذْهَبُ جُفَـاءً ، وَأَمَّـا مَـا يَنفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (٣) فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عنـد الحقيقة يخـونه ، كـالذي يشـرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله .

وكذلك الأفعـال الباطلة التي يعتقـدها الإنسـان عند الحقيقـة تخونـه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قـرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يـوصله الى الله ، فإنه سبحانه : ـ

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٤)

ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنـه يحرم الـوصول : لأنـه ضيع الأصـول ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون الى غاية محمودة كما قال تعالى :

﴿ لَـهُ دَعْـوَةُ الحَقِّ وَالَّـذِينَ يَـدْعُـونَ مِن دُونِـهِ لَا يَسْتَجِيبُـونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَـاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَـاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَـا هُوَ بِبَـالِغِـهِ وَمَـا دُعَـاءُ الكَـافِـرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٢٩ وقد جاءت هذه الآية محرفة في الأصل حيث ذكرت بدون (الواو)

(٢) سورة غافر آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٤) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

والكلم الطيب : هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه وأنشدوا :

لا تـرض مـن رجـل حـلاوة قـولـه ... حـتـى يـزيـن مـا يـقـول فـعـال

فـإذا وزنـت فـعـالـه بـمـقـالـه ... فـتـوازنـا فـإخـاء ذاك جـمـال

(٥) سورة الرعد آية رقم ١٤ . =

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ، بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصفه به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته . والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ في ثلاث مواضع ، ليثبت عظمته في نفسه ، وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ (١) الآية وقال في الحج :

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٢) .

وقال في الأنعام .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ ﴾ (٣)

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره ، كما يجب عليه

= ضرب الله مثلاً ليأسهم من الاجابة لدعائهم ، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد قال الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها ... من الود مثل القابض الماء باليد

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٣ ـ ٧٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩١ .

أن يتقيه حق تقاته ، وأن يجاهد فيه حق جهاده . قال تعالى : ـ

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (١) وقال ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ (٢) والمصدر هنا مضاف الى المفعول ، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التي أمركم بها ، ولقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر ، وأطيعوه فيما أوجب . وأمر ، وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه ، قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو .

ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً ، لا سيما قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (٣) وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية . لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبا وتصديقاً لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية (٤) .

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٩ باب قول الله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ٧٤١٥ حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي حدثنا الأعمش ، سمعت ابراهيم ، قال سمعت علقمة يقول : قال عبد الله ـ جاء رجل الى النبي ـ ﷺ ـ من أهل الكتاب وذكره . وأخرجه الامام مسلم ـ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ كتاب صفة القيامة والجنة والنار ١٩ (٢٧٨٦) حدثنا فضيل (يعني ابن عياض) عن منصور عن ابراهيم عن عبيدة السلماني =

وعن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ؟ ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ؟ والأرض على ذه والجبال والماء على ذه وسائر الخلق على ذه، فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (١) .

رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس ، وقال غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر ، فإن الذي في الآية أبلغ ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟(٢) وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :

= عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر الى النبي - ﷺ - وذكره .
وأخرجه الترمذي في أبواب التفسير « سورة الزمر » ٣٢٩١ - حدثنا بندار أخبرنا يحيى بن سعيد أخبرنا سفيان ، حدثني منصور وسليمان الأعمش عن ابراهيم عن عبيدة عن عبد الله قال : وذكره .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب التفسير (سورة الزمر) ٣٢٩٣ - حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، أخبرنا محمد بن الصلت أخبرنا أبو كدينه عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس قال : مر يهودي بالنبي - ﷺ - فقال له - النبي - ﷺ : يا يهودي حدثنا ، فقال : وذكره .
قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو كدينه اسمه يحيى بن المهلب ، ورأيت محمد بن اسماعيل روى هذا الحديث عن الحسن بن شجاع عن محمد بن الصلت

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم - في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢٣ (٢٧٨٧) حدثني حرملة بن يحيى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب حدثني ابن المسيب أن أبا =

« يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى [1] .

وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ، ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى ، فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فجعل صفته التي وصفوه بها شركاً .

وقال : حدثنا أبي ، ثنا أبو نعيم ، ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن ، قال : عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه ، فأنزل الله تعالى على نبيه : ـ

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره . وقوله : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فكل من جعل مخلوقا مثلا للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو

= هريرة كان يقول وذكره وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٦ باب قول الله تعالى ﴿ ملك الناس ﴾ فيه ابن عمر عن النبي ـ ﷺ ـ أخبرني يونس عن ابن شهاب عن ابن سعيد ، هو ابن المسيب ـ عن أبي هريرة ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره ، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٢ ـ حدثنا حرملة بن يحيى ، ويونس بن عبد الأعلى قالا : ثنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب حدثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة كان يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(1) الحديث عند مسلم ـ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢٤ ـ ٢٧٨٨ حدثنا أسامة عن عمر ابن حمزة ، عن سالم بن عبد الله أخبرني عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه ، والرب تعالى لا كفء له ولا سمي له ولا مثيل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ممثل ، والمعطل شر من المشرك .

والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصلَ له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته الى ما ذكر الله تعالى - وليس لله صفة يماثله فيها غيره ، فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل [١] ، ولا قياس الشمول الذي تستوي أفراده ، فإن ذلك شرك ، إذ سوى فيه بالمخلوق ، بل قياس الأولى فإنه سبحانه : -

﴿ لَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [٢] .

فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص . وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع ، وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتاً مجردة فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات

---

(١) القياس : التقدير ، يقال : قاس الشيء إذا قدره ، ويستعمل أيضاً في التشبيه ، أي في تشبيه الشيء بالشيء ، يقال هذا قياس ذاك إذا كان بينهما تشابه .
والقياس اللغوي : رد الشيء الى نظيره ، والقياس الفقهي : حمل فرع على أصله لعلة مشتركة بينهما .
والقياس المنطقي : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها قول آخر . وقياس التمثيل : هو الحكم على شيء معين لوجود ذلك الحكم في شيء آخر معين ، أو أشياء أخرى معينة ، على أن ذلك الحكم على المعنى المتشابه فيه (ابن سينا النجاة ص ٩)
والفرق بين قياس التمثيل والاستقراء أن قياس التمثيل ينقل الحكم من علاقة معلومة الى علاقة مشابهة لها من جهة ، ومختلفة عنها من جهة أخرى ، على حين أن الاستقراء ينقل الحكم من المثل الى المثل .
(٢) سورة الروم آية رقم ٢٧ .

الـذهنية ، وجعلوه دون المـوجودات الخـارجية ، والنفـاة الذين قصـدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم لم يثبتوا بـذلك حـدوث شيء ، كما قـد بين في موضعه .

« عمدة النفاة في التنزيه على نفي الجسم »

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم . ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائض البتة ، فـإنه مـا من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ألا يقـال له فيمـا أثبته نظير ما يقـوله هـو في نفس تلك الصفة . فـإن كان مثبتـا لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي تنفيها كـالقول فيمـا أثبته ، فـإن كان هـذا تجسيما وقولا باطلا فهذا كذلك ، وان قلت : أنا أثبت هـذا على الوجـه الذي يليق بالرب قيل له : وكذلك هذا . وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم . قيل وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كـان ممن يثبت الأسمـاء وينفي الصفـات كـالمعتـزلـة قيـل لـه في الصفـات ما يقـوله هـو في الأسماء ، فـإذا كان يثبت حيـاً عالمـاً قادراً . وهـو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كان إثبات أن له علماً وقدرة ، كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

وإن كـان ممن لا يثبت لا الأسمـاء ولا الصفـات كـالجهميـة المحضـة والملاحدة قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه . وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال : لا أُسميـه باسم لا إثبات ولا نفي : قيل لـه : سكوتـك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبـات ، فإمـا أن يكون حقـاً ثابتـاً موجوداً ، وإما أن يكون باطلا معدوماً . وأيضا فإن كنت لم تعرفه فـأنت جاهـل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به ، مثـل أن تقـول : رب العالمين ، أو القـديم الأزلي ، أو الموجـود بنفسه ونحـو ذلـك ، وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه ، وأثبته فاعـلا وأنت لا تعرف مـا هو

كذلك إلا الجسم [1] .

وإن قدر إنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهور ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديماً أزلياً ، فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم [2] الأزلي على كل تقدير ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع . وهنا قد نبهنا على ذلك ، هو أنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفي الجسم فإنه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلا بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفي التركيب . ومن تدبر ما ذكروه في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا هم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلا ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلا على نفي كونه جسماً ، فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلا وتناقضوا ؟ .

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة ، فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ، لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية ، وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة : لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية ، وليس فيها علم

---

(1) الجسم الطبيعي : عند قدماء الفلاسفة : هو مبدأ الفعل والانفعال وهو الجوهر المركب من مادة وصورة ، وهم وإن كانوا يطلقون الجسم أحياناً على ما له مادة والجوهر على ما لا مادة له ، إلا أنهم يطلقون الجوهر أيضاً على كل متحيز ، فيكون معنى الجوهر أعم من معنى الجسم .

(2) إذا قال الفلاسفة إن العالم قديم ، أرادوا بذلك أن وجود الله متقدم على وجود العالم والزمان تقدماً ذاتياً لا تقدماً زمانياً ، والقديم عندهم ، مقابل للحادث ، وهو ما لوجوده مبدأ زماني .

أصلا ، ولكن يستفاد من كلامهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه . ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ، كما فعل القاضي أبو بكر في هداية المسترشدين [1] وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبي ﷺ بالمدينة ، وكانوا أحيانا يذكرون له بعض الصفات ، كحديث الحبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ ﴾ [2] وأن يده مغلولة وغير ذلك ، ولم يقل النبي ﷺ قط إنهم يجسمون ، ولا أن في التوراة تجسيماً ولا عابهم بذلك ، ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة .

فتبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع والعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ، ولما فطر عليه عباده ، وأن أهلها من جنس الذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [3]

« اعتماد العقلاء في التنزيه على طريقة الكمال »

وقد بينا في غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازي من أن طريقة الوجوب والإمكان [4] من أعظم الطرق ، وبينا فسادها وأنها لا تفيد علما ،

---

(١) قال صاحب كشف الظنون (هداية المسترشدين في الكلام - لأبي بكر . . . ابن الباقلاني الشافعي المتوفى سنة . . .
هكذا ذكره بدون توضيح للكتاب ولا ذكر تاريخ وفاة صاحبه [راجع كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٠٤٢]

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨١ .

(٣) سورة الملك آية رقم ١٠ .

(٤) الامكان في اللغة : مصدر أمكن إمكاناً كما تقول : أكرم إكراماً وهو أيضاً مصدر أمكن الشيء من ذاته . والإمكان في الشيء عند المتقدمين هو إظهار ما في قوته الى الفعل ، وذلك أنك =

وأنهم لم يقيموا دليلا على إثبات واجب الوجود ، وأن طريقة الكمال أشرف منها وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً ، وهو قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية فما وجدها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن .

وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، ليمكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدمه ، وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه ، وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع . ثم إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم الى قول فرعون ، فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق ، وإن أثبتوه قالوا إنه لا يتكلم ، ولا نادى أحداً ولا ناجاه .

وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم ، وفي نفي كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحله [1] الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل ،

= إذا تصورت طبيعة الواجب كان طرفاً وبازائه في الطرف الآخر طبيعة الممتنع ، وبينهما طبيعة الممكن .

والامكان : عبارة عن كون الماهية بحيث تتساوى نسبة الوجود والعدم اليها ، أو عبارة عن التساوي نفسه على اختلاف العبارتين فيكون صفة للماهية حقيقة من حيث هي هي [راجع كليات أبي البقاء].

(١) قال تعالى **﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾** وهذا تشريف لموسى (ع) بهذه الصفة ولهذا يقال له الكليم وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي ، حدثنا مسيح بن حاتم ، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله . قال : جاء رجل الى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ **﴿ وكلم اللهَ موسى تكليما ﴾** فقال أبو بكر ما قرأ هذا إلا كافر ، قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن ثابت وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن =

فحقيقة قولهم ينـاقض شهادة أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسـول الله ، فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله ، والرسالة هي كلامه الذي بعثه بـه ، فإذا لم يكن متكلما لم تكن رسالة .

ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقـل إنه يتكلم بمشيئتـه وقدرته كلاما يقـوم بذاتـه لم يقل إنـه يتكلم . والنفاة منهم من يقـول : الكلام صفـة فعل بمعنى أنـه مخلوق بـائن عنـه ، ومنهم من يقـول : هـو صفـة ذات بمعنى أنه كالحياة يقوم بـذاته ، وهـو لا يتكلم بمشيئته وقـدرته ، وكـل طائفـة مصيبة في إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته . فأدلة من قال : إنه صفة فعل كلها إنمـا تدل على أنـه يتكلم بقـدرته ومشيئتـه وهذا حق ، وأدلـة من قال إنـه صفة ذات إنمـا تـدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق أو قال إنه لا يتكلم بمشيئتـه وقدرتـه فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتـوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاما ، ولهذا يقولـون : ما لا يعقـل هذا يقـول : إنه معنى واحـد

= السلمي ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طـالب ، وقرأ علي بن أبي طـالب على رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عيـاش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وكلم اللهَ موسى تكليما) فقـال يا بن اللخنـاء كيف تصنع بقـوله تعـالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ يعني أن هذا لا يحتمـل التحريف ولا التأويل . وإذا كان الله قد كلم موسى تكليماً فهو لون من الوحي لا يعرف أحـد كيف كان يتم . لأن القـرآن ـ وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى الشك الى صحته لم يفصل لنا في ذلك شيئاً فلا نعلم إلا أنه كان كلاماً ، ولكن ما طبيعته ؟ كيف تم ؟ بأية حاسة أو قوة كان مـوسى يتلقاه . . ؟ كـل ذلك غيب من الغيب لم يحـدثنا عنـه القرآن ، وليس وراء القـرآن ـ في هـذا البـاب ـ إلا أساطير لا تستند الى برهان .

قام بالذات ، وهذا يقول : حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته وهذا يقول : مخلوق بائن حسنه .

« القرآن كلام الله »

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة حاروا وتوقفوا ، وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقاً أو بحرف وصوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا .

ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها هو معرفة ما جاء به الرسول ، وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم لا سيما والقلوب تطلب معرفة الحق في هذه بالفطرة ، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها .

وهؤلاء يذكرون هذا الوقف في عقائدهم ، وفيما صنفوه في أصول الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام قد صنفوا في أصول الدين ما صنفوه، ولما تكلموا في « مسألة القرآن » وهل هو مخلوق ؟ أو قديم ؟ أو هو الحروف والأصوات ؟ أو معنى قائم بالذات ؟نهوا عن هذه الأقوال ، وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم : إن القرآن كلام الله ، ويمسك عن هذه الأقوال .

وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة : قول المعتزلة ، والكلابية ، والسالمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولاً غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ،

وهـو الاستدلال على حـدوث الأجسام وحـدوث العالم بـطريقـة أهـل الكـلام المبتـدع ، كمـا سلكهـا من ذكـرتـه من أجـلاء شيـوخ أهـل العلم والــدين ، والاستدلال على إمكانها بكونهـا مركبـة كما سلك الشيخ الآخر ، وهـذا ينفي عن الواجب أن يكون جسمـاً بهذه الـطريقة ، وذلـك نفى عنه أنـه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعـظم نظراً واستـدلالا بهـا وبغيرهـا قد عـرفوا فسـادها ، كمـا قد بسط في غيـر هذا المـوضع . والله سبحانه قد أخبر أنه ﴿ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [1] وأخبـر أنه « ينصـر رسله والذين آمنـوا في الحيـاة الـدنيـا » [2] والله سبحانه يجـزي الإنسان بجنس عمله ، فـالجزاء من جنس العمـل فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبـه ، فإن كـان قد قـدح فيهم ونسب ما يقـولونـه إلى أنه جهـل وخروج عن العلم والعقـل ابتلى في عقله وعلمه ، وظهـر من جهله مـا عوقب به .

ومن قال عنهم : إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه . ومن قال : إنهم جهـال أظهر الله جهله ، ففـرعون وهـامان وقـارون لما قـالوا عن مـوسى : إنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم في قوله : ـ

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [3] .

وطلب فرعون إهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب . كقوله : ـ

---

(1) سورة التوبة آية رقم ٣٣ وصحتهـا ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾

(2) هـذه ليست بآيـة وصحة الآيـة ﴿ إنا لننصـر رسلنا والـذين آمنوا في الحيـاة الدنيـا ويـوم يقـوم الاشهاد ﴾ سورة غافر آية رقم ٥١ .

(3) سورة غافر آية رقم ٢٣ ـ ٢٤ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ . إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١) وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ (٢)

أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأذله غاية الإذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبي ﷺ سماه أبا جهل (٣) ، وهو كما سماه رسول الله ﷺ أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

والذين قالوا عن الرسول إنه أبتر وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (٤) فلا يوجد من شنأ الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته . قيل لأبي بكر بن عياش إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة ، فقال : من جلس للناس جلس الناس إليه ، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم .

---

(١) سورة غافر آية رقم ٢٦ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٥٢ .

(٣) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي : أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - في صدر الإسلام ، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية . قال صاحب عيون الأخبار : سودت قريش أبا جهل ولم يطر شاربه فأدخلته دار الندوة مع الكهول أدرك الاسلام وكان يقال له « أبا الحكم » فدعاه المسلمون « أبا جهل » سأله الأخنس بن شريق الثقفي ، وكانا قد استمعا شيئاً من القرآن ما رأيك يا أبا الحكم في ما سمعت من محمد . . ؟ فقال : ماذا سمعت : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرس رهان . قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه . . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . قتل في غزوة بدر عام ٢ هـ .
[راجع ابن الأثير ١ ؛ ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، وعيون الأخبار ١ : ٢٣٠ والسيرة الحلبية ٢ : ٣٣ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٣٢٢]

(٤) سورة الكوثر آية رقم ٣

« الجهمية نفاة الصفات رددوا مقالة فرعون وهامان »

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات ، الذين وافقوا فرعون في جحده ، وقالوا إنه ليس فوق السموات ، وأن الله لم يكلم موسى تكليماً ، كما قال فرعون :

﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كاذِباً ﴾ [1] وكان فرعون جاحدا للرب ، فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال : ﴿ أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ قال تعالى : ـ ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ تَبَابٍ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ . فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ في الأرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ، وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِنَ المَقْبُوحِينَ ﴾ [3] .

ومحمد ﷺ لما عرج به الى ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ، ذكر أنه رجع الى موسى ، وأن موسى قال له : إرجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك ، كما تواتر هذا في أحاديث المعراج . فموسى صدق محمداً في أن ربه

---

(١) سورة غافر آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة القصص آية رقم ٣٨ ـ ٤٢ .

فوق ، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق ، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون . وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهي مما اعتمد عليها أبو الحسن الأشعري في كتابه « الإبانة » (١) وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية على أن الله فوق العالم وقال في أوله :

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية ، والخوارج والروافض ، والمعتزلة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وربما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الكامل ، والرئيس الفاضل ، الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والاعتقاد على علو الله على العرش (٢) ، وعلى الرؤية (٣) ومسألة القرآن (٤) ونحو ذلك وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

و« المقصود هنا » أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول ، إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن

---

(١) تم طبع هذا الكتاب وقامت بتحقيقه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه الدكتوره فوقية حسين .

(٢) قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ سورة طه آية رقم ٥

(٣) قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ القيامة ، آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) راجع كتاب الامام أحمد بن حنبل « الرد على الجهمية والزنادقة » وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب « طبع ونشر دار اللواء بالرياض » .

الإثبات لا النفي ، لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ، ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول .

وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر في ذلك ما يرجع اليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على زعمهم ، بخلاف غير هذا فإنهم معترفون بأن الرسول ذكر في القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب ، وعلى صدق الرسول .

وقد يقولون أيضاً : إنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكروه من النفي لم يذكره الرسول ، فلم يخبر به ولا ذكر دليلا عقلياً عليه ، بل إنما ذكر الإثبات ، وليس هو في نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس الى التأويل أو التفويض ، فلما نسبوا ما جاء به الرسول الى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، لا خبر يبين الحق ولا دليل يدل عليه عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع ، مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية ، من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد ، الذين يقدحون في العقليات والسمعيات .

وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ، فإذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١)

وكما قال تعالى : ـ

---

(١) سورة الملك آية رقم ١٠ .
عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : لقد ندم الفاجر يوم القيامة قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . فقال الله تعالى ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ أي بتكذيبهم الرسل والذنب ها هنا بمعنى الجمع لأن فيه معنى الفعل .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ من فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [1] .

فلما كان حقيقة قولهم أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي سلبهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية ، حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

« الجعد أول من أظهر التعطيل في فكر المسلمين » .

وقد قيل : إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه قول فرعون هو الجعد بن درهم [2] ، فضحى به خالد بن عبد الله القسري [3]

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٩ ٤٠ .

(٢) الجعد بن درهم ، من الموالي : مبتدع ، له أخبار في الزندقة ، سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة ، في أيام هشام بن عبد الملك ، فنسب اليه . أو كان الجعد مؤدبه في صغره . ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي ، نسبة اليه . قال الذهبي : « عداده في التابعين ، مبتدع ضال ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر » .
[راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ ، والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ ، والتاج ٢ : ٣٢١ ، ولسان الميزان ٢ : ١٠٥ ، واللباب ١ : ٢٣٠ ، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٢ ، وتاريخ الخميس ٢ : ٣٢٢] .

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري، أبو الهيثم ، أمير العراقين ، يماني الأصل ، من أهل دمشق ، ولي مكة سنة ٨٩ هـ . للوليد بن عبد الملك ، ثم ولاه هشام العراقين « الكوفة والبصرة » سنة ١٠٥ هـ . عزله هشام سنة ١٢٠ هـ . وولى مكانه يوسف بن عمر ، =

وقال : أيها الناس : ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، إني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه ، وشكر له علماء المسلمين ما فعله ، كالحسن البصري [1] وغيره .

وهذا الجعد اليه ينسب مروان بن محمد [2] الجعدي آخر خلفاء بني أمية وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة . فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل ، وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون « إنكار الصانع وإنكار عبادته » وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض فكان خيارهم وأقربهم الى الإسلام الرافضة وظهر بسببهم الرفض والإلحاد ، حتى كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان الغالية ونحوهم متشيعين ، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق .

وكان ابن سينا [3] وأهل بيته من أهل دعوتهم . قال : وبسبب ذلك

= فسجنه يوسف وعذبه ، ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد عام ١٢٦ هـ . وكان خالد يرمى بالزندقة .

[راجع الأغاني ١٩ : ٥٣ - ٦٤ . وتهذيب التهذيب ٥ : ٦٧ ، وابن خلدون ٣ : ١٠٥]

(١) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي . كان إمام أهل البصرة . وهو أحد العلماء الفقهاء ، الفصحاء ، الشجعان ، النساك . ولد بالمدينة ، وشب في كنف علي بن أبي طالب واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية . له مع الحجاج بن يوسف مواقف . توفي بالبصرة عام ١١٠ هـ .
راجع ميزان الاعتدال ١ : ٢٥٤ ، وحلية الأولياء ٢ : ١٣١ .

(٢) هو مروان بن محمد بن الحكم الأموي ، أبو عبد الملك . ويعرف بالجعدي آخر ملوك بني أمية في الشام . ولد بالجزيرة عام ٧٢ هـ . وكان والده رئيساً عليها . وافتتح قونية عام ١٠٥ هـ . إستولى على العرش سنة ١٢٧ هـ . قتل عام ١٣٢ هـ . [راجع الكامل لإبن الأثير ٥ : ١١٩ ، ١٥٨ . واليعقوبي ٣ : ٦٧ ، وابن خلدون ٣ : ١١٢، ١٣٠ . والطبري ٩ : ٥٤]

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

اشتغلت في الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تـولى المقتدر ، ولم يكن قـد بلغ بعد ، وهـو مبدأ انحـلال الدولـة العباسية ، ولهذا سمي حينئـذ بأميـر المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبـل ذلك لا يسمى بهـذا الاسم ويقـول : لا يكون للمسلمين خليفتـان ، فلما ولي المقتـدر قال هـذا صبي لا تصح ولايته فسمي بهذا الاسم .

وكـان بنو عبيـد الله القداح [1] المـلاحـدة يسمـون بهـذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحـدة زنادقـة منافقين ، وكـان نسبهم باطـلا كدينهم بخلاف الأموي والعباسي فإن كلاهما نسبه صحيح ، وهم مسلمـون كأمثـالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسـول سلطت عليهم الأعداء . فخرجت الروم النصارى الى الشام والجزيرة مرة بعـد مرة ، وأخـذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء ، إلى أن أخذوا بيت المقـدس في أواخر المـائة الرابعة ، وبعد ذلك بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهـل الشام بـأسوأ حـال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة ، إلى أن تولى نـور الدين الشهيد ، وقام بما قام بـه من أمر الإسـلام وإظهاره والجهـاد لأعدائـه ، ثم استنجد بـه ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم ، وجـرت فصول كثيـرة إلى أن أخذت

---

(١) هو عبد الله بن ميمون بن داود المخزومي بالولاء ، المعروف بابن القداح ، فقيه إمـامي ، من رجال الحديث من أهـل مكة ، واهي الحـديث عند علمـاء السنة ، قـال النسائي : ضعيف ، وقال أبو حـاتم : لا يجوز الاحتجـاج به إذا انفـرد ، وهو من الثقـات عند الشيعـة ، له كتب ، منهـا « مبعث النبي وأخباره » و« صفـة الجنة والنـار وكان أبـوه فارسي الأصـل ، من موالي بني مخزوم ، عرف بالقداح ـ وهي صناعة السهام مات عام ١٨٠ هـ [راجع منهـج المقال ٢١٢ ، وتهذيب التهذيب ٦ : ٤٩ واللباب ٢ : ٢٤٥ وفيه تخطئة ابن الأثير للسمعاني في كـلامه على « القداحية » وفي المؤرخين من يصل بعبد الله بن ميمون نسب الفاطميين العبديين أبناء عبيـد الله بن محمد « الملقب بالمهدي »]

مصر من بني عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن شاذي [1] ، وخطب بها لبني العباس ، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة . فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الإلحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقا لقوله ﴿ **يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ** ﴾ [2] .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سلط عليهم الكفار . قال تعالى :

﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ في الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً، فإذا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولي بَأْس**

---

(١) هو يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام ، كان أبوه وأهله من قرية دوين في شرق أذربيجان وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذانية من الاكراد ولد بتكريت عام ٥٣٢ هـ ونشأ في دمشق دخل مع أبيه وعمه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، صاحب دمشق وحلب ، والموصل ـ استقل بحكم مصر واستمرت ٢٤ سنة وبسورية ١٩ سنة وخلف من الأولاد ١٧ ذكراً وانثى واحدة وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته وتوفي عام ٥٨٩ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٣٧٦]

(٢) سورة الصف آية رقم ١٠ ـ ١٣

شَدِيدٍ ، فَجاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعولاً . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً . إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً . عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [1] .

وكان بعض المشايخ يقول : هولاكو [2] ـ ملك الترك التتار الذي قهر الخليفة بالعراق ، وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال : قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ . كان بعض الشيوخ يقول هو ـ للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبني إسرائيل . وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى أنه صنف الرازي [3] كتاباً في عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر ، سماه « السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم » ويقال : إنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكسن ابن جلال الدين خوارزم شاه . وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازي به اتصال قوي ، حتى أنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتابا سماه « الرسالة العلائية في الاختيارات السماوية » . وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التي علمها النبي ﷺ للمسلمين كما قال جابر في الحديث

---

(١) سورة الأسراء الآيات من ٤ ـ ٨ .

(٢) فاتح مغولي حفيد « جنكيز خان » قضى على الحشاشين في ايران ١٢٥٦ م ثم قضى على الخلافة العباسية ١٢٥٨ وزحف على الشام ١٢٦٠ م ولكن المماليك هزموه بقيادة سيف الدين قطز في معركة « عين جالوت » فارتد شرقاً واستقر في ايران . [راجع الموسوعة الثقافية ص ١٠٣٧]

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله الرازي ، الإمام المفسر . وهو قرشي النسب . أصله من طبرستان . ومولده من الري عام ٥٥٤ هـ . توفي في هراة عام ٦٠٦ هـ . كان يحسن الفارسية . من تصانيفه : مفاتيح الغيب ، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات ، وغير ذلك كثير . [راجع طبقات الأطباء ٢ : ٢٣ ، والوفيات ١ : ٤٧٤] .

الصحيح الذي رواه البخاري وغيره « كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : ـ

« اذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ، من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه باسمه خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » [1] .

وأهل النجوم لهم اختيارات إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلا أخذ طالعاً سعيداً ، فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتباً في الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذباً ، وكم يأمرون باختيار فيكون شراً ، والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في « السر المكتوم » في عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها ، والشرك بها ودعائها ، مثل ما يدعو الموحدون ربهم ، بل أعظم ، والتقرب اليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٠ باب قول الله تعالى (قل هو القادر ٧٣٩٠ ـ حدثنا معن بن عيسى ، حدثني عبد الرحمن بن أبي الموالي . قال سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن يقول وذكره . وأخرجه الترمذي في أبواب التطوع ٣٤٤ باب ما جاء في صلاة الاستخارة ٤٧٨ ـ بسنده عن جابر بن عبد الله . قال الترمذي : حديث جابر حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الموالي ، وهو شيخ مديني ثقة ، روى عنه سفيان حديثاً وقد روي عن عبد الرحمن غير واحد من الأئمة .
وأخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٨٨ باب ما جاء في صلاة الاستخارة ١٣٨٣ ـ حدثنا خالد بن مخلد ثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عن جابر بن عبد الله وذكره .

فذكر أنه يتقرب الى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ، ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله .

وهذا في نفس الأمر يقرب الى الشياطين ، الذين يأمرونهم بذلك ويقولون لهم : إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله ، لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصي ، ولكن الشياطين هي التي تأمر بذلك ، ويسمونها روحانية الكواكب ، وقد يجعلونها ملائكة وإنما هي شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق بسبب مثل هذا الملك ونحوه ، ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار ، فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ويعلم تحقيق ما أخبر الله به في كتابه ـ حيث يقول : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ** ﴾ [1] أي أن القرآن حق . وقال : ﴿ **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾ [2] وبسط هذا له موضع آخر .

« من أسباب انقراض دولة بني أمية مقالة الجعد »

و« المقصود هنا » أن دولة بني أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد [3] المعطل وغيره من الأسباب ، التي أوجبت إدبارها ، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان [4] بخراسان . وقد قيل : إن أصله من ترمذ وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية ، وقد قتل في بعض الحروب . وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق . ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك [5] وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٣٧ .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٤) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٥) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم . مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوي أمرهم لما مات الرشيد [(1)] وتولى ابنه الملقب بالمأمون [(2)] بالمشرق ، وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولي الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ، ودعا الى قولهم في آخر عمره، وكتب الى بغداد وهو بالثغر بطرسوس التى ببلدسيس ـ وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد [(3)] رضي الله عنه ، والسري السقطي [(4)] ، وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضا صالح ابن أحمد بن حنبل ، ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيماً، فكتب من الثغر ـ إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : القرآن مخلوق ، فلم يجبه أحد ، ثم كتب

---

(1) هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ، ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر ، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم . ولد بالري ، لما كان أبوه أميراً عليها، وعلى خراسان . ونشأ في دار الخلافة ببغداد ، وولاه أبوه غزوة الروم في القسطنطينية . وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ . وكان الرشيد عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه . توفي في « سناباذ » من قرى طوس . وبها قبره . [راجع النجوم الزاهرة ٣ : ١٩٨ ، والكامل لإبن الأثير : حوادث سنة ٣٢٢ ، وصلة تاريخ الطبري ٦٩] .

(2) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، أبو العباس : سابع الخلفاء من بني العباس في العراق ، وأحد أعظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه . نفذ أمره من إفريقية الى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند . ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ . ولد سنة ١٧٠ هـ وتوفي سنة ٢١٨ هـ . [راجع ذيل المذيل ٨٨ والإصابة . ت ٤٩٩٤ وهو في المحبر ٤٦ من المشبهين بالنبي (ﷺ)] .

(3) الامام أحمد بن حنبل سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

(4) سري بن المغلس السقطي . أبو الحسن : من كبار المتصوفة . بغدادي المولد والوفاة . وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته . توفي عام ٢٥٣ هـ . [راجع الكامل لإبن الأثير ٧ : ٢٩] .

كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله اليه فأجاب أكثرهم ، ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ؛ فأرسلوهما اليه فمات قبل أن يصلا اليه ، ثم أوصى الى أخيه أبي اسحاق ، وكان هذا سنة ثماني عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية ، وامتحنوا الناس فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات ، ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه ، والا لم يفتدوه . وكتب قاضيهم أحمد بن أبي داود [1] على ستارة الكعبة « ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم » ، لم يكتب وهو ﴿ السميع البصير ﴾ ثم ولي الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة وظهرت حينئذ السنة ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة الى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . قيل له : بحد ؟ قال : بحد وكذلك قال أحمد بن حنبل ، واسحاق بن ابراهيم بن راهويه [2] ، وعثمان بن سعيد الدارمي [3] ، وغيرهم

---

(1) أحمد بن أبي داود بن جرير بن مالك الإيادي . أبو عبد الله : أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ، ورأس فتنة القول بخلق القرآن . قدم به أبوه من قنسرين الى دمشق . فنشأ فيها . ومنها رحل الى العراق . وقيل ولد بالبصرة . توفي مفلوجاً ببغداد . [راجع البعثات العلمية ٦١ ، وحركة الترجمة بمصر ٦٤ ، وبناء دولة ١١٢ و٦٨٣]

(2) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي ، أبو يعقوب بن راهويه ، عالم =

من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون . وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه ، كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِي ﴾ (1) ويقول لموسى : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (2) ويقول : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ (3) .

وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أن يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ويكون هو المعبود المطاع .

« وحدة الوجود وأقوال اتباعها والرد عليها »

فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول الى قول فرعون كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته وإنكار كلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق هو الموجود المحدث المخلوق ،

= خراسان في عصره . من سكان مرو (قاعدة خراسان) وهو أحد كبار الحفاظ . طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ولد عام ١٦١ هـ . وتوفي بنيسابور عام ٢٣٨ هـ . [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٠٩ - ٤١٤ ، وتهذيب التهذيب ١ : ٢١٦ ، وميزان الإعتدال ١ : ٨٥ ، وابن خلكان ١ : ٦٤ ، والإنتفاء ١٠٨ ، وحلية الأولياء ٩ : ٢٣٤ ، وطبقات الحنابلة ٦٨ وفيه : ولادته سنة ١٦٦ ووفاته سنة ٢٤٣ هـ ، وتاريخ بغداد ٦ : ٣٤٥ .

(٣) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني ، أبو سعيد : محدث هراة . له تصانيف في الرد على الجهمية . وله « مسند كبير » ولد عام ٢٠٠ هـ . وتوفي في هراة عام ٢٨٠ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٧٧ والتبيان - خ]

(١) سورة القصص آية رقم ٣٨ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

والرب هو العبد ، ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق بل هو عندهم فرقان .

ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، ويعيبون على نوح وعلى إبراهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ، ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله ، وأن الله نفسه هو العابد وهو المعبود ، وهو الوجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه ، وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله ، وتكليمه لموسى وغيره . وقد ضل في هذا جماعة لهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين [1] والصدر القونوي [2] تلميذ ابن عربي والبلياني والتلمساني [3] ، وهو من حذاقهم علماً ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتي المحرمات .

وحدثني الثقة أنه قرأ عليه « فصوص الحكم » لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن ، قال فقلت له : هذا الكلام يخالف القرآن ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات ١ : ٢٤٧ ، ونفح الطيب ١ : ٤٢١ وشذرات الذهب ٥ : ٣٢٩ .

(٢) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي ، صدر الدين . صوفي من كبار تلاميذ الشيخ محيي الدين بن عربي . تزوج ابن العربي أمه . وكان شافعي المذهب . وبينه وبين نصير الدين الطوسي مكاتبات في بعض المسائل الحكمية . من كتبه (الفصوص في تحقيق الطور المخصوص ، ومفتاح الغيب . . . وغير ذلك كثير) . [راجع مفتاح السعادة ١ : ٤٥١ ، وطبقات السبكي ٥ : ١٩]أ .

(٣) سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني ، عفيف الدين، شاعر ، كومي الأصل (من قبيلة كومة) ، تنقل في بلاد الروم . ولد عام ٦١٠ هـ . وسكن دمشق . وصنف كتباً كثيرة منها : « شرح مواقف النفزي » و« شرح الفصوص » لابن عربي ، وكتاب في « العروض ـ خ » وشعره مجموع في « ديوان ـ خ » . مات في دمشق عام ٦٩٠ هـ . [راجع غربال الزمان ـ خ ـ والنجوم الزاهرة ٨ : ٢٩ ، والبداية والنهاية ١٣ : ٣٢٦ ، وآداب اللغة ٣ : ١١٩ ، وشذرات الذهب ٥ : ٤١٢] .

كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم . فقال له رفيقه : هذا أيضا هو ذات الله ؟ فقال : وهل ثم شيء خارج عنها ؟ نعم الجميع في ذاته ؟ .

وهؤلاء حقيقة قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخاف أأحداً فينافقه فلم يثبت الخالق ، وإن كان في الباطن مقراً به ، وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق . لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه الى الجحود والإنكار . كما قال : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (١) .

وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق ، وإن الخالق هو المخلوق فكان قولهم هو قول فرعون ، لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد ، وهؤلاء إما جهال ضلال ، وإما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ، يوافقون المسلمين في الظاهر .

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ، ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً ، أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي يطلب منه المعرفة والعلم . قال : فدعاني إلى هذا المذهب فقلت له : قولكم هذا يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون ؟ . فقلت لعبد السيد واعترف لك بهذا قال : نعم ، وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب ، فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول الى قول فرعون ، فحدثني بهذا فقلت له : ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على

---

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ و١٤

قول فرعون ، لكن مع إقرار الخصم ما يحتاج الى بينة . قال عبد السيد فقلت له : لا أدع موسى وأذهب الى فرعون . فقال : ولم ؟ قلت : لأن موسى أغرق فرعون فانقطع ، واحتج عليه بالظهور الكوني ، فقلت لعبد السيد ـ وكان هذا قبل أن يسلم ـ نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعوني .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه ، وهم يحسبون أنه حق ، وعامتهم ـ الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله . وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ـ لا يفهمون حقيقة قولهم ، بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض (١) ، وإبراهيم بن أدهم (٢) ، وأبي سليمان الداراني (٣) ، والسري السقطي ،

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي . شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق منهم الشافعي ، ولد في سمرقند عام ١٠٥ هـ ونشأ بابيورد ودخل الكوفة وهو كبير ، وأصله منها ثم سكن مكة وتوفي بها عام ١٨٧ . [راجع طبقات الصوفية ٦ ـ ١٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٥٥ وتهذيب ٨ :و ٢٩٤ والجواهر المضيئة ١ : ٤٠٩]

(٢) هو ابراهيم بن أدهم بن منصور ، التميمي البلخي أبو إسحاق : زاهد مشهور . كان أبوه من أهل الغنى في بلخ ، فتفقه ورحل إلى بغداد ، وجال في العراق والشام والحجاز . أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه . [راجع تهذيب إبن عساكر ٢ : ١٦٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ١٣٥ ، والشريشي ٢ : ٨٢ ، وحلية الأولياء ٧ : ٣٦٧ ثم ٨ : ٣ ، وروض المناظر ـ خ ـ وفيه وفاته سنة ١٦٠ هـ . ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٣٣ . والمناوي ١ : ٧٣ وفيه : مات بالجزيرة سنة ١٦٢ هـ . وفوات الوفيات ١ : ٣] .

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي ، أبو سليمان : زاهد مشهور ، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الشام ، وتوفي في بلده . كان من كبار المتصوفين . [راجع طبقات الصوفية ٧٥ : ٨٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٧٦ ، وحلية الأولياء ٩ : ٢٥٤ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٤٨ ، وتاريخ داريا ٥١] .

والجنيد بن محمد [1] ، وسهل بن عبد الله [2] وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وأن جميع الأنبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة ، يخرجون أقوال المتفلسفة والجهمية في قالب الكشف . وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكاً يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول .

وهم يعظمون فرعون ، ويقولون ما قاله صاحب « الفصوص » قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه جار في العرف الناموس . لذلك قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [3] .

أي وان كان الكل أرباباً بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر

---

(1) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، أبو القاسم : صوفي ، من العلماء بالدين . مولده ومنشأه ووفاته ببغداد . وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز . قال أحد معاصريه : ما رأت عيناي مثله . وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه . من كلامه : طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به . توفي عام ٢٩٧ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١١٧ ، وحلية الأولياء ١٠ : ٢٣٥] .

(2) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري ، أبو محمد : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال . له كتاب في تفسير القرآن ، وكتاب رقائق المحبين . . . وغير ذلك . توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات ١ : ٢١٨ ، وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ ، والشعراني ١ : ٦٦] .

(3) سورة النازعات آية رقم ٢٤ .

من الحكم فيكم قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له :

﴿ فَاقْضِ ما أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (1) قال فصح قول فرعون ﴿ أنا ربُّكُمُ الأعْلَىٰ ﴾ وان كان فرعون عين الحق . وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله ﷺ . قال : وإذا نهق الحمار ونبح الكلب سجدوا له . وقالوا هذا هو الله فإنه مظهر من المظاهر . قال : فقلت له محمد بن عبد الله أيضا مظهر من المظاهر . فاجعلوه كسائر المظاهر وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه ، قال فقالوا لي : محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا اليه وعاقب من لم يقل به ، قال : فتناقضوا في مذهبهم الباطل ، وجعلوا الكلب والحمار أفضل من أفضل الخلق . قال لي : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكا، وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطانا » (2) فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقا ـ لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء ـ وقد صنف كتاباً سماه « فك الأزرار عن أعناق الأسرار » ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس ، وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا ، لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ

---

(1) سورة طه آية رقم ٧٢ .

(2) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب بدىء الخلق ١٥ ، وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب ١٠٦ ، والامام الترمذي في كتاب الدعوات ٥٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠٦ ، ٢ : ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٦٤ (حلبي)

منكم . فإني تجليت له فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فاسجد لي فتعجبت كيف سجد لي ، قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى في الوجود اثنين وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين ابليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لابليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربي [1] نوحاً أول رسول بعث الى أهل الأرض ، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه في السفينة ، وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوه . فلبث في قومه الف سنة إلا خمسين عاماً . وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ما عبدوا إلا الله ، وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله . وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكافرين .

كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وابراهيم وموسى وهارون وغيرهم . ومدح عباد العجل وتنقص هارون وافترى على موسى . فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه بأن الله قد قضى ألا يعبد إلا إياه ، وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في انكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء ـ فذكر عن موسى أنه عتب على هارون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فأنكره ، فإن العارف من يرى

---

(1) هو محمد بن علي بن محمد بن العربي ، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي ، فيلسوف له شطحات صدرت عنه ، واتهم بالزندقة فعمل بعضهم على إراقة دمه ، ولكن تمكن من خلاصه على ابن فتح البجائي . يقول عنه الذهبي : قدوة القائلين بوحدة الوجود . له نحو أربعمائة رسالة وكتاب منها : الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم ، ومفاتيح الغيب . توفي عام ٦٣٨ هـ . [راجع فوات الوفيات ٢ : ٢٤١ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٨٧ ، وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٨] .

الحق في كل شيء ، بل يـراه عين كل شيء . وهـذا من أعظم الافتـراء على موسى وهارون ، وعلى الله ، وعلى عبـاد العجل فـإن الله أخـبر عـن موسى أنه أنكر العجل إنكارا أعظم من إنكار هارون ، وأنه أخذ بلحية هـارون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفته . قال تعالى : -

﴿ وَمَـا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِـكَ يَـا مُـوسَىٰ ؟ قَـالَ : هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي [(١)] . وعَجِلْتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، قَـالَ : فَإِنَّـا قَدْ فَتَنَّـا قَوْمَـكَ مِن بَعْـدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [(٢)] ، فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ، قَالَ يَا قَوْمِ ؛ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ؟ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدَ ، أَمْ أَرَدْتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّكُمْ فَـأَخْلَفْتُمْ مَوْعِـدِي ؟ قَالُـوا : مَا أَخْلَفْنَـا مَوْعِـدَكَ بِمَلْكِنَا ، وَلَكِنَّـا حُمِّلْنَـا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَـا فَكَذَلِـكَ أَلْقَى السَّامِـرِيُّ ، فَأَخْـرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَـداً لَهُ خُـوَارٌ . فَقَالُـوا : هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَـهُ مُـوسَىٰ فَنَسِيَ ، أَفَـلَا يَـرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ [(٣)] إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ؟ وَلَقَدْ قَـالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن

---

(١) ليس يـريد أنهم يسيـرون خلفه متـوجهين إليه ، بـل أراد أنهم بـالقـرب مني ينتـظرون عـددي إليهم .

وقيل : لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني اسرائيل أسره ويلحقوا به وقال قوم : أراد بـالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً الى سماع كلام الله عز وجل .

(٢) قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان السـامري من قـوم يعبدون البقـر ، فوقـع بأرض مصـر فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره ، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر .

وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن بـه وخرج معه وقيل : كـان عظيمـاً من عظماء بني اسرائيل منّ قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام .

قال سعيد بن جبير ، كان من أهل كرمان .

(٣) وأن لا يـرجع تقـديره أنـه لا يرجـع فلذلك ارتفـع الفعل فخففت (أن) وحـذف الضمير وهـو الاختيار في الرؤ ية والعلم والظن قال :

في فتيـة من سيـوف الهنـد قـد علمـوا   أن هـالـك كـل من يـحفـى وينـتـعـل =

قَبْلُ : يَا قَـوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِـهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَـاتَّبِعُونِي وأَطِيعُـوا أَمْرِي ، قَالُوا : لَن نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ، قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ؟ قَالَ يَـا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِـرأْسِي ، إِنِّي خَشِيتُ أن تَقُـولَ فَـرَّقْتَ بَيْـنَ بَنِـي إِسْـرَائِيـلَ وَلَـمْ تَـرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [1] .

قلت لبعض هؤلاء هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه ، فقال : لا بل يخالفه ، قلت : فاختر لنفسك إما القرآن وإما كلام ابن عربي .

وكـذلك قـال عن نوح قـال : لو أن نوحاً جمـع لقـومـه بين الـدعـوتين لأجـابوه ، أي ذكـر لهم فدعـاهم جهاراً ثم دعـاهم إسراراً إلى أن قـال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعـو ؛ لأنه مـا عدم من البـداية فيـدعى الى الغاية ﴿ أدعوا إلى الله ﴾ فهذا عين المكر ﴿ على بصيرة ﴾ فنبه أن الأمر كله لله فأجابوه مكراً كما دعاهم ، فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي من حيث هويته ، وإما هي من حيث أسمائه فقال : ﴿ يَـوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ [2] فجاء بحرف الغـاية وقـرنها بـالاسم فعرفنـا أن العالم كـان تحت حيـطة اسم إلهي أوجب عليهم أن يكونـوا متقين . فقالـوا في مكرهم : ﴿ لَا تَـذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَـذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُـواعاً ، وَلَا يَغُـوثَ وَيَعُـوقَ وَنَسْراً ﴾ [3] فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن

= وقد يحذف مع التشديد قال :

فـلو كـنـت ضـبـيـاً عـرفـت قـرابـتـي ولـكـنَّ زنـجـيٌّ عـظـيـم الـمـشـافـر

أي ولكنك .

(1) سورة طه من آية رقم ٨٣ ـ ٩٤ .

(2) سورة مريم آية رقم ٨٥ .

(3) سورة نوح آية رقم ٢٣ .

للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله ، كما قال في المحمديين :

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [1] أي حكم ، فالعارف يعرف من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله في كل معبود .

وهو دائما يحرف القرآن عن مواضعه ، كما قال في هذه القصة : ﴿ مِمَّا خَطِيآتِهِمْ ﴾ [2] فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهي الحيرة . ﴿ فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾ [3] في عين الماء في المحمديين ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [4] سجرت التنور أوقدته ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ الله أَنصاراً ﴾ [5] فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه الى الأبد - وقوله ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ بمعنى أمر وأوجب وفرض ، وفي القراءة الأخرى « ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا إياه وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير الله قط وهذا من أظهر الفرية على الله وعلى كتابه ، وعلى دينه ، وعلى أهل الأرض .

فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون الشيطان ، كما قال تعالى : -

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة التكوير آية رقم ٦ .

(٥) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَـلَّ مِنْكُمْ جِبِلاّ كثيـراً أَفَلَمْ تَكُونُـوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقال تعالى عن يوسف أنه قال : ـ

﴿ يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَأَرْبَـابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَيْرٌ أَمِ الله الـوَاحِدُ القَهَّـارُ ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الـدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ ﴾ (٢) وقال تعـالى : ـ ﴿ وَجَاوَزْنَـا بِبَنِي إِسْرَائِيـلَ البَحْرَ ، فَـأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَـا إِلهاً كَمَـا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى عن الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لأَبيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِـرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئـاً ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَـاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَـا لَمْ يَـأْتِـكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّـاً . يا أَبَتِ إِنِّي أَخَـافُ أَن يَمَسَّكَ عَـذَابٌ مِنَ الـرَّحْمَنِ فَتَكُـونَ لِلشَّيْـطَانِ وَلِيّـاً . قَـالَ : أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَـا إِبْـراهِيمُ ؟ لَئِن لَمْ تَنتَـهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُـرْنِي مَلِيّاً . قَـالَ سَلاَمٌ عَلَيْـكَ سَأَسْتَغْفِـرُ لَـكَ رَبِّي إِنَّـهُ كَـانَ بِي حَفِيّـاً . وَأَعْتَـزِلُكُمْ وَمَا تَـدْعُـونَ مِن دُونِ الله وَأَدْعُـو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُـونَ بِـدُعَـاءِ رَبِّي شَقِيّاً . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَـهُ إِسحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَكُلاًّ

---

(١) سورة يس الآيات من ٦٠ الى ٦٢ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٣٨ ـ ١٤٠ .

جَعَلْنَا نَبِيّاً ، وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِن رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [1]

فهو سبحانه تعالى يقول : ـ

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [2]

وهؤلاء الملحدون يقولون : ما عبدنا غير الله في كل معبود .

وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ، وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا : لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [3] .

إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّهِمْ ، وذِلَّةٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ ﴾ [4] .

قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله . والجهمية النفاة كلهم مفترون ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل إنما يقودون قولهم الى فرية على الله ، وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول إنه يحل فيه ، وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق ، فإن هذا إنما يكون إذا شيئان متباينان ، ثم اتحد

---

(1) سورة مريم الآيات رقم ٤٢ ـ ٥٠ .

(2) سورة مريم الآيات رقم ٤٩ .

(3) سورة الأعراف آية رقم ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(4) سورة الأعراف آية رقم ١٥٢ .

أحدهما بالآخر ، كما يقول النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا إنما يقال في شيء معين .

وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده ، وهم من أعظم الناس تناقضاً ، فإنهم يقولون ما ثم غير ولا سوى ، وتقول السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله الا الله ، ثم يقولون هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا ، فإذا كان ما تم غير ،ولا سوى فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ومن الذي ليسن بمحجوب وعم حجب ؟ فقد اثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمرا انكشف لهؤلاء وحجب عن أولئك . فأين هذا من قولهم ما ثم ابنان ولا وجودان ؟ كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وابنته ؟ قال : نعم ؟ الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم . فقيل لهم : فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غيرهم ؟ فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين وعندهم ما ثم غير . وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين ، فإنه يقال : الوجود واحد ، كما يقال : الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة أي يعني واحد كلي وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج ثم ظنوه هو الله ، وليس في الخارج كلي مع كونه كلياً ، وإنما يكون كلياً في الذهن ، وإذا قدر في الخارج كلي مع كونه كلياً وإنما يكون كلياً في الذهن وإذا قدر في الخارج كلي فهو جزء من المعينات وقائم بها ، ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فحيوانية الحيوان وإنسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة هي صفة له ، ويمتنع أن تكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجرداً عن العيان على رأي من أثبت « المثل الأفلاطونية » فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ، ويدعي أنها قديمة أزلية مثل إنسانية مجردة ، وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل .

وهذا الذي جعله مجرداً هو مجرد في الذهن وليس في الخارج كلي

مجرد ، وإذا قدر ثبوت كلي مجرد في الخارج وهو مسمى الوجود فهـذا يتناول وجود المحدثات كلها ، كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعا لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بـأنه حي عليم قـدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بـد أن يكون حياً عليماً قديراً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

« الفناء وأنواعه »

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان المـوجودة المخلوقـة فقد ثبت وجودان أحدهما غير الآخـر ، وأحدهمـا محدث مخلوق ، فيكـون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة ، ولكن الـواحد منْ هؤلاء قد يغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أنه ما لم يشهده قد عدم في نفسه وفني وليس كذلك ، فإن مـا عدم وفني شهـوده لـه وعلمـه بـه ونـظره إليـه ، فـالمعـدوم الفـاني صفــة هـذا الشخص ، وإلا فالموجـودات في نفسها بـاقية على حـالها لم تتغيـر ، وعدم العلم ليس علمـاً بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهوداً للعدم ، ولكن هذه الحال يعتـري كثيراً من السالكين يغيب أحـدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات وقد يسمـون هذا فناء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات ، لا أنها في نفسها فنيت ، ومن قـال : فني مـا لم يكن وبقي مـا لم يـزل ، فـالتحقيق ـ إذا كـان صادقاً ـ أنه فنى شهوده لما لم يكن ، وبقي شهوده لمـا لم يزل ، لا أن مـا لم يكن فني في نفسه ، فإنه باق موجود ، ولكن يتـوهمون إذا لم يشهـدوه أنه قـد عدم في نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة في الاتـحاد والـحلول ، فأحدهمـا قد يـذكر الله حتى يغلب على قلبـه ذكر الله ، ويستغـرق في ذلك فـلا يبقى لـه مـذكـور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفني ذكـره وشهوده لمـا سواه ، فيتـوهم أن الأشياء قـد فنيت ، وأن نفسـه فنيت حتى يتوهم أنـه هو الله ، وأن الـوجود هـو الله . ومن

هذا الباب غلط أبي يـزيد ونحـوه حيث قال : مـا في الجبة إلا الله . وقـد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن أمور ثلاثة : ـ

« أحـدها » أنـه يفنى بعبادة الله عن عبـادة ما سـواه ، وبمحبته وطـاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه ، وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به الـرسل ، وأنـزل به الكتب ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فقد فنى من قلبه التألـه لغير الله ، وبقي في قلبه تأله الله وحده ، وفني من قلبـه حب غير الله وخشيـة غير الله والتـوكل على غير الله ، وبقي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله .

وهذا الفناء يجامع البقـاء ، فيتخلى القلب عن عبادة غيـر الله مع تحلي القلب بعبـادة الله وحـده ، كـما قـال ﷺ لـرجـل : « قـل أسلمت لله وتخليت » وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفي مع الإثبات نفي إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده ، فإنه ليس في الوجود إله إلا الله ، ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله ، فيجب أن يكون هذا ثابتاً في القلب ، فلا يكون في القلب من يـألهه القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغيـر الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده ، إذ كان ليس ثم إله إلا الله وحده .

وهذه الولاية لله مقرونة بالبـراءة والعداوة لكـل معبود سـواه ولمن عبدهم قال تعالى عن الخليل عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَـةً بَاقِيَـةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَـرْجِعُونَ [1] ، ﴾ وقـال : ﴿ أَفَـرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُـدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْـدَمُونَ ، فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ ﴾ [2] .

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٢٦ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٧٥ ـ ٧٧ .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ . إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَاءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله. كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبداً ، حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ ﴾ [1] .

قلت لبعض من خاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل : ﴿ إنَّني بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ممن تبرأ الخليل . أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ؟ والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين . وقد جعله الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . قال تعالى : -

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ، إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَاءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ ، إلاَّ قَوْلَ إبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِن الله مِن شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإلَيْكَ أَنَبْنَا وَإلَيْكَ المَصِيرُ ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ يَرْجُو الله وَاليَوْمَ الآخِرَ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإنَّ الله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ [2] .

وقد قال ﷺ : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . .

وهذا تصديق قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ ، وَأَنَّ الله هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ [3] .

---

(1) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(2) سورة الممتحنة آية رقم ٤ - ٦ .

(3) سورة الحج آية رقم ٦٢ .

وقال تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلاّ الضّلاَلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [(٢)] .

قال طائفة من السلف كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه . وقد قال سبحانه : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إذْ أُنزِلَتْ إلَيْكَ ، وَادْعُ إلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ ﴾ [(٣)] و« الإله » هو المألوه أي المستحق لأن يؤله أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول مثل لفظ الركاب والحمال ، بمعنى المركوب والمحمول وكان الصحابة يرتجزون في حفر الخندق يقولون :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

وإذا قيل : هذا هو الإمام فهو الذي يستحق أن يؤتم به ، كما قال تعالى لإبراهيم : ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً ، قَالَ : وَمِن ذُرِّيَتِي . قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [(٤)] فعهده بالإمامة لا ينال الظالم ، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به في ظلمه ، ولا يركن اليه كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [(٥)] .

فمن أنتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل من الله إلها آخر ، وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى :

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٢
(٢) سورة القصص آية رقم ٨٨ .
(٣) سورة القصص آية رقم ٨٧ ـ ٨٨ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١٢٤ .
(٥) سورة هود آية رقم ١١٣ .

﴿ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [1] وقد غلط طائفة من أهل الكلام فظنوا أن « الإله » بمعنى الفاعل ، وجعلوا الإلهية هي القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبون .

فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور لكن إمامهم ابن عربي يقول : الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهاً . فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين ومعنى مألوهين عنده مربوبين وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة في العدم ، وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

و« التحقيق » أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء في الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به فيكون سبباً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج . كما قال : ـ

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2]

والله سبحانه خالق الإنسان ومعلمه فهو الذي : ـ

﴿ خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [3] وهو : ـ

﴿ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [4]

ولو قدر أن الإله بمعنى الرب فهو الذي جعل المربوب مربوباً فيكون

---

(١) سورة النساء آية رقم ٤٨ .

(٢) سورة يس آية رقم ٨٢ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١ ـ ٢ .

(٤) سورة العلق آية رقم ٣ ـ ٥ .

على هذا هو الذي جعل المألوه مألوهاً ، والمربوب لم يجعله رباً ، بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه ، كما قال تعالى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) وقال ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ والنَبِيِّينَ أَرْبَاباً ، أَيَأْمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُسْلِمُونَ ؟ ﴾ (٣) .

وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره . فإذا عبده الإنسان فقد وحده من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره .

قال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً ﴾ (٥) وقال إبراهيم لأبيه آزر : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٦) .

فالمخلوق ليس بإله في نفسه ، لكن عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً وسماه إلهاً ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره ، كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلا ، فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتي ولا

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٦٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وقد جاءت هذه الآية في الأصل محرفة (حيث قال (أفغير) بدلاً من (قل أغير الله)

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٨٠ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم٢١٣وقد جاءت الآيةمحرفة في الأصل حيث قال فلا تجعل بدلاً من(فلا تدع)

(٥) سورة الإسراء آية رقم ٢٢

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٧٤ .

يقضي ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعي ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد .

ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي ، أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة وقد قال تعالى : ـ

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِما مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ . وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١) .

فغير الله لا مالك لشيء ، ولا شريك في شيء ، ولا هو معاون للرب في شيء ، بل قد يكون له شفاعة إن كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للمشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتة ، فلا يصلح من سواه لأن يكون إلهاً معبوداً ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً . لا إله إلا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

« انتهى »

---

(١) سورة سبأ آية رقم ٢٢ ـ ٢٣ .

فهرست الجزء الأول
من
كتاب التفسير الكبير